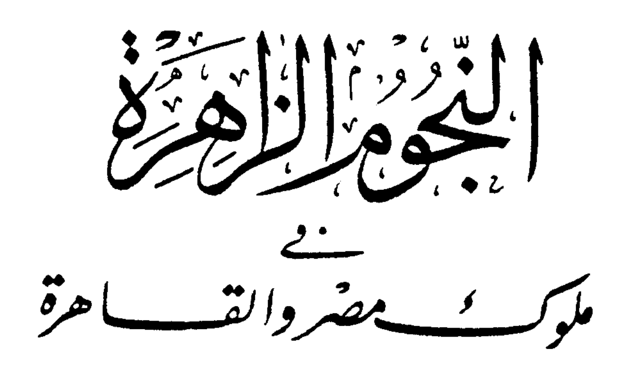
تراثنا



تأليف

جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى

الجزء الثالث عشر

تحقيق

فهيم محمد شلتوت

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر

فرج ابن الظاهر برقوق — الأولى على مصر

وهى سنة إحدى وثمانمائة ، على أنّ وَالِدَهُ الملكَ الظاهرَ بَرْقُوق حَكَمَ منها إلى نِصْفِ شَوّال ، ثُمَّ حَكَمَ فى باقيها الملكُ النّاصرُ هذا .

فيها تُوُفِّىَ قاضى القضاة عمادُ الدين أحمدُ بن عيسى بن سليم بن جميل الأَزْرَقِىّ العامرِىّ الكَرَكِىّ الشافعىّ ، قاضى قضاة الكَرَك(١) ، ثم الدِّيار المصرية بالقُدْس فى سادس شهر ربيع الأوّل ، وكانَ فاضِلاً رئيساً نَبِيلاً ، وهو أحدُ من قامَ مع الملك الظّاهر بَرْقُوق عند خرُوجِهِ من سِجن الكَرَك ، وخَدَمَه فى أيّام حَبْسه بها — وقد تقدَّمَ ذِكرُ ذلك كلّه فى ترجمة الملكِ الظّاهر بَرْقُوق — ولَمَّا عادَ الملكُ الظّاهِرُ إلى مُلْكِهِ عَرَفَ له ذلك ، وطَلَبَهُ إلى الدِّيار المصريّة ، وولاّه قضاء الشّافعيّة بالدِّيار المصريّة ، وَوَلّى أخاه علاء الدين كاتب سِرِّ الكَرَك كتابةَ(٢) سِرّ مصر ، ثم صُرِف القاضى

(١) الكرك مدينة محدثة البناء ، كانت ديراً ثم وسعه رهبانه حتى صار مأوى للنصارى ، ثم صار قلعة ، وتقع بأطراف الشام من نواحى البلقاء (بالمملكة الأردنية حاليا) على سن جبل بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس (القلقشندى — صبح الأعشى ٤ : ١٥٥) و (ياقوت معجم البلدان ٤ : ٣١٢)

(٢) وظيفة موضوعها قراءة الرسائل الواردة للسلطان ، وكتابة أجوبتها ، وأخذ توقيع السلطان عليها ، وتسفيرها ، وتصريف المراسيم ورودا وصدورا ، والجلوس لقراءة الشكاوى بدار العدل ، والتحدث فى أمر البريد ، وتصريف القصاد ، ومشاركة الدوادار فى أكثر الأمور السلطانية (القلقشندى — صبح الأعشى ٤ : ٣٠ ، ٥ : ٤٦٤) .

عمادُ الدين هذا عن القضاء برَغْبَـةٍ مِنْه ، وَوَلِيَ مشيخةَ الصلاحية[١] بالقُدْس الشّريف إلى أن مَاتَ به .

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين أرْغُون شاه بن عبـد الله الإبراهيميّ الظّاهِرِيّ ـ بَرْقُوق ـ نائبُ حَلَب بها ، فى ليلة خامس عشرين صفر ، وكانَ من أخصّاء مماليك الملك الظّاهر بَرْقُوق ، رَقّاه إلى أنْ ولاّه نيابة صَفَد[٢] ، ثم طَرَابُلُس ، ثم نقَلَه إلى نيابة حَلَب بعد عَزْل الوالد عنها فى سنة ثمانمائة ، فَدَامَ بها إلى أنْ مَاتَ ، وكانَ أميراً عاقلا ساكناً ، مَشْكُورَ السيرة ، وتوَلّى بعـدَه نيابةَ حَلَب الأميرُ آقْبغا الجَمالى الأطْرُوش .

وتُوُفِّيَ الأميرُ زينُ الدين أميرُ حاج بن مُغُلْطَاى ، أحدُ الأمراء بالدّيار المصريّة . فى شهر ربيع الأول ، وكان له رياسة وَوَجَاهة .

وتوفّيَ الشيخُ الإمامُ العَلاّمة قُنْبُر بن محمد العجمىّ الشِّيْرَامِيّ[٣] الشافعى ، العالمُ المشهورُ بالقاهرة ، فى شعبان ، وكانَ قُدُومُهُ إليها مِنْ بلاد العَجَم فى حـدود سنة سبع وثمانين وسبعمائة ، ونَزَل بجامع الأزهر ، وكان مُتَفَنِّناً فى عِدّة فُنُون من العلوم ، درّسَ ، واشتغل ، وانتفعَ به الطلَبَةُ ، وكان تاركاً للدُّنيا ، متقشِّفاً فى مَلْبَسِه ، قَدْ قَنَعَ بجبّة من لِبْد[٤] ، وطاقيّة من لِبْد ـ صيفا وشتاء ـ وقال العيْنىّ بعدما أثْنَى على عِلْمِه : وكان يميلُ إلى سماع المَغَانى واللّهو والرقص ، وكان يُتّهم بالمَسْح على رِجْلَيه من غير خُفّ[٥] ـ انتهى .

---

(١) فى الأصول « الصالحية » وليس هناك صالحية بالقدس ، والتصويب عن السخاوى فى الضوء اللامع (٢ : ٦١ ت ١٨٠) والصلاحية مدرسة بناها السلطان صلاح الدين الأيوبى بالقدس ، وأوقفها على الشافعية سنة ٥٨٨ هـ (كرد على ـ خطط الشام ٦ : ١٢٢ ـ ١٢٣) .

(٢) مدينة فى جبال عاملة المطلة على حمص ، وانظر (ج ٦ : ٤٢ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) وفى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٤٢) « الشيرازى العجمى » .

(٤) اللبد : هو الصوف الذى تداخلت أجزاؤه ولزق بعضها ببعض (محيط المحيط) .

(٥) وهومذهب الشيعة الباطنية . وترى أن المسح على القدمين هو الواجب وانظر (النعمان بن محمد ـ تأويل الدعائم ٩٨ ط دار المعارف) .

وتُوُفِّىَ الأميرُ سيف الدين بَـكْلَمُش بن عبد الله العلائىّ . أميرُ سلاح[١] كانَ – بَطَّالاً – بالقُدْس فى صفر ، وأصْلُهُ من مماليك الأمير طَيْبُغَا الحسنىّ الناصرىّ ، المعْرُوف بالطويل ، وتَرَقَّى بعده حتى صار من جُملة الأمراء ، ثمَّ أنْعَمَ عليه الملكُ الظاهرُ بَرْقُوق بإمْرَة طَبْلَخَانَاة[٢] قبل خَلْعِهِ من المُلْك ، ثمَّ جعله فى سلطنَتِه الثانية أمير آخورا كبيرا[٣] مدَّة سنين ، ثمَّ نَقَلَهُ – بعد أنْ أمسكه وحَبَسه – إلى إمْرَة سِلاح ، فَدامَ على ذلك سنين إلى أنْ قَبَضَ عليه فى تاسع عشرين المحرم مِنْ سنة ثمانمائة ، وقَبَضَ – معه أيضا – على الأمير الكبير كَمَشْبُغا الحَموىّ ، وحُملاَ إلى سجن الإسكندرية ، وتَوَلَّى الأميرآخورية بعده الأميرُ تَنْبَك الظاهرى ، فَدَامَ بَـكْلَمُش هذا فى السجن إلى أنْ أفْرَجَ عنه ، وبَعَثَهُ إلى القُدْس بَطَّالاً ، فَدَامَ به إلى أنْ مات ، وكان أميراً شُجاعاً مِقْدَاماً ، ذا كلمة نافذة فى الدولة ، إلا أنه كانَ فيه كِبْرٌ وجَبَرُوت ، وخُلُقٌ سيئٌ مع كرمٍ وإنعام ، وكانَ سببُ القَبْض عليه أنَّه ضَرَب مُوَقِّعَهُ القاضى صفىَّ الدين الدميرى وصادَرَه ، فَشَكَا صفىُّ الدين حالَهُ إلى السلطان فى أبياتٍ مَدَح السلطانَ فيها ، وذَمَّ بَـكْلَمُش المذكور ، من جُمْلَتِها قَوْلُه :

يا كُلُنِى ذئبٌ وأنتَ لَيْثٌ[٤]

فسَمِـع بذلك بَـكْلَمُش ، فطَلَبَهُ وضربه ثانيا بالمَقَارِع ، وكلما ضربه رَشَّ عليه الملح ، فكان كلَّما صاح يقول له بَـكْلَمُش قُلْ للَّيث يُخَلِّصك من الذئب ، فأقامَ بعد

---

(١) هو الذى يتولى أمر سلاح السلطان أو الأمير ، وهو المقدم على السلاح دارية من المماليك السلطانية ، ومصرف السلاح خاناة وما يستعمل لها ويقدم إليها ، ولا يكون إلا واحداً من الأمراء المقدمين . (القلقشندى – صبح الأعشى ٤ : ١٨ ، ٥ : ٤٥٦ – ٤٦٢) .

(٢) هى وظيفة يشرف شاغلها على بيت الطبول وتوابعها من الآلات ، ويتولى أمرها فى السفر ، ويقف عليها عند ضربها فى كل ليلة . (القلقشندى – صبح الأعشى ٤ : ١٣) .

(٣) هو المشرف على اسطبلات السلطان والمتولى أمر مافيها من الخيول والإبل وغيرها (القلقشندى – صبح الأعشى ٤ : ١٨ ، ٥ : ٤٦١) .

(٤) كذا ورد هذا الشطر فى الأصول . وفى المنهل الصافى للمؤلف :
« أنا كلنى الذئاب وأنت ليث؟ » ولم أقف على هذه القصيدة فى المراجع الميسرة لى .

ذلك مدة ، ومات من تلك العقوبة ، وبلغَ السلطانَ ذلك فأمهلهُ مدة ثم قبضَ عليه .

وفيها تُوُفِّىَ الأمير حسامُ الدين حسن الكُجْكُنىّ(١) نائب الكَرَك ، ثم أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية ، وهو الذى أخرجَ الملكَ الظاهرَ بَرْقُوق من سجن الكَرَك ، ولما أرسل إليه مِنْطَاشُ الشهابَ البريدىّ بقتله فقامَ حسامُ الدين هذا بنُصْرَتِهِ ، فلما عاد الملكُ الظاهرُ إلى ملكه كافأهُ وأنعمَ عليه بإمْرَة مائة(٢) ، وتقدمة ألف بديار مصر ، وصار من أعظم أمرائه إلى أن مات — رحمه الله — وكان عارفاً ، عاقلا ، سَيُوساً ، وعنده فضيلةٌ ، وفَهْمٌ جيد ومُذَاكَرَة .

وتُوُفِّىَ الشيخُ المُعْتَقِد خَلَفُ بن حسن بن حُسَين الطُّوخى(٣) ، فى ثانى عشرين شهر ربيع الأول ، وكان للناس فيه اعتقادٌ ومحبةٌ .

وتُوُفِّىَ الشيخُ المعتقدُ الصالحُ خليلُ بن عثمان بن عبد الرحمن بن عبد الجليل المغربىُّ ، ويعرف بابن المُشَيَّب ، فى سادس عشرين شهر ربيع الأول(٤) .

وتُوُفِّىَ الشيخ الإمامُ العالمُ العاملُ شِهابُ الدين أبو العباس أحمد بن أبى بكر ابن محمد العَبَّادىّ الحنفىّ الفقيه المشهور ، فى ليلة الأحد تاسع عشر شهر ربيع الآخر ، وكان من فُضَلاء الحنفيّة ، أفتى ودَرّسَ فى عدة فنون .

وتُوُفِّىَ الشيخُ الإمامُ الأديبُ البَليغُ علاء الدين أبو الحسن علىّ بن أَيْبَك [التقصباوى الناصرى](٥) الدّمشقىّ الشاعر المشهور ، فى ثالث عشر ربيع الأول بدمشق ، وكان بارعاً فى النَّظْم ، وله شِعرٌ رائِقٌ ، ذكرنا منه قطعة جيدة فى ترجمته فى

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى — للمؤلف — (م ٢ : ٢٩) والكجكنى منسوب إلى كجكن ، ومعناه اليوم الصعب — بضم الكافين وسكون الجيم ونون .

(٢) أمير المائة ومقدم الألف هو من له التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء ، وهو يمثل أعلى مراتب الأمراء ، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب (القلقشندى — صبح الأعشى ٤ : ١٤) .

(٣) له ترجمة فى المنهل الصافى — للمؤلف (م ٢ : ٦٢) .

(٤) وكان ميلاده سنة خمس عشرة وسبعمائة — وله ترجمة فى المنهل الصافى — للمؤلف — (م ٢ : ٧٣) .

(٥) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٣٩٢) .

تاريخنا « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » ومولده فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بدمشق ، ومن شعره — رحمه الله — قوله : (الكامل)

قُمْ زُفَّ بِنتَ الكَرْمِ ثُمَّ اسْتَجْلِهَا بِكْرًا لها فى الكَأْسِ رأسٌ أَشْمَطُ
فالطَّيْرُ شادٍ والنَّسيمُ مشبِّبٌ والغُصنُ يرقُصُ والغَمَامُ يُنَقِّطُ

وله أيضاً : (الوافر)

كأنَّ الرَّاحَ لمَّا رَاحَ يَسْعَى بها فِى الرَّاحِ ميَّاسَ القوَامِ
سنا المِرِّيخ فى كَفِّ الثُّرَيَّا يُحَيِّينَا بِهِ بَدْرُ التَّمَامِ

وله الموشح المشهور الذى أوله :

يا مَن حَكى خدُّه الشَّقائق وماله فى البها(١) شقيق
تركتنى بالدموع شارق لمَّا بدا خدُّك الشَّريق
سَلَلْتَ من ناظِرَيْكَ صارم للفَتْكِ يا شادِن الصَّرِيم
وسِرْتَ يوم الفراق سالم وقد تركت الحشا سليم
متى أراكَ الغداةَ قَادِم يا مَنْ حَدِيثى بِهِ قَدِيم
شيَّبْتَ من أجلك المفارق وسِرْتَ مع جملة الفريق
ما بين حادٍ حدا وسائق حمْلى بمن ساقه وسيق

وهو أطول من ذلك .

وتُوُفِّىَ العارف بالله شمس الدين محمد بن أحمد بن علىّ ، المعروف بابن نجم الصوفىّ بمكة المشرّفة ، فى صفر بعد أن جاور بها عدة سنين .

(١) فى المنهل الصافى — المؤلف (م ٢ : ٣٩٢) « الورى » .

وتُوُفِّىَ الخليفةُ أمير المؤمنين المعتصمُ بالله زكريا بن إبراهيم بن محمد بن أحمد — وهو مخلوعٌ من الخلافة — فى رابع عشرين جمادى الأُولى ، وقد تقدم ذكر ولايته للخلافة فى أيام أَيْنَبَك البَدْرِى(١) ، بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حُسين فى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، ثم خُلِعَ حتى ولاه الملك الظاهرُ بَرقُوق ثانياً بعد موت أخيه الواثق ، فلم تَطُل مدته أيضا ، وخلعه الملكُ الظاهر من الخلافة فى أول جمادى الأولى من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، وأعادَ المتوكلَ على الله ، فاستمرَّ المعتصمُ هذا معزولا طول عمره إلى أن مات فى هذه السنة ، وخلافته الأولى والثانية لم تَطُل مدته فيهما — انتهى .

وتُوُفِّىَ الأميرُ سيفُ الدين شيخُ بن عبد الله الصَّفَوِىّ الخاصَّكىّ(٢) ، أمير مَجْلس ، وهو مسجون بسجن المَرْقَب(٣) ، وكان ممن رقاهُ الملكُ الظّاهر بَرْقُوق إلى أن جعله أميرَ مائة ومُقدّم ألف فى سلطنته الثانية ، وجعله أمير مجلس ، ثمّ قبضَ عليه فى سنة ثمانمائة ، وأنعمَ بإقطاعه على الوالد بعد عزله عن نيابة حَلَب ، وأخرجه الملكُ الظاهرُ إلى القدس بطّالا ، فساءت سيرتُه بها ، وكانَ مُسْرفا على نفسه مُنْغَمِساً فى اللذات ، فأمرَ الملك الظاهرُ به فَنُقِل من القدس إلى حَبْس المَرْقَب إلى أن مات به ، قلتُ : وشيخٌ هذا هو أولُ أمير عظيم فى دولة الملك الظاهر بَرْقُوق ممن سُمِّىَ بهذا الاسم ، ثم بعده شيخُ المحمودىّ الساقىّ، أعنى الملك المؤيد ، ثم بعده شيخُ السُّلَيْمَانىّ المُسَرْطَن نائب طرابلس ، فهؤلاء الثلاثة هم أعظَمُ من سُمِّىَ بهذا الاسم ، ثم جاء بعدهم فى الدولة الأشْرفيّة — بَرْسْبَاى — اثنان : شيخٌ الأمير آخُور الثانى مملوكُ بيبَرس الأَتَابَك ، وشيخُ الحسنىّ الظاهرىّ أمير عشرة ورأس نَوْبة ، وهما كَلَا شىء بالنسبة إلى هؤلاء الثلاثة — انتهى .

---

(١) أنظر ذلك فى ج ١٠ : ١٥٥ من هذا الكتاب ط دار الكتب .

(٢) هو الذى يتولى أمور مجلس السلطان ، ويتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم ، ولا يكون إلا واحداً (القلقشندى . صبح الأعشى ٤ : ١٨) .

(٣) انظر التعليق (١) من ص ١٤٨ ج ٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب .

وتُوُفِّىَ العبدُ الصالحُ الأميرُ الطواشِىّ الرُّومىّ صَنْدَلُ بن عبد الله المَنْجَكِىّ[١]، خازندارُ[٢] الملك الظاهر برقوق، وعظيمُ دولته، وصاحبُ الطّبقة ـ بالقلعة ـ المعروفة بالصَّندليّة، فى ثالث شهر رمضان، وَوَجِدَ الملكُ الظاهرُ عليه وَجْدًا عظيما، ومات ولم يُخلّف من المال إلا النّزر اليسير إلى الغاية، هذا مع تمكّنِهِ فى الدولة، وطول مدته فى وظيفة الخازنداريّة فى تلك الأيام، وأنياتُه[٣] جماعة كبيرة من المماليك الظاهريّة، ومنهم جماعة فى قَيْد الحياة يحكون عن زهدهِ وصلاحهِ وعبادتهِ أشياء عظيمةً إلى الغاية، وكان الشيخُ تقىّ الدين المقريزىّ إذا حدَّثَ عنه يقول: حدَّثنى من لا أتّهمه العبدُ الصالحُ المَنْجَكىّ ـ انتهى.

وتُوُفِّىَ الأميرُ الكبيرُ ـ أتَابَك العساكر بالدّيار المصريّة، وعظيمُ المماليك اليَلْبُغَاويّة ـ كَمَشْبُغَا بن عبد الله الحموىّ اليَلْبُغَاوىّ، بسجن الإسكندرية، فى العشرين من شهر رمضان، وهو أحدُ من قام بِنُصرة الملك الظّاهر بَرْقُوق عند خروجه من سجن الكَرَك، وكانَ كَمَشْبُغَا يوم ذلك يلى نيابة حلب، وقد تقدم ذكرُ كَمَشْبُغَا هذا فى مواطن كثيرة من أواخر دولة الملك الأشرفِ شعبان بن حُسَيْن إلى أن أُمسِك وحُبِس، ومات، وكان من أجَلّ الملوك وأعظمها قدرًا، قيل للوالد لما وَلِىَ الأتابكيّة بالديار المصرية: يا خَوَنْدُ إمْشِ على قاعدة الأمير كَمَشْبُغَا، فقال الوالدُ:

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى ـ للمؤلف (م ٢ : ٢١٦).

(٢) هو المتحدث فى شأن خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك، وهو من مقدمى الألوف ويتحاسب فى هذه الأمور مع ناظر الخاص (القلقشندى ـ صبح الأعشى ٤ : ٢١).

(٣) لم أعثر على تعريف بهذا المصطلح فى المراجع التى تيسرت لى. وقد ورد مفرداً فى هذا الجزء وغيره «أنى» دون توضيح لضبطه. ولكن يفهم من السياق أنه الزميل الصغير الذى نشأ مع زملاء كبار فى خدمة سلطان أو أمير. ويؤكد هذا ما ورد فى ترجمة الأمير صندل فى الضوء اللامع للسخاوى (٣ : ٣٢٢ ت ١٢٤) «ونال صندل فى أيام الظاهر ـ برقوق ـ من الوجاهة والحرمة مالم ينله غيره من أبناء جنسه، وهو لا يزداد إلا ديناً وصلاحاً وعفة، حتى أن أنياته الذين هم من مماليك السلطان الظاهر يعتقدون فيه ويحكون عنه الكرامات» وأيضاً ماورد فى هذا الجزء بصدد حصار السلطان للأمير شيخ المحمودى وأتباعه بصرخد، واستعطاف شيخ لوالد المؤلف ـ وتعليق المؤلف بقوله «إن والده كان يميل إلى شيخ لما كان له من الخدم بالقصر السلطانى ـ أيام أستاذهما برقوق ـ من تلبيسه القماش» وقول شيخ فى استعطافه «فإننا أنياتك وخشداشيتك».

أيْشْ أنا حتى أمشى على طريق كَمَشْبُغَا ! كَمَشْبُغَا فى مقام أستاذى ، وكان بخدمةِ الوالد يومئذ أزيدُ من ثلاثمائة مملوك ، ورأيت سِمَاطه ومرتّباته تسعمائة رطل من اللحم فى كل يوم ، وفى هذا كفاية فى التعريف بحال كَمَشْبُغَا — رحمه الله .

وتُوُفِّىَ قاضى القضاة ناصرُ الدين أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عطاء الله ابن عواض بن نجا بن أبى الثّناء محمود بن نهار بن مُؤنس بن حاتم بن نيلى ابن جابر بن هشام بن عُرْوَة بن الزُّبَير بن العَوَّام — رضى الله عنه — المعروفُ بابن التَّنَسِىّ [السكندرى][1] المالكىّ ، قاضى قضاة الإسكندرية ، ثم الديار المصرية — بها — وهو قاض ، فى أول شهر رمضان ، وكانَ مشكورَ السيرة — رحمه الله — وهو والدُ القاضى بدر الدين محمد بن التَّنَسِىّ الآتى ذِكْرُه .

وتُوُفِّىَ الأمير سَيْفُ الدين قديد بن عبد الله القَلَمْطَاوِىّ ، أحد أمراء الطَّبْلَخَانَات — بَطَّالا — بالقدس ، فى شهر ربيع الأول ، وكان من قُدماء الأمراء ، وَوَلِىَ نيابة الكَرَك فى بعض الأحيان .

وتُوُفِّى الشيخ المعتقد المجذوب العجمى ، المعروف بالزهورىّ[2] فى أول صفر ، وكان شيخاً عجمياً ، وللناس فيه اعتقادٌ كبيرٌ لا سيما الملك الظاهر برقوق ؛ فإنه كان له فيه اعتقاد كبيرٌ إلى الغاية .

أخبرنى بعض حواشى الملك الظاهر : أن الزهورىّ هذا كان إذا جلس عند الملك الظاهر برقوق وكلّمَهُ يأخذ الملكُ الظاهرُ كلامه على سبيل المُكَاشَفَة ، وكان يقيم عنده غالباً فى الدور السّلطانيّة عند الخَوَنْدات[3] ، ووقع له مع

(١) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ١٣٧) .

(٢) هو محمد بن عبد الله الزهورى العجمى . وانظر ترجمته فى الضوء اللامع للسخاوى (٨ : ١٢٠ ت ٢٨٠) .

(٣) الخوندات : جمع خوند . وهو لفظ تركى أو فارسى يخاطب به الذكور والإناث على السواء ، ومعناه السيد أو الأمير . وجرت العادة أن يخاطب به الملوك . وكبار الأمراء ، وأمهات الملوك وزوجاتهم ، وانظر (ج ١ : ٢٢٤ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

الظاهر خوارق ومُكَاشفَاتٌ ، منها : أنه قالَ له يوما — وقد حان أجلهما — يا برقوق أنا آكل فرَارِيجَ وأنت تأكلُ بعدى دجاجا ثم ترُوحُ ، ففطن برقوقُ أنه يُقيم بعد موت الزّهورىّ بمقدار ما يَكْبَرُ فيه الفرّوج ، ومرض الزهورىّ وماتَ ، وضاقَ صدرُ برقوق حتى كلّمهُ جماعةٌ فى عدم ما ظنه ، فلم يقم بعده الظاهر إلا ثمانية أشهر ومات .

وتُوفِّىَ العلامةُ القاضى بدرُ الدين محمود بن عبد الله الكُلُسْتَانىّ السَّرَّائىّ(١) الحنفىّ ، كاتب السرّ الشريف بالديار المصرية ، وأحد العلماء الأعيان فى عاشر جمادى الأولى بالقاهرة ، وولى بعده كتابة السرّ فتح الدين فتح الله رئيس الأطباء — وقد تقدم ذكر ولاية الكلستانىّ هذا لوظيفة كتابة السرّ بعد موت بدر الدين بن فضل الله بدمشق فى ترجمة الملكِ الظاهر برقوق الثانية — وكان إماما بارعا مُفْتنَنًا فى علوم كثيرة ، عارفا باللغة العربية والعجمية والتركية ، وسُمّى بالكُلُسْتَانىّ لكثرة قراءته كتاب السعدىّ العجمىّ الشاعر ، وكان الكتاب المذكور يسمى كُلُسْتان(٢) .

أمر النيل فى هذه السنة : الماء القديم ستة أذرع وأربعة عشر أصبعاً ، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وخمسة أصابع — والله أعلم .

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى—للمؤلف (م ٣ : ١٤٤) وترجم له السخاوى فى الضوء اللامع ١٠ : ١٣٦ ت ٥٥٤) وقال السرائى والصرائى أيضاً بالصاد .

(٢) كلستان : تعنى فى التركية أو العجمية حديقة الورد (المرجع السابق) .

السنة الثانية من سلطنة الملك الناصر
فرج ابن الظاهر برقوق — الأولى على مصر

وهى سنة اثنتين وثمانمائة :

فيها كانت وقعةُ أَيْتَمُش مع الملك الناصر ، ثم وقعةُ تَنَم نائب الشام — وقد تقدم ذكرهما فى أول ترجمة الملك الناصر .

وفيها تُوُفِّىَ خلائقُ من أعيان الأُمراء بالسيف فى واقعة تَنَم : منهم الأمير الكبير أَيْتَمُش بن عبد الله الأَسَنْدَمُرِى البَجَاسى الجرجاوى(1) ثم الظاهرى ، أتابَك(2) العساكر بالديار المصرية ، ذُبح فى سجنه بقلعة دمشق ، فى ليلة رابع عشر شعبان ، وكان أصلُه من مماليك أَسَنْدَمُرِ البجاسى الجرجاوى ، وترقّى إلى أن صار من جملة أمراء الألوف بديار مصر ، بسفارة الأتابَك برقوق فى دولة الملك الصالح حاجى ، وأميرآخورا ، ولما تسلْطن الملك الظاهر برقوق جعلَه رأس نوبة كبيراً ، ثم اشتراه من ورثة الأمير جرجى لما بلغه أنه إلى الآن فى الرِّقّ — وقد مر ذلك كله — ثم جعله أتابَك العساكر بالديار المصرية ، ثم ندبه فيمن نَدَب من الأمراء لقتال الناصرى ومِنْطَاش ، فقبض عليه هناك ، وحُبس بقلعة دِمَشْق مدة طويلة إلى أن أُطلق بعد عود الملك الظاهر لِلمُلك وقدِم القاهرة ، وكان الأمير إينال اليُوسُفى يوم ذاك أتابَك العساكر بالديار المصرية ، فأنعم الملك الظاهر على أَيْتَمُش بإقطاع يضاهى إقطاع الأتابكية ، وولاّه رأس نوبة الأمراء وجعله أتابَكا ، فدام على ذلك سنين إلى أن قَبَض الملكُ الظاهر على الأتابَك كَمَشْبُغا الحموى ، وأعاده إلى الأتابَكيّة من بعده على عادته أولا ، ثم جعله فى مرض مَوْته وَصِيَّه المتحدّثَ فى تدبير مملكة ولَدِهِ الملك الناصر فرج ، فأخذ أَيْتَمُش يدبر مُلْكَ الناصر

(1) له ترجمة فى المنهل الصافى — للمؤلف (م ١ : ٢٧٩) .

(2) أتابك : وأطابك ، هو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل ، (القلقشندى — صبح الأعشى ٤ : ١٨) .

بعد موت برقوق أحسن تدبير ، فثار عليه الأمراء الأجلاب من مماليك برقوق ، وقاتلوه وكسروه ، وأخرجوه من مصر إلى الشام ، فسار إلى دمشق ، ووافق تنم نائبها على قتالهم هو ورفقته ، مثل : الوالد ، وأرغون شاه أمير مجلس ، وغيرهم ، فواقعوا الأمراء المذكورين بغزة ، وانكسروا ثانيا ، وقبض على الجميع ، وحبسوا بقلعة دمشق ثم قتلوا عن آخرهم ، وكان كسر تنم وأيتمش هذا وقتلهما وتحكم الأمراء الأجلاب أول وهن وقع بالديار المصرية ، وكان أيتمش معظما في الدول ، قليل الشر كثير الخير ، متجملا في ملبسه ومركبه ومماليكه ، هو وكشبغا الحموى ، كانا من عظماء الأتابكية في الدولة التركية بعد يلبغا العمرى الخاصكي ، وشيخون العمرى .

وتوفى أيضا — قتيلا بقلعة دمشق في التاريخ[1] المذكور مع الأتابك أيتمش — الأمير سيف الدين أرغون شاه البيدمرى الظاهرى[2] — أمير مجلس ، وكان من خواص مماليك الملك الظاهر برقوق ، وأكابر مماليكه وخيارهم .

وتوفى قتيلا — أيضا — الأمير سيف الدين فارس بن عبد الله القطلقجاوى[3] ، ثم الظاهرى ، حاجب الحجاب بالديار المصرية — ذبحا — بقلعة دمشق ، في رابع عشر شعبان ، وكان أصله من مماليك الأمير خليل بن عرام نائب الإسكندرية ، اشتراه من شخص خباز بالإسكندرية ، وكان فارس هذا يبيع الخبز على حانوت أستاذه ، فرآه ابن عرام فأعجبه وابتاعه منه ، ثم ملكه الملك الظاهر برقوق بعد ابن عرام ، وما أعلم نسبته بالقطلقجاوى لأى قطلقجا ، ولعله تاجره الذى جلبه من بلاده أولا — والله أعلم — وكان فارس يعرف أيضا بالأعرج ، وكان من الشجعان الفرسان الأقشية

(١) أى رابع عشر شعبان سنة اثنتين وثمانمائة .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ١٧٩) والبيدمرى نسبة إلى الأمير بيدمر الخوارزمى نائب الشام حيث كان من مماليكه

(٣) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٥٠٤) والرسم فى الضوء اللامع للسخاوى (٦ : ١٦٤ ت ٥٤٧) « القطلو قجاوى » .

المعدودة ، الذين يُضْرب برميهم المثل ، وقد تقدم من ذكره فى واقعة أيْتَمُش مايُكْتَفَى بذكره[١] .

وتُوُفى – قتيلا أيضا فى رابع عشر شعبان بقلعة دمشق – الأميرُ شهابُ الدين أحمد – أمير مجلس – ابنُ الأتابك يَلبغُا العُمَرى الخاصكى صاحب الكبش[٢] ، وأستاذ برقوق وغيره من اليَلْبُغاوية ، وُلد بالكبش ، فى حياة والده الأتابك يَلْبغُا ، ثم نشأ بمصر ، وصار من جملة الأمراء ، فلما تسلطن الملك الظاهر برقوق ولاّه أمير مجلس ، ثم ندبه لقتال الناصرى ومِنْطاش فيمن ندب من الأمراء ، فلما وصل إلى دمشق عصى على برقوق ، وانضم على الناصرى ، وهو أيضا مملوك أبيه فأقرّه الناصرى على إمرته ووظيفته ، إلى أن قَبضَ عليه منطاش وحَبَسه مع الناصرى إلى أن أخرجهما الملك الظاهر برقُوق فى سلطنتِه الثانية ، وخلع عليه على عادته أمير مجلس ، فدام على ذلك سنين عديدة إلى أن تنكّر عليه برقوق وحبسه ، ثم أطلقه – بطّالا – بالبلاد الشامية إلى أن ثار الأمير تَنَم الحَسَنى نائب الشام ، فقَدِم عليه أحمدُ هذا ووافقه ، فقبض عليه مع من قبض عليه من الأمراء ، وقُتل ، وكان مشهورا بالشّجاعة والإقدام .

وتُوُفِّىَ – قتيلا أيضا بقلعة دِمَشْقَ فى رابع عشر شعبان – الأمير سيفُ الدين جُلْبَان [بن عبد الله[٣]] الكَمَشْبُغَاوِىّ الظاهرىّ ، المعروف بقَرا سُقْل نائب حلب ، ثم أتَابَك دمشق ، كانَ من أكابر مماليك الملك الظاهر برقُوق ، وأول من نَالَ منهم الرُّتب السنية ، صارَ أميرَ مائة ، ومقدّم ألف فى أوائل سلطنة

---

(١) أنظر أخبار وقعة أيتمش فى (ج ١٢ : ١٨٢ – ١٩٠) من هذا الكتاب ط دار الكتب .

(٢) سماه المؤلف بذلك لأنه كان من الأمراء الذين سكنوا بالكبش وكان له به دار عظيمة وانظر (ج ٧ : ٧٢ ، ١١٩ ، ج ١٠ : ٣٠٧) من هذا الكتاب ط دار الكتب . وله ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ١٧٢) .

(٣) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٣) .

الملك الظاهر برقوق الثانية ، ثم رأس[1] نَوْبَةَ النُّوب ، ثم وَلِيَ نيابة حلب بعد الأتابك قَرَا دَمُرْدَاش الأحمدىّ ، وهو الذى قام فى أمر مِنْطَاش حتى أخذه وتسلمه من نُعَيْر ، ثم أمسكه الظاهرُ وحبسه ، وولّى الوالد عِوَضَه نيابة حلب ، فحُبس مدةً ثم أُطلق ، واستقرّ أتَابَك دمشق ، فدام على ذلك مدة ، ثم قبضَ عليه برقُوق ثانياً ، وحبسه بقلعة دمشق إلى أن أطلقه الأمير تَنَم بعد موت الظاهر برقوق ، فدَامَ من حزْبِه إلى أن أُمْسِك وقتل مع من قتل ، وكان جليل المقدار ، عاقلاً شجاعاً ، معدوداً من رؤساء المماليك الظاهريّة .

وتُوُفِّى — قتيلا أيضاً بقلعةِ دمشق فى التاريخ المذكور — سيفُ الدين يعقوبُ شاه [بن عبد الله] [2] الظاهرىّ الخازِنْدَار ، ثم الحاجِب[3] الثانى ، وأحدُ مُقَدَّمى الألوف بالديار المصرية ، وكان أيضاً من خواصّ الملك الظّاهر برقُوق ، وأجَلّ مماليكه ، وهو أيضاً ممن انضم علىأيْتَمُش وتَنَم .

وتُوُفِّىَ — قتيلا أيضاً بقلعة دمشق — الأميرُ سيف الدين آقْبُغا [بن عبد الله][4] الطُولُوتَمُرِىّ الظاهرى، المعروف باللكّاش ، أمير مجلس ، وكان من جملة أمراء الألوف فى دولة أستاذه الملك الظاهر برقوق ، ثم صار أمير مجلس ، فلما ركب على بَاى على الملك الظاهر اتُّهِم آقْبُغَا هذا بمالأة على باى فى الباطن فأخرج إلى الشّام ، ودامَ به حتى وافقَ تَنَم ، وقُتل مع من قُتل من الأمراء ، وكان شجاعاً مِقْدَاماً ، من وُجُوهِ المماليك الظاهريّة .

وتوفِّىَ — قتيــلا أيضا بقلعة دمشق — الأمير بَىْ خُجَا الشَّرَفىّ المدعوّ

(١) هو أعلى رؤساء النوب فىخدمة السلطان ، ويتحدث على مماليك السلطان أو الأمير وتنفيذ أمره فيهم (القلقشندى — صبح الأعشى ٥ : ٤٥٥) .

(٢) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٤٢٩) .

(٣) هو من يقف بين يدى السلطان والأمير فى المواكب ليبلغ ضرورات الرعية إليه ، ويركب أمامه بعصا فى يده . ويتصدى لفصل المظالم بين المتخاصمين من أمراء وجند وغيرهم خصوصاً فيما لا تسوغ الدعوى فيه من الأمور الديوانية ونحوها (القلقشندى — صبح الأعشى ٤ : ١٩ ، ٥ : ٤٥٠) .

(٤) إضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٢٣٥) .

طَيْفُور [بن عبد الله الظاهرى [1]] نائب غزّة ، ثم حاجب حجّاب دمشق ، وهو أيضا من مماليك الظاهر برقوق ، وممّن صار فى أيامه أميرَ طَبْلَخَانَاة ، وأميرَ آخور ثانيا .

فهؤلاء قُتلوا جميعاً فى ليلة واحدة ، ومعهم جماعة أُخر مثل الأمير بَيْغُوت اليَحْياوىّ الظاهرى ، والأمير مُبارك المجنون ، والأمير بَهَادُر العُثمانى نائب ألبِيرة [2] ، ولم يبقَ من أعيان من قُتل فى هذه الواقعة — صبراً — إلاّ تَـنَم [الحسنى] [3] ويُونُس بَلْطَا ، أخّرُوهما حتى استصفوا أموالهما ، ثم قتلوهما حسبما يأتى ذكره الآن .

وتُوُفّى — أيضاً قتيلا — الأمير تَنبك الحَسَنىّ الظاهرىّ ، المدعو تَنَم نائب الشام ، وقد مر من ذكره فى واقعته مع الملك الناصر فرج ما فيه غُنية عن التكرار ، غير أننا نذكر مبادئْ أمره وترقّيه إلى انتهائه على سبيل الاختصار ، فنقول : هو من أعيان خاصّكية أستاذه الظاهر برقوق ، ثم أمّره إمرة عشرة فى سلطنته الثانية ، ثم أخرجه إلى دمشق ، وجعله أتابكا بها بعد إياس الجرجاوى ، ثم نقله بعد مدة يسيرة إلى نيابة دمشق ، بعد موت الأمير كَمَشْبُغا الأشرفى الخاصكى ، فدام على نيابة دمشق نحو سبع سنين ، إلى أن مات الظاهر ، وخرج عن الطاعة ، وانضم عليه سائر نواب البلاد الشامية ، ثم جاءه أَيْتَمُش والوالدُ ، وغيرهما من أمراء مصر ، وواقعَ الملك الناصر على غزة ، وانكسر مع كثرة عساكره — خذلانا من الله — وأمسك ، وحُبس بقلعة دمشق ، وعوقب على المال ، ثم خُنق فى ليلة الخميس رابع شهر رمضان ، وخُنِق معه الأمير يونُس [بن عبد الله] [4] الظاهرى المعروف بِبَلْطا [وبالرماح] [5] نائب

(١) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٢٤٩) .

(٢) ألبيرة : بلد بين حلب والثغور الرومية قرب سميساط ، وانظر (ج ١٢ : ٦٨) من هذا الكتاب ط دار الكتب .

(٣) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف حيث أورد ترجمته (م ١ : ٤٣٨) واسمه « تنبك » وغلب عليه تنم ، وتنبك معناه باللغة التركية أمير جسد (م ١ : ٣٨٥) من نفس المرجع .

(٤ ، ٥) إضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٤٧٣) وبلطا بباء موحدة مفتوحة فى اللغة التركية اسم للمسحاة التى يحفر بها الفعلة فى الأرض .

طرابلس . وكان يونس أيضا من كبار المماليك الظاهرية وأمرائها . وقد ولى نيابة صفد وحماة وطرابلس . إلا أنه كان ظالما جبارا متكبرا ، سفاكا للدماء ، قَتَلَ بطرابلس من القضاة والعلماء والأعيان خلائق لا تدخل تحت حصر ، وقد مر ذكر هذه الوقائع كلّها فى أوائل ترجمة الملك الناصر فرج الأولى ، فلينظر هناك .

وتُوُفِّىَ قاضى القضاة مجدُ الدين إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن علىّ [بن موسى][1] قاضى قضاة الحنفيّة بالديار المصريّة ـ وهو معزول ـ فى خامس جمادى الأولى ، وكان فقيها مُفْتنًا فاضلا ، أفتى ودرّس سنين بحَلَب وغيرها ، إلى أن طُلب إلى مصر ، ووُلّىَ القضاء بها ، إلى أن عُزل لثقل بدنه من السِّمَن ، وقِلَّة حركته ؛ فإنّه كان إذا طلع للسلام على السلطان وجلس عنده لا يستطيع القيام إلاّ بعد جهد من السِّمَن .

وتُوُفِّىَ قاضى القضاة برهانُ الدين إبراهيم ابن قاضى القضاة ناصر الدين نصر الله بن أحمد بن محمّد بن أبى الفتح الحنبلىّ[2] ، قاضى قضاة الديار المصريّة بها ـ وهو قاضٍ ـ فى ثامن شهر ربيع الأوّل ، وتولّى القضاء بعدَه أخوه موفّقُ الدين أحمد .

وتُوُفِّىَ المعلّمُ شهابُ الدين أحمد بن محمّد الطولونىّ المهندس ، بطريق مكّة فى صفر ، وقد توجّه لعمارة المناهل[3] بطريق الحجاز .

وتُوُفِّىَ شيخُ شيوخ خانقاة[4] سِرْ ياَقُوس جلالُ الدين أبو العبّاس أحمد ابن شيخ الشيوخ نظام الدين إسحاق بن عامر الأصبهانىّ الحنفىّ[5] ، بخانْقاة سرياقوس ، فى خامس عشر شهر ربيع الآخر .

---

(١) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٢٠٢) وكان مولده فى ليلة السابع من شعبان سنة ٧٢٩هـ

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٤١) وكان ميلاده آخر شهر رجب سنة ٧٦٨ هـ بالقاهرة .

(٣) هى الآبار والعيون التى بطريق الحاج البرى شرق البحر الأحمر وفى سيناء . وقد ورد وصف مفصل لهذا الطريق وما فيه من المراكز والمحاط فى صبح الأعشى للقلقشندى (ج ١٤ : ٧٨٥ – ٧٨٧)

(٤) أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون قرب بلدة سرياقوس – من أعمال محافظة الشرقية – وبدأ عمارتها فى ذى الحجة سنة ٧٢٣ هـ وافتتحت فى جمادى الآخرة سنة ٧٢٥ هـ وانظر (ج ١٢ : ٧٠) من هذا الكتاب ط دار الكتب ، وخطط المقريزى (ج ٢ : ٤٢٢)

(٥) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٥٦) ومولده فى حدود الستين وسبعمائة بالقاهرة .

وتُوُفِّىَ الأمير الطَّوَاشِى زين الدين بَهَادُر الشهابىّ(١) ، مقدّم المماليك السلطانيّة ، فى سابع عشر شهر رجب ، وكان من عظماء الخدّام ، وغالب أعيان مماليك الظاهر برقوق من أنياته .

وتُوُفِّىَ الشيخُ المعتقدُ المجذوبُ سليم السَّوّاق القَرَافىّ(٢) بالقرافة ، فى تاسع عشر شهر ربيع الأوّل ، وكان للناس فيه اعتقادٌ ، ويُقْصَدُ للزّيارة .

وتُوُفِّىَ الأميرُ سيفُ الدين قَجْمَاس بن عبد الله المحمّدىّ الظاهرىّ ، شادّ السّلاح خاناة ـ قتيلا ـ [فى ثامن شهر ربيع الأول](٣) فى الواقعة التى كانت بين الأتابك أيتمش وبين الأمراء الذين كانوا بالقلعة .

وتُوُفِّىَ أيضا الأميرُ سيفُ الدين قَشْتَمُر بن قَجْمَاس أخو إينال باى ، الأمير آخور ، فى ثامن شهر ربيع الأوّل ـ قتيلا ـ فى الواقعة .

وتُوُفِّىَ الأميرُ سيفُ الدين قُطْلُوبُغا بن عبد الله الحسامىّ المنجكىّ(٤) باليَنْبُع(٥) بطريق الحجاز .

وتُوُفِّىَ الأمير سيف الدين قَرَابُغَا بن عبد الله الأَسَنْبُغاوِىّ(٦) أحد أمراء الطبلخانات ، كان من قدماءِ الأمراء بديار مصر .

وتُوُفِّىَ الأمير جمال الدين عبدالله ابن الأمير بَكْتَمُر الحاجب(٧) ، فى خامس عشرين شهر ربيع الآخر ، بداره خارج باب النصر(٨) من القاهرة .

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٣٥٨) وذكر أن وفاته فى سابع شهر رجب .
(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ١٢٦) .
(٣) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ١٤)
(٤) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٣٦) والرسم فيه « قطلو بك »
(٥) الينبع : قرية على طريق الحاج الشامى بها عيون وينابيع وأخذ اسمها من الينابيع الكثيرة التى بها . ولها حصن ، وهى تقابل ما بين مكة والمدينة (ياقوت – معجم البلدان ٥ : ٤٤٩ – ٤٥٠ ط بيروت) .
(٦) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ١٤) .
(٧) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٢٦١) .
(٨) باب النصر : أحد أبواب القاهرة القديمة أنشأه بدر الجمالى سنة ٤٨٠ هـ .

وتُوُفّيت خَوَنْد شِيرِين [بنت عبد الله الرومية](١) والدة الملك الناصر فرج بن برقوق ، بعد مرض طويل ، فى ليلة السبت أوّل ذى الحجّة ، ودُفنت بالمدرسة الظاهريّة البرقوقية(٢) بين القصرين ، وحضر وَلَدُها الملك الناصر الصّلاَة عليها ، بباب القلّة(٣) من القلعة ، ومشى سائرُ أمراء الدولة وأعيانها أمام نعشها من القلعة إلى بين القصرين ، وكانت أمّ ولد للملك الظّاهر بَرْقُوق ، روميّة الجنس ، وهى بنت عمّ الوالد ، وكانت من خيار نِساء عصرها حشمة ورياسة وعقلا .

أمرُ النّيل فى هذه السنة : المـاء القديمُ ثلاثة أذرع سواء ، مبلغُ الزّيادة ثمانية عشر ذراعا وأربعة عشر إصبعا .

---

(١) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٢٠٨) .

(٢) أنشأها الظاهر برقوق وجعل فيها سبعة دروس لأهل العلم على المذاهب الأربعة وللتفسير والحديث والمفردات — ولا تزال باقية — وانظر (ج ١٢ : ١١٣) من هذا الكتاب ط دار الكتب .

(٣) باب القلة : أحد أبواب الدور السلطانية بقلعة الجبل . وعرف بهذا الإسم لأن الظاهر بيبرس كان بنى هناك قاة (المقريزى — الخطط ٢ : ٢١٢) و (ج ٨ : ٤٥) من هذا الكتاب ط دار الكتب .

السنة الثالثة من سلطنة الملك الناصر فرج ابن الظاهر برقوق ـــ الأولى على مصر

وهى سنة ثلاث وثمانمائة :

فيها كانَ وُرُودُ تَيْمُورلَنْك إلى البلاد الشّاميّة، وماتَ بسيفه ولقدُومِهِ خلائقُ لايعلمها إلا الله تعالى كثرةً، حسبما ذكرناه مُفَصَّلاً .

وفيها تجرّد(١) السّلطانُ الملكُ النّاصر فرج إلى البلاد الشّامية بسبب تَيْمُورلَنْك ـ وقد مرّ ذلك أيضاً ـ وهى تَجْرِيدَتُه الثانية إلى الْبِلاَدِ الشّامية .

وفيها قُتِلَ الأميرُ سيف الدين سُودُون بن عبد الله الظاهرىّ، قريبُ الملك الظّاهر بَرْقُوق، المعروفُ بسَيِّدِى سُودُون، نائب الشّام، فى أَسْر تَيْمُور بظاهر دِمَشْق، ودُفِنَ بقيوده من غير أن يتولّاه(٢)، واخْتَلَفت الأقوالُ فى موتته، فمن الناس مَنْ قال : ذُبِحاً، ومنهم من قال: ألقاه تَيْمُور إلى فِيلٍ كانَ معه فداسَه برِجْلِه حتى مات، وكان ذلك فى أواخر شهر رجب، وتولّى نيابةَ دِمَشْقَ بعده الوالدُ؛ وهى نيابتهُ الأولى على دِمَشْق، وكان سُودُون المذكور قَدِم من بلاد الجَرْكَس(٣) صغيراً مع جدّتِهِ لأمّه أختِ الملك الظاهر بَرْقُوق، ومع خالة أمّه أمّ الأتابَك بِيبَرس، والجميع صحبة الأمير أَنَص والد الملك الظّاهر بَرْقُوق، فربّاه الظّاهر ورقّاه إلى أن جعله أمير آخور كبيراً بعد القَبْضِ عَلى الأمير نَوْرُوز الحَافِظِىّ، ثمّ وقع له

---

(١) تجرد : أى خرج فى تجريدة أو جريدة، وهى فرقة من العسكر الخيالة لا رجالة فيها – والمراد أن السلطان سار على وجه السرعة فى فرقة من الخيالة دون أن يأخذ معه أثقالا أو حشوداً – انظر تعليق الدكتور زيادة على السلوك للمقريزى (١ : ١٠٦) .

(٢) كذا فى الأصول . وفى الضوء اللامع للسخاوى (١ : ٢٨٥) « ويقال إنه دفن فى قيده بدمشق » ولعل المراد بعبارة المصنف أنه دفن بقيوده من غير أن يتولى مراسيم دفنه أحد، ولسو دون هذا ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ١٤١) .

(٣) بلاد الجركس : وتقع شرقى بحر نيطش . وقد صار أغلب جند مصر من الجركس منذ ملك الظاهر برقوق البلاد، فإنه أكثر من جلبهم . (القلقشندى – صبح الأعشى ٤ : ٤٦٢) .

أمور ، وقُبِضَ عليه بَعْدَ مَوْتِ الملك الظّاهر بَرْقُوق ، وسُجِنَ بالإسكندريّة إلى أن أُخْرِج بعد واقعة الأتابَك أَيْتَمُش ، ثمّ ولى نيابة دمشق بعد مَسْك الأمير تَنَم الحسنىّ نائب الشّام ، ودَامَ بدِمَشْق إلى أن وَرَدَ عليه قاصد تَيْمُورلَنْك فوسَّطه فكانَ ذلك أكبرَ الأسباب فى قَتْله ، فإن تَيْمُور لم يقْتُل أحداً من نُوَّابِ البلادِ الشّاميَّة سواه .

وتُوُفِّىَ قاضى القضاة موفّق الدين أحمد ابن قاضى القضاة ناصر الدين نصر الله بن أحمد ابن محمد بن أبى الفتح العَسْقلانىّ الحنبلىّ ، فى ثامن عشر شهر رمضان ، وكانَ مشكورَ السيرة ، ولم تطل مدّته فى القَضاء ، فإنه وَلى القضاء بَعْدَ أخِيه بُرْهانِ الدين إبراهيم فى السنة الماضية .

وتُوُفِّىَ قاضى القضاة تقىّ الدين عبد الله بن يوسف [بن الحسين بن سليمان ابن فزارة بن بدر بن محمد بن يوسف][1] الكَفْرىّ — بفتح الكاف — الحنفىّ الدمشقىّ ، قاضى قضاة دِمشق ، فى العشرين مِن ذى القعدة فى أَسْر تَيْمور .

وتُوُفِّىَ قاضى القضاة شهابُ الدين أحمد [بن عبد الله][2] النّحْريرىّ المالكىّ ، قاضى قضاة الديار المصريّة ، وهو معزولٌ فى ثانى شهر رجب .

وتُوُفِّىَ الأميرُ شهاب الدين أحمد بن عمر بن الزّين[3] ، والى القاهرة فى ثانى عشر شهر ربيع الأوّل ، بعد أن ولى شدّ الدّواوين ، وولاية القاهرة غير مرّة ، وَكانَ مِنَ الظَّلَمة .

وتُوُفِّىَ الأميرُ سيف الدين أَسَنْبُغا بن عبد الله العلائىّ الدّوَادار الظاهرىّ ، فى سادس عشر جمادى الأولى ، وكان منْ جُملةِ الدّوَاداريّة الصّغار فى دولة الملك الظّاهر بَرْقوق .

(١) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٢٧٦) .

(٢) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٨٣) .

(٣) فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ١١١) « شهاب الدين أحمد بن عمر الشهير بابن الزين » .

وتُوُفِّىَ الأمير زين الدّين فرج الحلبىّ (١) نائب الإسكندريّة بها ، فى آخر شهر ربيع الأوّل ، وقد وَلِىَ شدّ الدّواوين (٢) بالقاهرة ، ثمّ صارَ من جملة الحجاب ، ثمّ وَلِىَ أستادَارية (٣) الذخيرة والأملاك ، ثم وَلِى نِيابةَ الإسكندريّة ، فدامَ بها إلى أن مات .

وَتُوُفِّىَ الأميرُ زينُ الدين [وقيل سيف الدّين] (٤) أبو بكر بن سُنقر ابن أخى بهَادُر الجمالى ، فى ثالث عشر جمادى الآخرة ، وكان وَلِىَ الحُجوبية الثانية بالدّيار المصرية بتقدِمة ألف ، وتوجّهَ أميرَ حاجّ المحمل ، وتنقّل فى عدّةِ وَظائف ، وطالت أيامه فى السعادة ، وهو منْ بَيتِ رئاسَة وإمرَة .

وَتُوُفِّىَ الأمير سيفُ الدين بجاس بن عبد الله النَّوْرُوزِىّ [العثمانى اليَلبُغاوىّ] (٥) أحد مقدّمى الألوف بالدّيار المصرية بها - بطّالا - بعد ما كبرَت سنّه ، فى ثانى عشر شهر رجب ، وكان لَمّا استعفى من الإمرَة بعد موْت الملك الظاهر بَرْقوق ، أُنعم بإقطاعه على الأمير شيخ المحمودىّ : أعنى الملكَ المؤيد ، فرعاه أستاداره جمالُ الدّين يوسف البيرى البجَاسىّ ، فعرَف له ذلك الملكُ المؤيد شيخ لمّا تَسلْطن ، وأحْسن لذُرّيته .

وَتوُفِّىَ الوزيرُ كريمُ الدّين عبد الكريم بن عبد الرزّاق بن إبراهيم بن مَكانس (٦) القبطى المصرى ، أخو الشّاعر فخر الدين ، فى خامس عشر جمادى الآخرة ، وهو معزول عن الوِزَر ، وقد وَلِىَ الوِزَر بالديار المصرية ، ونُكِبَ وصودِر غير مرّة ، وَجمعَ فى

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٥١٩) .

(٢) شد ، وشاد ، ومشد : هو متولى الوظيفة المختصة بالكلمة المضافة إليها . مثل شد الدواوين . بمعنى معاون الوزير فى مراقبة الحسابات ومراجعتها ، ومن مهماته استخلاص ما يتقرر فى الدواوين ، وصاحبها قد يعاقب على الجهل بالشرع والعادة -عن هامش الدكتور زيادة على (السلوك للمقريزى ١ : ١٠٥) . و(السبكى- معيد النعم ٢٨) .

(٣) وظيفة موضوعها التحدث فى شأن بيوت السلطان كلها - وقد تخصص بما يضاف إليها - (القلقشندى- صبح الأعشى ٤ : ٢٠ ، ٥ : ٤٥٧) .

(٤) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٤٨٠) .

(٥) الإضافة عن المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٣٠٤) .

(٦) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٣٤٤) .

بعض الأحيان بين وظيفتى الوَزَر ونظر الخاص معاً ، وكان سَيِّئَ السيرة ، كثير الظلم والرَّمايات ، ووُلِّىَ مشيراً(١) فى سلطنة الملك الظاهر بَرْقوق ، ثمَّ نُكِب هو وإخوتُه ، وماتَ ــ بعد خطوب قاساها ــ يوم الثلاثاء رابع عشرين جمادى الآخرة ، وكانَ مِن أعاجيب الزَّمان من الخفّة ، والطيش ، وسُرْعة الحركة ، يقال إنه قال لبعض حواشيه ــ وهو نازلٌ فى موكبه بخلْعة الوزارَة ، لـمَّا أعيد إليها ، والناسُ بين يديْه : يا فلانُ ماهذه الركْبة غاليةٌ بعلقةِ مقارع .

وَتُوُفِّىَ قاضى قضاة الدِّيار المصرية نور الدين على بن يوسف بن مكى الدميرى(٢) المالكىّ المعروف بابن الجلال ، باللجون(٣) من طريق دمشق فى جمادى الأولى ، وهو مجرَّد صُحْبة السلطان .

وُتُوُفِّىَ الشيخُ الإمامُ الفقيهُ سيف الدين قُطْلوبُغا بن عبد الله الحنفى ، فى نصف جمادى الأولى ، وكان فقيهاً فاضلاً مستحضراً لمذهبه ، معدوداً من فقهاء الحنفية .

وَتُوُفِّىَ قاضى القضاة بدرُ الدين محمد بن أبى البقاء الشافعى قاضى قُضاةِ الدِّيار المصرية ، وهو معزولٌ عن القضاء ، فى سابع عشرينَ شهر ربيع الآخر .

وَتُوُفِّىَ قاضى القضاة شرف الدِّين محمد بن محمد الدَّمامينى المالكى الإسكندرى ، قاضى الإسكندرية ، ثم ناظر الجيش والخاص بالدِّيار المصرية ، فى سابع عشرين المحرم ، كانَ رئيساً فاضلاً ، وَلِىَ قضاء الإسكندرية، ثم وَكالةَ بيت المال(٤) ، ونظر الكسوة(٥)،

---

(١) المشير هو الناصح الذى يؤخذ برأيه (دكتور حسن الباشا – الألقاب الإسلامية ٤٧١) .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٤٥٩) .

(٣) اللجون : بلد بالأردن بينه وبين طبرية عشرون ميلا (ياقوت . بمعجم البلدان ٤ : ٣٥١) .

(٤) وظيفة دينية موضوعها مبيعات بيت المال ومشترياته من أرض ودور وغير ذلك والمعاقدة عليها ، ولا يليها إلا أهل العلم والديانة ، ومجلسه بدار العدل (القلقشندى – صبح الأعشى ٤ : ٣٧) .

(٥) وظيفة موضوعها شئون خزانة الكسوة ، وهى خزانة الخاص ، وفيها الحواصل من الديباج وغيره من الأقمشة الفاخرة وكذلك الطشت خاناه (القلقشندى – صبح الأعشى ٣ : ٤٧٢) .

ثم نظر ديوان المفرد(١) ، ثم نظر الأسواق(٢) ، وَولىَ حسبة(٣) القاهرة غير مرة ، ثمّ ولى نظر(٤) الجيش بالدّيار المصرية بعد موت القاضى جمال الدين محمود العجمى — مضافا إلى وكالة بيت المـال فى سنة تسع وتسعين إلى أن صرف بسعد الدين بن إبراهيم بن غراب واستمر على وكالة بيت المـال — ثم أعيد إلى نظر الجيش والخاصّ معاً ، فلم تطل مدته فيهما ، وعُزل وأُعيد إليهما ابن غراب ، وتولى قضاء الإسكندرية ، فدام بها إلى أنْ مات فى التاريخ المذكور .

وتُوُفّى قاضى القضاة جمالُ الدين يوسف بن موسى بن محمد الملطىّ الحنفى(٥) ، قاضى قضاة الدّيار المصرية — وهو قاض — فى تاسع عشر شهر ربيع الآخر ، وكان بارعاً فى الفقه والأصول ، والعربيّة ، وعلى المعانى والبيان ، وكانَ تفقّه فى مبادئ أمره على العلاّمة الشيخ قِوام الدين الأتراري الحنفىّ شارح الهداية(٦) ، ثم على العلامة أرْشد الدين

---

(١) وظيفة موضوعها شئون الديوان المختص بما أفرد من البلاد . لصرف غلتها على مماليك السلطان من جامكيات وعليق وكسوة ويقال إنه من منشآت العصر الفاطمى بمصر (القلقشندى – صبح الأعشى ٤ : ٤٥٧).

(٢) وظيفة موضوعها شئون الأسواق وتنظيمها وترتيب أمورها ورقابة ما يجرى فيها من بيع وشراء وغيره . ويستفاد ذلك من وظيفة الناظر والتى تحدد بما هو موضوعها . (المحقق) .

(٣) وظيفة يتولى شاغلها الأمر والنهى فيما يتصل بالمعايش والصنائع ، والتصرف بالحكم والتولية بالوجه البحرى بكماله خلا الإسكندرية ، ومن اختصاصه حفظ ومراقبة الأسعار ورقابة التجار على اختلاف سلعهم والسقائين ومعلمى السباحة ، وينظر فى المكاييل والموازين ودار العيار ، وينبه الجميع إلى ما يجب عليهم ، ولا يحال بينه وبين مصلحة رآها . والولاة تساعده فى وظيفته إذا احتاج إليهم .

(السيف المهند للعينى ٢٧٥ ، ٣٤٤ – تحقيق ف شلتوت) .

(٤) وظيفة موضوعها التحدث فى أمر الإقطاعات بمصر والشام والكتابة بالكشف عنها ، ومشاورة السلطان فى شأنهما ، وأخذ توقيعه على ما يقرره (القلقشندى – صبح الأعشى ٤ : ٣٠)

(٥) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٤٦٩) .

(٦) هو قوام الدين أبو حنيفة أمير كاتب بن أمير عمر بن أمير غازى الفارابى الأترارى الاتقانى الحنفى . له شرح الهداية المسمى « غاية البيان ونادرة الزمان فى آخر الأوان » فى عشرين مجلداً ، وشرح الاخسيكتى ، وشرح البزدوى – توفى فى شوال سنة ٧٥٨ ﻫ (ج ١٠ : ٣٢٥ من هذا الكتاب ط دار الكتب) ، (والجلال السيوطى – حسن المحاضرة ١ : ٢٠٠) ، (والمنهل الصافى للمؤلف م ١ : ٢٦٨) ، (وابن حجر الدرر الكامنة ١ : ١٤٤) .

السرائى[١] ، وغيرهما بالدّيار المصرية ، ثُم انتقل إلى حلب ، واشتغل بها أيضاً إلى أن برَع وأفتى ودرَّس ، وتفقّه به جماعة كبيرةٌ من العلماء إلى أن طُلِب إلى قضاء الديار المصرية بعد وفاة القاضى شمس الدين الطرابلسى سنة ثمانمائة ، فدام قاضياً إلى أن مات ، وقد ناهز الثمانين سنة .

وتُوفِّىَ قاضى قضاة الحنابلة — بدمشق — تقى الدين إبراهيم ابن العلامة شمس الدين محمد بن مُفلح[٢] ، الحنبلىّ الدّمشقى بها ، فى شعبان .

وتُوفِّىَ قاضى القضاة صدرُ الدين أبو المعالى محمد بن إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم ابن عبد الرحمن السلمى المناوى[٣] الشافعى ، قاضى قضاة الديار المصرية ، وهو فى أسر تيمور غريقاً بنهر[٤] الزّاب ، بَعد ما مرَّتْ به محنٌ وشدَائد ، بعد أن ولى قضاء الدّيار المصرية غير مرّة .

وتُوفِّىَ قاضى القضاه الحنفية — بدمشق — بدرُ الدين محمد بن محمد بن مقلد[٥] القدسىّ الحنفىّ ، بمدينة غزّة ، فى شهر ربيع الأوّل ، فارًّا من تيْمورلنك إلى الديار المصرية ، وكان فاضلاً بارعاً ، أفتى وَدرّسَ وَنابَ فى الحكم ، ثمّ اسْتَقَلّ بالقضاء مدّة .

وتُوفِّىَ السلطان الملك الأشرف إسماعيل ابن الملك الأفضل عباس ابن الملك المجاهد علىّ ابن الملك المؤيّد داود ابن الملك المظفّر يوسف ابن الملك المنصور عمر بن علىّ ابن رسول[٦] ، صاحب اليمن ، فى ليلة السبت ثامن عشر شهر ربيع الأول ، بمدينة

---

(١) هو أرشد الدين أبو الثناء محمود بن قطلو شاه السرائى الحنفى، توفى عن نيف وثمانين سنة فى سنة ٧٧٥ هـ وله ترجمة فى (ج ١١ : ١٢٦ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٣٧)

(٣) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٨٣) وكان مولده فى ثامن شهر رمضان سنة ٧٤٢ هـ .

(٤) الزاب : نهران أحدهما يسمى الزاب الصغير والآخر يسمى الزاب الكبير . وهما من روافد دجلة . ومخرجهما قرب جبال أذربيجان (المسالك والممالك للكرخى ٥٤) ، (المنجد – أعلام الشرق والغرب ٢٣١)

(٥) فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٢٦١) « ابن مقلة المقدسى »

(٦) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٢٠٧) وكان مولده سنة ٧٦٦ هـ .

تَعِز (١) من بلاد اليمن ، عن سبع وثلاثين سنة ، وكان وَلِيَ سلطنة اليمن بعد موت أبيه فى سنة ثمانٍ وسبعين وسبعمائة ، فدام فى الملك إلى أن مات فى التاريخ المذكور فى هذه السنة ، وكانَ ملكا جليلا سخيًّا ، مُقبِلاً على أهل العلم ، وصنَّف تاريخاً حسناً ، وجمع كُتُباً كثيرة ، وتولى مملكة اليمن من بعده ابنُه الملك الناصر أحمد .

وتُوفِّى السّلطان الأعظمُ ملكُ دَلِّى (٢) من بلاد الهند فَيْرُوز شاه بن نصرة شاه ، وكان من أجلّ الملوك ، ومملكته مُتّسعةٌ جداً ، ذكر عنها القاضى شهابُ الدين أحمد بن فضل الله أشياء عظيمة فى كتابه مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، من ذلك أن له ألف مُغَنٍّ ، وألف نَدِيم ، وذكر عن سِماطِهِ أشياء خارجة عن الحد ، وأظنّ أن فَيْرُوز شاه هو حفيد الملك الذى ترجمه القاضى شهاب الدين أحمد بن فضل الله ، قلتُ ولما سمع تَيْمُور لَنْك بموت فيرُوز شاه بادرَ وتوجه إلى الهند ، واستولى على ممالِكه حسبما تقدم ذكره فى ترجمة الملك الناصر فرَج هذا ، وقام بممالك الهند بعده ابنه محمد شاه ، وجميع مملكته حنفيّة ، بل غالب ممالك الهند .

أمرُ النيل فى هذه السنة : الماء القديمُ ثلاثة أذرع سواء ، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً واثنا عشر إصبعاً ، وهى سنة تحويل (٣) .

---

(١) تعز : القاعدة الثانية لليمن ، ومقر ملوكها ، وهى حصن فى الجبال مطل على التهائم وأراضى زبيد (القلقشندى — صبح الأعشى ٥ : ٨ ، ٩)

(٢) دلى : بدال مهملة ولام مشددة مكسورة ثم مثناة تحتية ، وجاءت الدال مفتوحة ومضمومة ، ويقال دهلى (القلقشندى — صبح الأعشى ٥ : ٦٨) وهى المعروفة بالهندستان (ج ١٢ : ٢٦١ من هذا الكتاب ط دار الكتب)

(٣) أى تحويل خراج هذه السنة إلى السنة التى بعد التالية ؛ وذلك أن السنة القمرية تقل عن السنة الشمسية بمقدار أحد عشر يوماً وسدس يوم تقريباً — فإذا مضت ثلاث وثلاثون سنة حولت السنة إلى ما بعد التالية وتلغى التالية . وبالتالى يحول الخراج وهو إلغاء نظرى كما يقول أبو الفضائل فى النهج السديد ص ٦٠٠ « وتحويل بالكلام تنطق به ألسنة الأقلام » د . إبراهيم طرخان — النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى (١٠٦) .

السنة الرابعة من سلطنة الملك الناصر

فرج بن برقوق ـــ الأولى على مصر

وهى سنة أربع وثمانمائة :

فيها تُوُفِّىَ الأميرُ سيفُ الدين جَنْتَمُر بن عبد الله التُرْكُمانىّ الطَّرْخانىّ ، كاشفُ الوجه القبلى ، فى صفر ، كان له مع الأعراب أُمورٌ ووقائع، وكان شجاعاً ، أبادَهم وأفنى منهم خلائق إلى أن مهد بلاد الصعيد وقراها :

وتُوُفِّىَ الشيخُ الإمامُ المُقْرِئ فخرُ الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان البُلْبَيْسِىّ(١) الشافعى ، الضرير ، إمام جامع الأزهر ، وشيخ القراءات ، فى ثانى ذى القعدة .

وتُوُفِّىَ الشيخُ سيفُ الدين لاَجين بن عبد الله الجَرْكَسِىّ(٢) ، فى شهر ربيع الآخر ، عن ثمانين سنة ، وكان مُعَظَّماً عند طائفة الجرَاكسة ، يزعمون أنه يملك الديار المصرية ، ويشيعون ذلك ، ولأجله هرب جماعة من الأمراء من دمشق فى واقعة تَيْمُور ، وعادوا إلى الديار المصرية ليُسَلْطِنُوه ، فكان ما حصل على أهل الشّام من تيمُور بسبب هذا المشؤوم الطلعةِ ، وكان لاجين المذكور لا يكتم ذلك ، بل كان يَعِدُ الناس أنه إذا ملك مصر يبطل الأوقاف التى على المساجد والجوامع ، ويُحَرِّق كتبَ الفقه ، ويعاقبُ الفقهاء، ويُوَلِّى بمصر قاضياً واحداً من الحنفيّة ، وهو من الأتراك لا من الفقهاء، فسلَبه اللهُ ما أمّله قبل أن يتأمّر عشرة ، بل مات وهو على جُنْدِيّتِه ، وكان يَتَمَعْقَل وَيدعىَ العِرفان ، مع جهل مُفْرِطٍ ، وخفة عقل ، وهو مع ذلك مقبول الكلام عند

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٣٧٠) ومولده سنة ٧٢٥ هـ بمدينة بلبيس .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٦٨) .

الطائفة إلى الغاية ، وببعض كلامه يتمثَّلُ بعضُهم إلى يومنا هذا ، وممن أدركناهُ من أتباعه سُودُون الفقيه حَمُو الملك الظاهر طَطَر ، وسودُون الأعرج الظاهرىّ ، وطَرَباى الأتابَك نائب طرابلس ، وكانوا يحكون عنه أموراً يقصدون بذلك تعظيمه ؛ لو تأملوها لعلموا أنه رُفِعَ عنه وعنهم القلم .

وتُوُفِّىَ الشيخ المعتقد الصالح شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الناصح[١] فى سابع عشر شهر رمضان ، ودفن بالقرافة .

أمرُ النيل فى هذه السنة ؛ الماء القديم أربعة أذرع وأربعة عشر إصبعاً ، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وأحد وعشرون إصبعاً .

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ١٢٠) .

السنة الخامسة من سلطنة الملك الناصر
فرج بن برقوق ـــ الأولى على مصر

وهى سنة خمس وثمانمائة :

فيها كانت وقعة تَيْمُور لَنْك مع أبى يَزيد بن عثمان متملّك بلاد الروم، وقد مرّ ذكر ذلك، وأَسَرَه تيمور ومات فى أسره.

وفيها تُوُفِّىَ قاضى القضاة تاجُ الدين بَهْرام بن عبد الله بن عبد العزيز الدميرىّ المالكىّ، فى يوم الإثنين سابع جمادى الآخرة، عن سبعين سنة، وقد انتهت إليه رئاسة السّادة المالكية فى زمانه.

وتُوُفِّى شيخ الإسلام سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان بن نصير بن صالح[1] ـ وصالح أول من سكن بُلْقِينَة[2] ـ بن شهاب بن عبد الخالق بن مُسَافر بن محمد البُلْقِينِىّ الكِنَانىّ الشافعى، فى يوم الجمعة، عاشر ذى القعدة، وصُلى عليه بجامع الحاكم[3]، ثم دفن بمدرسته التى أنشأها تجاه داره بحارة بهاء الدين قَرَاقُوش من القاهرة، ومولده ببُلْقِينَة، فى ليلة الجمعة ثانى عشر شعبان سنة أربع وعشرين وسبعمائة. وأجاز له من دمشق الحافظ أبو الحجاج[4] المِزّى، والحافظ الذهبى[5]، والمسند أحمد

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٤٧٣)

(٢) قرية مصرية قديمة من كورة بنا أبو صير. يقال لها البوب من قرى مركز المحلة (ج ١٠ : ٢١٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب)

(٣) ويعرف بجامع الأنور، أسسه العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٨٠ هـ وأتمه الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤ هـ (المقريزى – الخطط ٢ : ٢٧٧)، (ج ٨ : ١٤٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب).

(٤) هو جمال الدين أبو الحجاج يوسف ابن الزكى عبد الرحمن بن يوسف بن على بن عبد الله بن أبى الزهر القضاعى الكلبى المزى الحلبى. ولد بظاهر حلب فى عاشر ربيع الآخر سنة ٦٥٤ هـ، ومات بدمشق فى ثانى عشر صفر سنة ٧٤٢ هـ (ج ١٠ : ٧٦ من هذا الكتاب ط دار الكتب).

(٥) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبى. شمس الدين أبو عبد الله، حافظ مؤرخ، ولد فى دمشق سنة ٦٧٣ هـ وتوفى بها سنة ٧٤٨، وزار القاهرة وكثيراً من البلاد، وله ما يقرب من المائة مؤلف (فوات الوفيات ٣ : ١٨٣)

ابن الجَزَرِىّ(١) — فى آخرين — ثم حفظ المُحرَّر فى الفقه ، والكافية لابن مالك فى النحو ، ومختصر ابن الحاجب فى الأصول والشّاطبيّة فى القراءات ، وأقدَمه أبوه إلى القاهرة ، وله اثنتا عشرة سنة ، وطلب العلم واشتغل على علماء عصره ، مثل : أثير الدين أبى حَيّان(٢) ، وأبى الثَّنَاء(٣) محمود الأصبَهَانىّ ، وتفقّه بجماعة كثيرة ، وبرع فى الفقه وأصوله ، والعربية والتفسير ، وغير ذلك ، وأفتى ودرّس سنين ، وانفرد فى أواخر عمره برئاسة مذهبه ، وَوَلِىَ إفتاء دار العدل ، ودرّس بزاوية الشافعى المعروفة بالخَشّابيّة(٤) من جامع عمرو بن العاص ، وَوَلِىَ قضاء دمشق فى سنة سبع وتسعين وسبعمائة عِوَضاً عن تاج الدين عبد الوهاب السُّبْكىّ ، فباشر مدة يسيرة ، ثم تركه وعاد إلى مصر ، واستمر بمصر يُقْرِئ ويشتغل ويُفْتى بقية عمره ، وانتفع به عامة الطلبة إلى أن مات ، وقد استوعبنا ترجمته فى المنهل الصافى بأوسع من هذا — فلينظر هناك .

وتُوُفِّىَ شيخ الشيوخ بدر الدين حسن بن على بن الآمدى خارج القاهرة ، فى أول شعبان وكان يُعتقد فيه الخير ، ويُقصد للزيارة .

وتُوفِّىَ السيد الشريفُ عِنَانُ بن مُغَامِس بن رُمَيْثَة(٥) المكىّ الحسنىّ بالقاهرة ، فى أول شهر ربيع الأول .

---

(١) هو أحمد بن على بن الحسن بن داود الجزرى ثم الصالحى . أبو العباس الهكارى توفى فى شعبان سنة ٧٤٣ هـ عن أربع وتسعين سنة ونصف (ابن حجر . الدرر الكامنة ت ٥٣٥) .

(٢) هو أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الغرناطى المالكى ثم الشافعى ، توفى ثامن صفر سنة ٧٤٥ هـ (ج ١٠ : ١١١ — ١١٥ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) هو محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أبى بكر بن على . العلامة شمس الدين أبو الثناء الأصبهانى . ولد بأصبهان فى شعبان سنة ٦٧٤ هـ وتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٩ هـ بالطاعون العام (ابن حجر . الدرر الكامنة ت ٨٩١) .

(٤) الخشابية : هى زاوية بالمسجد العمرى ، تنسب للمجد عيسى بن الخشاب ، لطول مكثه فى تدريسها . وكان يسميها السراج البلقينى بالعامرة — تفاؤلا — (الذيل على رفع الأصر هامش ١ ص ١٨٢) .

(٥) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٤٩٢) .

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيف الدين آقْبَاى بن عبد الله الـكَرَكِىّ[١] الظاهرى ، الخازِنْدَار ، وأحد مقدمى الألوف ، المعروف بالطَّاز ، فى ليلة السبت رابع عشر جمادى الأولى بعد مرض طويل ، ودفن بالحوش[٢] الظاهرى بالصحراء ، وهو أحد المماليك الصغار الأربعة الذين توجهوا صُحْبة الملك الظاهر برقوق إلى سجن الـكَرَك ، ولذلك سُمى بالـكَرَكِىّ ، وكان من الأشرار ، كثير الفِتن ، وقد مرّ من ذكره نبذة كبيرة فى ترجمة الملك الناصر فرج ، هذا وكان بينه وبين سُودون طاز الأمير آخور الـكبير عداوة ، فكان يقول له : أنت طاز وأنا طاز ما تَسَعُنا مصر ، فأراح الله الناس منهما فى مدة يسيرة .

وتُوُفِّيَ الأمير سيف الدين يَلْبُغا [بن عبد الله][٣] السُّودونىّ حاجب حجّاب دمشق ، وتولى الحُجُوبيّة من بعده الأمير جَرْكَس المعروف بوالد تَنم الحسنى ، نقل إليها من حُجُوبيّة طرابلس .

وتوفى الأميرُ سيف الدين قَرْقَمَاس الإينالى الرَّمَّاح[٤] ـ قتيلا بدمشق ـ فى أواخر شهر رمضان ، بأمر السلطان ، وكان أصله من مماليك الأتَابَك إينال اليُوسُفى ، وصار من بعده أميراً بديار مصر من جملة الطَّبلخانات ، وكان رأساً فى لعب الرُّمح ، ووقع له أمور بديار مصر حتى أخرجه السلطان الملك الناصر منها إلى دمشق ، على إقطاع الأمير صُرُق ، فثار بدمشق أيضا وهرب منها ، فقُبِض عليه عند مدينة بَعْلَبَكّ فقُتل بها فى عدة مماليك أُخر .

وتُوُفِّيَ خَوَنْد كار أبو يزيد بن مراد بك بن أُورْخان بن عثمان[٥] ملك الروم .

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٢٣٠) .

(٢) المراد تربة الظاهر برقوق بالصحراء . وهى واقعة بحرى جبانة المماليك بينها وبين جبانة العباسية الجديدة المعروفة بجبانة الغفير . (ج ١٢ : ١٠٣ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) الإضافة عن ترجمته فى المنهل الصافى (م ٣ : ٤٤٠) .

(٤) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٢٥) .

(٥) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٥١٠) .

وصاحب بُرْصا[١] ، فى أسر تَيْمور ـ بعد أن وَاقَعَه ـ ومات فى ذى القعدة ، وكان من أجلّ ملوك بنى عُثمان حزماً وعزماً وجلالة وشجاعة وإقداماً ، وقد تقدم ذكر واقعته مع تيمور فى ضمن ترجمة الملك الناصر ، هذا وكان أبو يزيد هذا يعرف بيلْدِرِمْ بايزيد ، [ويلْدِرِمْ][٢] هو باللغة التركية اسم للبَرْق ، وهو بكسر الياء آخر الحروف ، وسكون اللام ، وكسر الدال المهملة ، والراء المهملة ، وسكون الميم ـ انتهى .

وتُوُفِّىَ قاضى قضاة المالكيّة ـ بدمشق ـ علم الدين محمد القَفصى[٣] المالكى ، فى حادى عشر المحرم ، وكان من فُضلاء المالكية .

وتُوُفِّىَ السلطان محمود خَان ، وكان يُعرف بصَرْغَتْمُش ، الذى كان تيمُور لَنْك يدبّر مملكته ، وليس له من الأمر مع تيمُور إلا مجرد الاسم فقط ، وهو من ذُرِّية جِنْكِز خَان ، ولهذا كان سلْطَنه تَمُر وصار مُدبِّر مملكته ؛ لكون القاعدة عند التتار لا يَتَسَلْطَن إلا من يكون من ذُرية الملوك .

وتُوُفِّىَ الأميرُ شهاب الدين أحمد ابن الوزير ناصر الدين محمد بن رجب أحد أمراء العشرات[٤] بديار مصر .

وتوفى سيف الدين سُودُون بن عبد الله بن على بك الظّاهرى ، الأمير آخور الكبير ، المعروف بسودون طاز[٥] ، أحد أعيان المماليك الذين مر ذكرهم فى عدة مواضع ، لا سيا واقعته مع يَشْبُك ، ففيها ذكرنا أحواله مفصلًا ، قُتل فى سجن المَرْقَب

(١) برصا مدينة كبيرة فى شمال بلاد الروم – وهى مقر مملكة أولاد عثمانجق وخارج ربضها نهران هما ككدار ومنزباشى ، والأخير يشق المدينة ويمر فى جامعها (القلقشندى – صبح الأعشى ٥ : ٣٤٣)

(٢) إضافة يقتضيها السياق .

(٣) وهو محمد بن محمد بن محمد وله ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٢٦٢) .

(٤) أمراء العشرات كل منهم مقدم على عشرة فرسان ، وربما يكون فيهم من له عشرون فارساً ومع ذلك يعد فى أمراء العشرات . وهذه الطبقة لا ضابط لعدد أمرائها بل تزيد وتنقص ، ومنها يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف ، وهم يمثلون الطبقة الثالثة من طبقات الأمراء أرباب السيوف (القلقشندى – صبح الأعشى ٤ : ١٥) .

(٥) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ١٤٩) .

بالبلاد الشامية بعد ما نُقل إليها من سجن الإسكندرية ، وكان سُودُون طَاز رأساً فى لَعِب الرُّمح ، يُضْرب بقوّة طَعْنِه ، وشدة ثباته على فرسه المثلُ . وأما سُرعة حركته ، وحُسن تسريحه لفرسه فى ميادين اللّعِب بالرمح فإليه المنتهى فى ذلك ، وكان أحد الأشرار الذين يثيرون الفتن والوقائع ، وقد مرّ من ذكره ما فيه كفاية عن ذكره هنا ثانيا .

أمر النيل فى هذه السنة : الماء القديم ذراعان وعشرون إصبعاً ، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا سواء .

السنة السادسة من سلطنة الملك الناصر

فرج بن برقوق — الأولى على مصر

وهى سنة ست وثمانمائة :

فيها تُوُفّى قاضى القضاة ناصرُ الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمٰن الصالحىّ الشافعىّ ، قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية — وهو قاضٍ — فى يوم الأربعاء ثانى عشر المحرم بالقاهرة ، وكان رئيساً نبيلا كريماً كثير البرّ والإحسان ، إلاّ أنه كانت بضاعتُه مُزْجاةً من العلم .

وتُوُفّى شمس الدين محمد بن البَجَانَسىّ الصعيدى ، مُحْتَسِبُ القاهرة ، فى يوم الثلاثاء رابع جُمادى الأولى ، بعد أن وَلىَ حسبةَ القاهرة غير مرّة بالسعْى والبذْل .

وتُوُفّى الحافظُ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن أبى بكر العراقىّ[١] الشافعىّ ، شيخُ الحديث بالدّيار المصرية ، فى يوم الأربعاء ثامن شعبان بها ، ومولده فى سنة خمسٍ وعشرين وسبعمائة ، وسمع الكثير ورحل [فى][٢] البلاد ، وكتب وألّف وصنّف وأملى سنين كثيرة ، وكان وَلىَ قضاء المدينة النبويّة ، وعِدّةَ تداريس ، وانتهت إليه رئاسة عِلم الحديث فى زَمانه ، ومن شِعره فيمن كان يشبه النبي — صلى الله عليه وسلّم — نشَدَنَا حافظُ العصر شهابُ الدين أحمد بن حجر — إجازة — أنشدنا الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقىّ رحمه الله تعالى — إجازةً إنْ لم يكن سماعا . [البسيط]

وسبعةٌ شُـبِّهوا بالمصطَفَى ِقسَما   لهمْ بِذلك قَدرٌ قَـدْ زكا ونَمَا

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٣١٢) .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

سِبْطُ النبيِّ ، أبوسُفيان ، سَائبهم   وَجعفرٌ وابنهُ ذُو الجودِ والقُثَمَا[١]

وله بالسَّند في الصحابة العشرة المشهودِ لهم بالجنة فقال : [الطويل]

وأفْضَلُ أصحابِ النبيِّ مكانةً   ومنزلةً مَنْ بُشِّروا بِجنـــان

سَعيدٌ زُبيرٌ سَعْدُ عُثمان عامر   عَلِيٌّ ابن عَوفٍ طلحة العُمَران

وقد استوعبنا مسموعه ومُصنفاته في المنهل الصافي ، حيث هو محلّ الإطناب .

وتُوفِّي الأمير سيف الدين أُزْبُك بن عبد الله الرمضانيّ الظاهري ، أحد أمراء الطبلخانات بديار مصر ، في ليلةِ الثلاثاء رابع عَشر شَهر ربيع الأول ، وكان من أعيان المماليك الظاهرية .

وتُوفِّي الأمير سيف الدين قُطلوبَك بن عبد الله ، أستادار الأمير الكبير أيتَمُش البجاسِيّ ، في يوم الأربعاء سابع شهر ربيع الآخر ، كان وليَ أستاداريّة السلطان في بعض الأحيان مدةً يسيرة ، فلم ينجح أمره ، وعزل وعاد إلى حاله أوَّلاً ، وكان له ثروةٌ ومال ، غير أنه لم يعظم إلا بصهارته لسعد الدين بن غراب .

وتُوفِّي التاجر بُرهان الدين إبراهيم بن عمر بن على المحلِّي المصريّ[٢] التاجر المشهور بكثرة المـال ، في يوم الأربعاء ثاني عشرين شَهر ربيع الأول .

---

(١) جاء في الاعلاق النفيسة لابن رسته ٢٠٠ ، ٢٠١ – ط ليدن « قال ابن السكيت : قال جعفر ابن عبد الله بن المهلهل الهاشمي عن ابن الكلبي قال : المشبهون برسول الله صلى الله عليه وسلم من بني العباس ابن عبد المطلب « قثم » بن العباس وله يقول العباس وهو يرثيه

بأبي يا قثم   يا شبيه ذي الكـــرم   وذى الأنف الأشم

ومن بني أبي طالب «جعفر» بن أبي طالب و « الحسن » بن على بن أبي طالب – كان يشبه بالنبي (صلعم) ما بين سرته إلى قدميه . و « محمد » بن جعفر بن أبي طالب – ومن بني الحارث بن عبد المطلب « أبو سفيان » ابن الحارث بن عبد المطلب ، ولد معه في الليلة التي ولد فيها واسم أبي سفيان المغيرة ، و «عبد الله» بن نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب – ومن بني أبي لهب بن عبد المطلب ، «مسلم» بن معتب بن أبي لهب – ومن بني المطلب ابن عبد مناف « السائب » بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ، ويتضح من هذا النص أن المشبهين برسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية . هذا وفي البيت إقواء على تقدير فعل ناصب .

(٢) له ترجمة في المنهل الصافي للمؤلف (م ١ : ٣٠) وكان مولده في سنة ٧٤٥ هـ .

وتُوُفِّى الأميرُ شهاب الدين أحمدُ ابن الأمير شيخ على ، فى ذى القعدة بدمشق ، بعد ما وَلِىَ نيابة صفد وغيرها ، ثم صار أمير مائة ، ومقدّم ألف بدمشق حتى مات ، وكان من أعيان الأمراء .

وتُوُفِّى القاضى علاء الدين على بن خليل الحُكرىّ الحنبلىّ[(١)] ، فى يوم السبت ثامن المحرم .

وتُوُفِّى الأميرُ سيفُ الدين آقبُغَا [بن عبد الله][(٢)] الجمالىّ الظاهرىّ ، المعروف بالأطروش والهَيْدُبانى[(٣)] نائب حلب بها ، فى ليلة الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، وكان من أعيان المماليك الظاهريّة — برقوق — وممن صار فى دولة أستاذه حاجب حجّاب حلب ، ثم وَلِى نيابة صَفَد ، ثم ولى نيابة طرابلس بعد الأمير دَمُرْدَاش المحمّدى ، بحكم توجُّه دَمُرْدَاش أتابَكا بحلب ، ثم نقله الملك الظاهر إلى نيابة حلب بعد موت أرغون شاه الإبراهيمى ، فى سنة إحدى وثمانمائة ، ودام على نيابة حلب إلى أن خرَج تَنَمَ نائب الشام عن طاعةِ الملك الناصر ، فوافقه آقبغا هذا ، وصار من حزبه ، إلى أن قُبض عليه مع من قبض عليه منَ الأمراء ، وحبس مدّة ثم أطلق ، وولى نيابة طرابلس ثانياً بعدَ الأمير شيخ المحمودى ، بحكم أسرِه مَع تيمور ، فلم يتم أمره ، وأعيد شيخ إلى نيابة طرابُلُس ، واستقر آقبغا هذا أتابكا بدمشق مدّة ، ثم ولى نيابة دمشق بعد الوالد ، بحكم خروجه من دمشق إلى حَلب ، فلم تطل أيامه بدمشق ، وعُزِلَ بالأمير شيخ المحمودى ، وتوجَّه — بطَّالا — إلى القدس إلى أن أعيد إلى نيابة حَلَب بعد دُقْماق المحمدى ، فتوجّه إليها ، وأقام بها إلى أن مات فى التّاريخ المذكور .

وتُوُفِّى الأمير سيف الدين دِمشق خُجا بن سالم الدُّوكارى[(٤)] التركمانىّ ، نائب

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٣٩٧) ولد بالحكر خارج القاهرة فسمى بالحكرى .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٢٣٢ — ٢٣٧) والاضافة عن المنهل .

(٣) كذا فى الأصول ، وفى المنهل الصافى « الهدبانى » وهو يوافق السلوك للمقريزى فى ذلك .

(٤) اختلف الرسم فى الأصول بين « الدوكارى » « والدوركارى » وفى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٩١) « الذكرى » وفى الضوء اللامع للسخاوى (٣ : ٢١٩ ت٨٢٣) « الدكزى » . بزاى معجمة .

قلعة جَعْبَر(١) — قتيلاً بيد الأمير نُعَيْر بن حيّار — فى سابع عشر شهر رمضان .

وتُوُفِّى الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّين محمد بن مُبَارك شيخُ الرّباط النبوىّ — المعروف بالآثار — فى المحرم .

وتُوُفِّى الشيخُ محمد المعروف بالحرْفىّ(٢) فى شوال من السنة، وكان عالما بعلم الحرْف، وله مشاركة فى غيره .

أمرُ النيل فى هذه السنة : الماء القديم ثلاثة أذرع وعشرة أصابع ، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا وثلاثة عشر إصبعاً ، والوفاء خامس توت .

---

(١) قلعة جعبر : وتقع بديار بكر (تركيا) فى البر الشرقى الشمالى للفرات . عرفت بسابق الدين جعبر القشيرى الذى ملكها فى أيام السلاجقة (ياقوت — معجم البلدان ٤ : ١٣٨) .

(٢) واسمه محمد بن على بن عبد الله . الشمسى الحرفى (السخاوى — الضوء اللامع ٨ : ١٩٣ ت ٥٠٢) .

السنة السابعة من سلطنة الملك الناصر
فرج بن برقوق ـــ الأولى على مصر

وهى سنة سبع وثمانمائة :

فيها كان الشراقى العظيم بالديار المصرية .

وفيها كانت واقعة السعيديّة[١] بين الملك الناصر فرج صاحب الترجمة ، وبين يَشْبُك ، وشَيْخ ، وجَكَم ، وقَرا يوسف ، حسبما تقدَّم ذكره .

وفيها تُوفِّى الشيخُ الإمامُ العالمُ عُبيد الله الأَرْدبيلىّ الحنفىّ ، فى آخر شهر رمضان ، وكان من الفضلاء ، معدوداً من فقهاء الحنفيّة .

وتُوفِّى الوزير الصاحبُ بدرُ الدين محمد بن محمد الطوخىّ[٢] ، وزير الديار المصرية ، تنقّل فى الخِدَم الدِّيوانية حتى ولى ناظر الدولة[٣] ، ثم نُقل إلى الوَزَر سنة تسع وتسعينَ بعد مسك ابن البَقَرىّ[٤] ، وتولّى بعده نظر الدولة سعد الدين الهيصم ، ثم باشر الوَزَرَ بعد ذلك غَير مرّة ، ووَقع له أُمورٌ ومِحَنٌ إلى أن مات ــ بطّالا ــ فى هذه السنة .

وتُوفِّى الأميرُ سيفُ الدين قانى باى بن عبدالله الظاهرى ، رأس نوبة ، وأحد أمراء العشرات بديار مصر ، فى يوم الخميس أول جمادى الآخرة ، وكانَ مِن خاصكيّة الملك الظاهر برقوق الصِّغار .

---

(١) السعيدية : مكانها اليوم عزبة الشيخ قطر حنفى وآخرين ، وتقع على فم ترعة السعيدية الممتدة بأراضى ناحية العباسة مركز الزقازيق . (ج ١٢ : ٣١٨ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٢٦١) .

(٣) هو ناظر الدواوين المعمورة والصحبة الشريفة ، ويتحدث فى كل ما يتحدث فيه الوزير ، ويكتب فى كل ما يكتب فيه بمثل ما رسم به (القلقشندى – صبح الأعشى ٤ : ٣١) .

(٤) هو الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى وانظر قصة ذلك فى (ج ١٢ : ٦٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

وتوفى الشيخ الإمام العالم الفقيه عبد المنعم بن محمد بن داود[١] البغدادى الحنبلى، ثم المصرى بها، فى يوم السبت ثامن عشر شوال، وقد انتهت إليه رئاسة مذهب الإمام أحمد بن حنبل، بعد ما كتب على الفتوى، ودرّس عدة سنين، وكان لما قدم من بغداد إلى الديار المصرية تفقه بقاضى القضاة موفق الدين الحنبلى، وهو جد صاحبنا قاضى القضاة بدر الدين محمد بن محمد بن عبد المنعم — رحمه الله.

وتوفى القاضى ناصر الدين محمد ابن صلاح الدين صالح[٢] الحلبى، الموقع الشافعى، المعروف بابن السفاح، موقع الأمير يشبك الشعبانى الدوادار، فى يوم الثلاثاء ثانى عشرين المحرم.

وتوفى الشيخ نور الدين على ابن الشيخ الإمام سراج الدين عمر البلقينى[٣]، فى يوم الإثنين سلخ شعبان فجاءة بمدينة بلبيس، وحمل منها إلى القاهرة، ودفن بتربة[٤] الصوفية، خارج باب النصر عند أبيه، وكان مولده فى شوال سنة ثمان وستين وسبعمائة، وكان بارعاً فى الفقه والعربية، ودرّس بعد موت أبيه بعدة مدارس.

وتوفى القاضى شمس الدين محمد بن عباس بن محمد بن حسين بن محمود بن عباس الصلتى، فى مستهل جمادى الأولى، بعد ما ولى القضاء بعدة بلاد من معاملة دمشق وغيرها، ولى قضاء بعلبك، وحمص، وغزة، وحماة، ثم عمل مالكيا وولى قضاء المالكية بدمشق، ثم ترك ذلك بعد مدة وولى قضاء الشافعية بدمشق، ولم تحمد سيرته فى مباشرته القضاء، وكيف تحمد سيرته وهو ينتقل فى كل قليل إلى مذهب لأجل المناصب! فلو كان يرجع إلى دين مافعل ذلك، ومن لم يحترز على دينه يفعل مايشاء.

قلت — والشىء بالشىء يذكر — وهو أننى اجتمعت مرة بالقاضى كمال الدين بن

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٣٥٣).
(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ١٦٩).
(٣) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٤٢٠).
(٤) تربة الصوفية : مكانها اليوم المقابر المعروفة بجبانة باب النصر (ج ١٠ : ٣٣٦ من هذا الكتاب ط دار الكتب).

البارزى ، كاتب السر الشريف بالدّيار المصرية — رحمه الله تعالى — فدفع إلىّ كتاباً من بعض أهلِ غَزَّةَ ، ممن هو فى هذه المقُولة ، فوجدت الكتابَ يتضمّنُ السعىَ فى بعضِ وظائفِ غَزَّة ، وهو يقول فيه : يامولانا ، المملوك منذ عُزِلَ من الوظيفة الفلانية بغزَّة خاطرهُ مكسور ، والمسؤول منْ صدقات المخدوم أن يوليه قضاء الشّافعية بغزّة ، فإن لم يكن فقضاء الحنفيَّة ، فإن لم يكن فقضاء المالكية ، وإلا فقضاء الحنابلة ، فكتَبْتُ على حاشية الكتاب بخطى : فإن لم يكن ، فمشاعلىّ[1] ملك الأمراء — انتهى .

أمرُ النيل فى هذه السنة : الماء القديمُ ذراع واحدٌ وعشرة أصابع ، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا وثلاثة أصابع .

---

(١) المشاعلى هو الذى يتولى التشهير بمن تقرر تشهيره حياً أو مقتولا . وربما يتولى هذا المشاعلى تنفيذ القتل فيمن يحكم عليهم بذلك . وينسب إلى المشعل الذى يحمله فى سيره ليلا ، ويقال له الضوئى أيضا (عن دوزى) .

ذكر سلطنة الملك المنصور عبد العزيز على مصر

السلطان الملك المنصور عزالدين عبد العزيز ابن السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبي سعيد بَرْقُوق ابن الأمير أَنص العثمانى، سلطان الديار المصرية، وهو السلطان السابع والعشرون من ملوك التُّرك بالديار المصرية، والثالث من الجراكسة، تسلطن بعهدٍ من أبيه له بعد أخيه الملك الناصر فَرَج، وباتفاق الأمراء من أعيان مماليك أبيه؛ بعدَ ما اختفى أخوه الملك الناصر فرج ابن الملك الظَّاهر برقوق، بعد عشاء الآخرة من ليلة الإثنين سادس عشرين شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة، وقد ناهزَ الاحتلام، بعد أنْ حضر الخليفة والقضاة والأعيان من الأمراء، وطُلب عبد العزيز من الدور السلطانية إلى الإسطبل[1] السلطانى، وبويع بالسلطنة، وفُوِّض عليه الخلعة الخليفتية، وركبَ فرسَ النوبة فى الفوانيس والشموع، والأمراء مشاةٌ بين يديه حتى طلعَ إلى القصر، وجلس على تختِ المُلك، وقبَّلت الأمراء الأرض بين يديه، ولُقِّب بالملك المنصور أبي العز عبد العزيز، ودقت البشائر — على العادة — وأصبحَ نودىَ من الغد بالأمان والدعاء للسلطان الملك المنصور عبد العزيز. وأمُّ الملك المنصور هذا أم ولد تترية، تُسمَّى قُنُق باى، صارت خَوند بسلطنة ولدها هذا، وعاشت إلى حدود سنة خمسٍ وثلاثين وثمانمائة.

ولما تسلطن الملك المنصور هذا فى الليلة المذكورة، أصبحَ الناس فى هدوء وأمان، وتحيَّرت الناسُ فى أمر السلطان الملك الناصر فَرَج، ولم يشُكَّ أحدٌ فى أن الوالد أخذَه وَمضى إلى البلادِ الشامية، لأنه كان عقدَ على الأخت قبل تاريخه بمدةٍ يسيرة ولم يدخل بها، فاطمأنَّ بذلك قلبُ منْ هو مِن أصحاب الملك الناصر، وكان مِمَّنْ اختفى بعدَ خروج الوالد مِنْ مصر منْ أعيان الأمراء، دَمُرداش المحمَّدىّ نائب حلب، والأمير

---

(١) مكان هذا الإصطبل حالياً مجموعة المبانى التى بها مخازن الجيش بالقلعة (ج ١٢ : ٤ من هذا الكتاب ط دار الكتب).

بيغوت، وهمّ كثير من حواشى الملك الناصر فرج باللحاق بهما إلى البلاد الشامية، لولا أن أشاع آخرون قتل الملك الناصر المذكور، ثمّ أشيع بعد ذلك أنه اختفى بالقاهرة، وأعرض أكابر الأمراء عن الفحص فى أخبار الملك الناصر، والتفتيش عليه.

وقام بتدبير مملكة الملك المنصور، القاضى سعد الدين إبراهيم بن غراب، وهو يوم ذاك كاتب سرّ مصر، وصار الملك المنصور تحت كنف أمه، ليس له من السلطنة سوى مجرد الاسم فقط، وهى كثيرة التخوّف عليه من أخيه الملك الناصر فرج، وكانت امتنعت عن سلطنته، وحجبته عن الأمراء حين طلبوه للسلطنة، حتى أخذ منها بحيلة، دبّروها عليها، واستقرّ الأمير بيبرس الصغير لالا (١) السلطان الملك المنصور.

ثمّ فى يوم الخميس تاسع عشرين شهر ربيع الأوّل المذكور، عملت الخدمة بالإيوان من قلعة الجبل على العادة، وجلس الملك المنصور على تخت الملك، وحضر الأمراء، والقضاة، وسائر أعيان الدّولة، وخلع الملك المنصور على جماعة كبيرة من الأمراء باستمرارهم على وظائفهم، وبتجديد وظائف أخر، فخلع على بيبرس باستقراره أتابك العساكر على عادته، وعلى الأمير آقباى باستقراره أمير سلاح على عادته، وعلى سودون الطيّار باستقراره على عادته أمير مجلس، وعلى سودون تلى المحمّدىّ الأمير آخور باستمراره على عادته، وعلى بشباى رأس نوبة النوب على عادته، وعلى الأمير أرسطاى حاجب الحجّاب على عادته، وعلى سودون المارداني الدّوادار الكبير على عادته، وعلى سعد الدّين بن غراب على عادته كاتب السرّ، وعلى أخيه فخر الدين ماجد وزيراً على عادته، وعلى فخر الدين ماجد بن المزوّق ناظر الجيش على عادته، وعلى جمال الدّين يوسف البيرىّ الأستادار على عادته، وأنعم بإقطاعات الأمراء المنهزمين، مثل الوالد وغيره، على الأمير إينال باى بن قجماس، ومن كان قدم من المحبوس.

---

(١) اللالا : هو المربى (ج ١٢ : ٢٩٢ من هذا الكتاب ط دار الكتب).

وأخذ من هذا اليوم أمرُ يَشْبُك الشّعبانىّ الدّوَادَار — كان — ورُفقته يَضعفُ ، وأمرُ الأتابَكِ بِيبَرْس ورفقته يقوى ، حتى صار يَشْبُك والأمراء يطلعون إلى بِيبَرْس ويأكلون على سماطه ، وإذا كان لهم حاجةٌ سألوا بِيبَرْس فيها ، ولم يعهدوا قبل ذلك لبيبرس فى الدولة كلاماً ، فعزّ ذلك على يَشْبُك وحاشيته إلى الغاية ، وندموا على ماوقع منهم فى حقّ الملكِ الناصر فَرج ، وتَساعوا فى عوْدِه ، ولم يعرفوا للناصر خبراً ، كلّ ذلك وسعد الدين بن غراب لا يُعرِّف أحدا بأمر الملك الناصر فرَج ، لكنه يدبِّر فى إخراجه ، وعوده إلى مُلكه منْ حيثُ لا يعلم بذلك أحد ، وأخذ يدبِّر أيضاً على قَبض إينال بَاى بن قَجْماس فى الباطن ، فلم يتمّ له ذلك ؛ لكثرة حاشيته وعصبته ، واضطراب الدولة ، وعَدم اجتماع الكلمة فى واحد بعينه .

ثمّ فى يوم الأربعاء ثامن عشر شهر ربيع الآخر ، أُفرج عن فتح الدين فتح الله كاتب السرّ — كان — على أنه يَحملُ خمسمائة ألف درهم ثَمنها يوم ذاك ثلاثة آلاف وثلاثة وثلاثون مثقالا ذهباً وثلث مثقال ، كلّ ذلك والدولة غير مستقيمة ، وأحوال الناس متوقفة ؛ لترقُّبهم وقوع فتنة ، غير أنّ أخبار الناصر لا تظهر ، مع علمهم أنه مختفٍ بالقاهرة ، لما يظهر مِنْ أمر بِيبَرس ورفقته مِنَ الاحتراز مِنَ الناصر ، وإصلاح أمر الملك المنصور عبد العزيز فيما يُثَبِّت به مُلكه .

ثم فى حادى عشر جمادى الأولى ، توجه الطواشى شاهين الحسنىّ ، رأس نوبة الجمدارية ، و لالا السلطان الملك المنصور ، ومعه نحو عشرة أنفس ، إلى البلاد الشامية لإحضار الأمير شيخ المحمودىّ الساقى نائب الشام — كان — إلى الديار المصرية ، وكانَ يوم ذاك الأمير نَوْرُوز الحافظىّ وَلىَ نِيابة الشام عِوَضاً عن شيخ المذكور ، وخرج لقتال شيخ وكسرَه ، وحصرهُ بقلعة الصُّبَيبة[1] ، ولإحضار الأمير جَكَم مِنْ عَوَض نائب حَلب ، ثمّ ورد كتابُ الأمير شيخ المذكور ، وكتابُ جَكم

(١) قلعة الصبيبة : هى قلعة بانياس جنوب غربى دمشق وما زالت بقاياها موجودة إلى الآن (ج ١٢ : ٢٩٨ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

أيضاً إلى الديار المصرية بعد ذلك بعشرة أيام ، يخبران بأنهما حاربا الأمير نَوْرُوزا الحافظيّ وهزماه ، وأنه لحقَ بطرابُلُس، وأنهما دخلا دمشق وأقاما بها أياما ، ثم إن جكَمَ خرج من دمشق لقتال نوْرُوز الحافظى بطرابلس ، وتبعه شيخٌ ، فلما بلغ نوْرُوزا ذلك خرَج من طرابلس إلى حَماة ، ونزَل جَكَمُ وشيخٌ على حِمص، ثم سارا إلى طرابلس، ففرَّ منها نائبها الأمير بَكْتَمُر جِلّق ، فوصل جَكَمُ وشيخٌ إلى طرابلس ، وبلغ الأمير عَلاّن جِلّق نائب حلب نزول نوْرُوز وبَكْتَمُر جِلّق إلى حماة ، فخرج بعساكره من حلب، وقدم عليهما ووافقهما على قتال جكم وشيخ .

ولما وصل هذا الخبر إلى الديار المصرية ، عظم على الأتابك بيبَرس وحاشيته انهزام نَوْرُوز من جَكم وشيخ إلى الغاية، وسر بذلك يَشْبُك وحاشيته فى الباطن ، وكثُر قلقُ يشبك وأصحابهِ منَ الأمراء على الملك الناصر فَرَج ، لاسيما لما مرض الملك المنصور عبد العزيز فى يوم الثلاثاء أول جمادى الآخرة ، فلما رأى سعد الدين إبراهيم ابن غُراب أمر يَشْبُك الشعبانيّ فى إدبار عزّ عليه ذلك، لأن يشبك المذكور كان هو الذى أقامه بعد موتِ الملك الظاهر بَرْقوق، وقام بمساعدته أعظم قيام ، حتى كان مِنْ أمر ابن غراب ما كان ، فعند ذلك أعلمه ابن غراب بأمر الملك الناصر مفصلا ، وأنه عنده مقيم من يوم تسحب من قلعة الجبل ، وقال له: أىوقت تشتهى الاجتماع به فعلتُ لك ذلك ، فَسُرّ يشبك بذلك غاية السرور ، وأعلم إخوته وحواشيه بما وقع ، وأخذَ منْ يومه فى تدبير أمر الملك الناصر فرج ، وظهوره وعودهِ إلى مُلكه فى الباطن ، حتى استحكم أمرهم ، ووافق ذلك مرض الملك المنصور عبد العزيز ، فقَوِيت حركتهم ، وكثُرت القالةُ بين الناس فى أمر الملك الناصر وعوده إلى الملك ، وتحقّقَ كلُّ أحد أنه مقيمٌ بالديار المصرية ، وصارت أخبارُه تأتى يَشْبُك وأصحابه مياومة ومساعاةً ، هذا بعد أن اجتمع عليه يشبك وغيره من الأمراء فى اللّيل غير مرة ، وواعدوه ، وتَرَدَّدوا إليه فى أماكن عديدة ، كلّ ذلك وبيبرس ورفقته لا يعرفون ما الخبر ، بل يتحقّقون أنه مقيمٌ بالقاهرة لاغير ، وأنّ له عصبيةً كبيرة من الأمراء ، ومع ذلك

قلوبهم مطمئنةٌ أنَّ القلعةَ بيدهم والسلطانَ عندهم، وأن الناصر أمرهُ تلاشى واضمحل .

فلما كان يومُ الجمعةِ رابع جمادى الآخرة من سنة ثمان وثمانمائة المذكورة ، سعى المماليك بعضهم إلى بعض ، وكثُر هرجهم ، وعادت خيول كثيرة من الربيع ، وصاروا يركبون جمعاً كبيراً ويتسارّون بالكلام ، وبلغ ذلك بيبرس ورفقته ، فأمرهم بيبرس وإينال باى بن قجْماس بالفحص عن أخبارهم ، فخرَج جماعةٌ كبيرة منهم وداخلوا المماليك المذكورة فى كلامِ الناصر ، فلم يقفوا له على خبر ، وعُمّى عليهم جميعُ أحوال الملك الناصر ، غير أنهم علموا أنّ الملك الناصر يريدُ الظهور والعود إلى المُلك فاضطربَ أمرُهم ، وحرّضوا بعضهم بعضاً على قتاله إن خرج ، وتهيأوا لذلك ، وحصنوا القلعة ، وطلبوا جماعةً كبيرة من المماليك السلطانية ، ووعدوهم بالأمريّات والإقطاعات والوظائف ، وحذروهم مِنْ عود الملك الناصر إلى المُلك ، أنه لا يُبقى على أحد منهم ؛ وتواصوا على القيام مع الملك المنصور عبد العزيز وإتمام أمره ، كلّ ذلك وأحوالهم مفلولة ، لعدم أهلية بيبرس بتنفيذ الأمور ، ومعرفة الحروب ، والقيام بأعباء الملك ؛ لانهماكه فى اللذات ، ولانعكافه على اللهو والطرب عمرَه كلّه ، لا يميل لغير ذلك ، ومنذ مات خاله الملكُ الظاهر برقُوق لم يدخل بنفسه فى أمر غير هذا المعنى المذكور ، ولسان حاله ينشد ويقول : [موشح]

خلِّ الملوك تسطو بالمُلك والسلاح إنى قنعت منهم بالراح والملاح .

قلت : وليته دامَ على ما كان عليه مِنْ لهوه وطربه ، ولم يدخل بنفسه فى هذه المضايق التى ذهبت فيها روحه ، وأما رفيقه إينال باى فإنه كانَ فيه طَيْشٌ وخفةٌ مع عدم تدبير ومعرفة ، وأيضاً لو علم ذلك كله ، لم يكن أهلاً إلى القيام بمثل هذا الأمر مع وجودِ مَن هو أعظم منه فى النفوس ، وأكبر منه قدراً ، وهم جماعة كبيرة ، فلهذا كله لم ينتج أمرهم ، وزال ملكُ الملكِ المنصور عبد العزيز بعد ما كان تمّ أمره ، وقطعَ الناصر آماله من المُلكِ .

واستمرّ الأمرُ على ذلك ، وباتوا ليلة السبت المذكورة ، والحالُ على ماهو عليه ، إلى أنْ كانَ نصفُ الليل ، فخرج الملك الناصرُ فرج بن برقوق مِن بيتِ القاضى سعد الدين إبراهيم بن غراب ، كاتب السرّ ، فى جماعةٍ كبيرة ، من غير تستّر ، بَلْ فى مَوكب عظيم سلطانىّ ، ومضى بعساكره إلى بَيت الأمير سودُون الحمزاوىّ ونزلَ بهِ ، وأرسل استدعى الأمراء والمماليك السلطانية ، وتسامعت به الناس ، فأتوه مِنْ كلّ فج بالسلاح وآلة الحرب ، ثُم لبس الملك الناصر سلاَحهُ وركبَ فى أُمرائه وعساكره ، وقصدَ قلعة الجبل ، وقد استعدّ بِيبَرْس وإينال ، وغيرهما مِنَ الأمراء الذين بالقلعة لِقتاله ، وحصَّنوا القلعةَ ، فلما حضر إليها الملكُ الناصرُ فَرَج بعساكره ناوَشوه بالقتال ، ورموا عليه ، وتقاتل الفريقان قتالا ليس بذاك ، فلما رأى الملكُ الناصر أمر أهل القلعة مفلولا ، توجّهَ إلى نحو باب القلعة ، وكانَ به الأمير صوماى الحسنىّ الظاهرىّ – رأس نوبة – [و] قد وُكّل بباب المدرّج[1] ، فعندما رأى صوماى الملكَ الناصر فتحَ له باب القلعة ، فطلع منه الملكُ الناصر بأُمرائه ، وملكَ القلعةَ وجلس بالقصر السلطانى ، هذا وبِيبَرس وإينال باى يقاتلان أمراء السلطان منْ باب[2] السلسلة منَ الإسطبل السلطانى .

فبينما هم فى ذلك ، وإذا بالرمى عليهم مِن القصْر ، فالتفتوا وإذا بالناصر جالسٌ بالقصر السلطانى ، فلم يثبت بِيبَرس عند ذلك ساعة واحدة ، وانهزم منْ وقته ، ونَزل بمنْ معه فاراً إلى خارج القاهرة ، فأرسل السلطانُ فى أثره الأمير سودون الطيَّار – أمير مجلس – فى جماعة ، فأدركه خارج القاهرة ، فلم

(١) باب المدرج : ويعرف بباب القلعة الأعظم ، ويقع فى الحائط الغربى للقسم البحرى منها ، وهو الذى به ثكنات الجيش ، وكان يوصل مباشرة إلى الدركاة التى ينتظر فيها الأمراء الإذن بالدخول على السلطان ، كما يوصل إلى دار النيابة التى يقيم فيها نائب الغيبة (القلقشندى – صبح الأعشى ٣ : ٣٧٤) .

(٢) باب السلسلة هو باب القلعة الموجود حالياً بميدان صلاح الدين ، وعرف قديماً بباب الاسطبل ، وباب الإنكشارية ثم بباب العزب (ج ١٢ : ٢٨٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

يدفع عن نفسه ، فقبضَ عليه سودون الطيَّار ، وأتى به إلى الملك الناصر ، فقُيِّد في الحال ، وأُرسل إلى الإسكندرية ، فسُجن بها ، واختفى إينال باى ، وسودون المارْدانىّ ، وطلبَ السلطانُ الملكُ الناصرُ فَرجُ أخاه السلطان الملكَ المنصور عبد العزيز ، وطيَّب خاطره ، وأرسله إلى أُمه بالدُّور السلطانيَّة ، وتم أمر الملك الناصر ، وأعيد إلى مُلكه بعد أن خُلعَ مِنَ الملك هذه المدة ، وزال مُلك الملكِ المنصور كأنه لم يكن ، فكانتْ مدَّةُ سلطنةِ الملكِ المنصور عبد العزيز المذكور عَلى مصر شهرين وعشرة أيام ، ليس له فيها إلا مجرد الاسم لاغير ، وأقام عند أمه بالدور السلطانية مِنْ قلعة الجبل إلى أن أخرجه أخوه الملك الناصر فرج إلى ثغر الإسكندرية ، ومعه أخوه إبراهيم بن الملك الظاهر بَرْقوق ، صُحْبة الأمير قُطْلُوبُغا الحسنىّ الكركىّ ، والأمير إينال حطب العلائىّ ، في حادى عشرين صفر من سنة تسع وثمانمائة المذكورة ، فأقام الملكُ المنصورُ عبدُ العزيز المذكور وأخوه إبراهيم بالإسكندرية مدةً يسيرةً ، ومرضا معاً ، فمات الملكُ المنصور هذا في ليلة الإثنين سابع شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثمانمائة المذكورة ، بعد أن لزمَ الفراش واحداً وعشرين يوما ، ومات أخوه إبراهيم بعده في ليلته ، فاتهم الملك الناصرُ أنه أمرَ باغتيالهما بالسُّم قبل سفره إلى الشام — حسبما يأتى ذكره .

قُلتُ : لا يبعد ذلك مِنْ وجوهٍ عديدةٍ ليس لإبدائها محل — والله أعلم .

ذكر سلطنة الملك الناصر فرج
الثانية على مصر(١)

ولما كانَ صبيحة يوم السبت خامس جمادى الآخرة ، طلع الملكُ الناصرُ فرَج إلى قلعة الجبل وملكها ، وقبَض على الأتابك بيبَرْس ، ثم على من يأتى ذكره ، ثم طلب الخليفةَ والقضاة فحضروا ، وجُدِّدتْ له بيعةُ السلطنة ثانياً ، وثبتَ خَلع الملك المنصور عبد العزيز ، وتسلطن وعاد إلى مُلك مصر ، وَخلعَ على الخليفةِ والقضاة ، وتمَّ أمرُه ، وانفضَّ الموكبُ ، ونزَل الجميعُ إلى دورهم ، وَسكن أمرُ الناس .

فلما كانَ يوم الإثنين سابع جمادى الآخرة المذكورة ، خَلع السلطان على الأمير يَشْبُك الشَّعبانىّ الظاهرىّ الدَّوادار ـ كانَ ـ باستقراره أتابَك العساكر بالديار المصرية ، عوضاً عن بيبَرْس ابن أختِ السُّلطان الملك الظاهر برْقوق ، وَخلعَ على الأمير سودون الحمزاوىّ الظاهرىّ باستقراره دواداراً كبيراً ، عِوضاً عنْ سودون الماردانىّ ، وعلى الأمير جَركس القاسمىّ المصارع باستقراره أمير آخور كبيراً ، عوضاً عن سودُون تَلى(٢) المحمدىّ ، ثم أمسكَ السلطانُ الأمير جارقُطلُو ـ رأس نوبة ـ وقانى باى ـ أمير آخور ـ وآقبغا ـ رأس نوبة ـ والثلاثةُ أمراء عشروات ، وأمسك بُرْدبَك وصَمْغار ـ رأس نوبة ـ أحد أمراء الطبلخانات ـ ثم خلع على القاضى سعد الدين إبراهيم ابن غراب ، واستقر رأس(٣) مشورة ، وأنعم عليه بإمرة مائة ، وتقدمة ألف بالدّيار

---

(١) العنوان فى نسخة اسطنبول كما يلى « ذكر عودة الملك الناصر فرج بن برقوق إلى السلطنة ثانياً »

(٢) تلّى يعنى المجنون ، وقد قتل فى سلطنة شيخ المحمودى سنة ٨١٨ هـ (السخاوى — الضوء اللامع ٣ : ٢٨٥) .

(٣) رأس المشورة : هو كبير أمراء المشورة ، وهم الأمراء الكبار السن ، وكانوا يجلسون فى الاحتفالات الرسمية على بعد خمسة عشر ذراعاً على اليمين وعلى اليسار من مجلس السلطان ، ويؤخذ رأيهم فيما يتطلب المشورة (القلقشندى — صبح الأعشى . ٤ : ٤٤ ، ٥ : ٤٥٥) .

المصريّة ، وصار أميراً بعدما كان مُباَشراً ، ولبس الـكَلْفَتَاة[1] ، وتقلّد بالسيف ، وكان في أمسه قد ركب مع السلطان الملك الناصر بقَرْقُل[2] وعليه آلة الحرب ـ كاملا ـ وصَار بعدُ مِنْ جملة المقاتلين ، وتزيّا بزيّ الأتراك ، وطلعَ إلى الخدمة مِن جُملة الأمراء ، ثمّ نزل إلى داره بقُماش الموكب ـ على عادة الأمراء ـ فلم يركب بعـدها ، ولَزِمَ الفراشَ حتى مات ، حسبما يأتى ذكره فى محله .

وخَلع السلطانُ على فخر الدين ماجد بن المزوّق ـ ناظر الجيش ـ باستقراره فى كِتابة السرّ ، عوضاً عن سعد الدين بن غُراب المذكور ؛ بحكم انتقاله إلى إمرة مائة ، وتقدمة ألف بالديار المصريّة ، ثم أمر السلطان فكُتِب بتقْليدِ الأمير شيخ المحموديّ باستقرارِهِ فى نيابة دِمَشْق على عادته ، عوضاً عن الأمير نَوْرُوز الحافظيّ ، وأن يتوجّه نَوْرُوز المذكور إلى القُدْس بطّالا ، وحمل التقليد والتّشريف إلى الأمير شيخ الأميرُ إينال المنْقَار شادّ[1] الشّراب خاناة ، وكُتب بتقليد الأمير جَكَمْ بنيابة حَلب ، عوضاً عن علاّن ، وحمل إليه التقليد والتّشريفَ سُودُونُ السّاقى ، وكتب للأمير دَمُرْداش المحمدىّ نائب حلب ـ كان ـ بالحضور إلى مصر ، ثم قَبَضَ السُلْطانُ الملك الناصر على سُودُون المحمدىّ المعروف بتلى الأمير آخور الـكبير ، وأُخرج إلى دمشق على إقطاع الأمير سُودُون اليوسفىّ ، ثمّ خلع السلطانُ على الأمير سُودُون من زادة باستِقْرَارِهِ فى نيابة غزّة عِوضاً عن سَلامُش .

ثمّ فى حادى عشرين جُمادَى الآخرة المذكورة ، خَلَع السّلطانُ على الأمير تِمْراز الناصرىّ باستِقْرَارِهِ نائب السّلْطنة الشّريفة بالدّيار المصرية ، وكانت شاغرةً سنين

---

(١) الكلفتاة : غطاء للرأس ، وتسمى الكلوتة أيضاً ، ولونها أصفر ، وهى من رسم الدولة التركية ، يلبسها السلطان والأمراء وسائر العسكر ، ولها كلاليب بغير عمامة فوقها (دوزى ٣٨٧) .

(٢) القرقل : هو الدرع تصنع من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأصفر والأحمر (ج ١٢ : ٢٠٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) شاد الشراب خاناة : هو المتسلم لحواصل الشراب خاناة السلطانية ، والمتحدث فى شأنها ، وتحت يده غلمان عنده برسم الخدمة ، وتارة يكون مقدماً وتارة يكون طبلخاناة (القلقشندى — صبح الأعشى ٤ : ١٩ ، ٢١) .

عديدة ، من يوم تركها سُودُون الفخرىّ الشيخونىّ ، فى دولة الملك الظاهر بَرْقُوق ، وخَلع على الأمير آقْبَاى أمير سلاح ، واستقر رأس نوبة الأمراء ، واستقرّ سُودُون الطَّيّار أمير سلاح عِوَضاً عن آقْبَاى المذكور ، واستقرّ يَلبُغَا الناصرىّ أمير مجلس عوضاً عن سُودُون الطّيّار .

وأما البلاد الشّاميّة ، فإنه لمّا بلغ أعيان الأمراء بها عودُ الملك الناصر فرَج إلى مُلكه ، وتَوْلِية شَيْخ ثانياً نيابة دِمَشْق عِوَضاً عن نَوْرُوز ، فرحوا بذلك فرحاً عظيما ، ودُقّت البشائر لذلك أياماً ، وخرج نَوْرُوز الحافِظىّ ، وعلاّن جِلَّق[1] من حَماة ، وتوجّها إلى حَلَب بِمَنْ معهما ، وكان الأمير دَمُرْداش المحمّدىّ قد فرّ منها ، وتوجّه إلى بلاد التّركمان ، فمضَيَا إليه ، ثم فارَقَاه وعادا إلى جهةٍ أُخرى حسبما يأتى ذكره ، وأقام بحلب الأمير دُقْمَاقُ المحمّدىّ ، فلما قدمَ جَكَمَ إلى حَلَبَ امتنع دُقْمَاق بحلب ، وقاتلهُ وانكسر ، وأُخذ دُقْمَاقُ وقُتل بين يَدَىْ جَكَمَ صَبْراً — على ما يأتى ذكرُه فى محلّه .

وأما السّلطانُ الملكُ الناصر فَرَجُ ، فإنه لمّا كانَ يوم الخميس رابع شَهْر رَجَب ، قَبَضَ على الأمير أَزْبُك الرّمضانىّ ، وقيّدَه وبعَثَهُ إلى الإسكندرية فسُجنَ بها ، ثم وردَ عليهِ الخبرُ بأنّ الأميرَ جَكَمَ سارَ إلى حَلَبَ ومعهُ الأميرُ شيخُ نائب الشام ، ونَوْرُوز بحَلَب ، فلمّا وَصَلاَ إلى المَعَرَّة كَتَبَ إليهما نَوْرُوز يعتذر بأنّه لم يعلم بولاية الأمير جَكَم لحلَب ، وخَرج بمَنْ معه منها إلى البرّيّة ، فدخَل جَكَمَ حَلَبَ من غير قتال ، وعاد شيخُ إلى الشّام ، فلما بلغَ السلطانَ ذلكَ كتبَ إلى الأمير جَكَمَ بنيابة طرابُلس مُضَافاً على ما بيده من نيابة حلَب بمثالٍ سُلطانىّ مِنْ غير تقليد ، وتوجّه بالمثال الأمير مُغلباى ، وكتب إلى نَوْرُوز بالحضور إلى القُدس — بطّالاً — كما كتب له أولا ، وكتبَ إلى الأمير بَكْتَمُر جِلّق نائب طَرابُلس بأن يكونَ أميراً كبيراً بدمشق .

وأمّا جَكَمَ فإنّه لمّا استقرّ بِحَلَبَ مازالَ يكاتبُ نَوْرُوزا وعَلاّن [جِلّق][2]

(١) ضبط لفظ « جلق » فى الأجزاء المطبوعة من الكتاب بكسر الجيم وتشديد اللام مع كسرها ، وورد فى نسخة اسطنبول بضم الجيم .

(٢) الاضافة للتوضيح .

حتى قدما عليه ، فأكرمهما وصارا مِنْ جملة أصحابه ، ثمّ وَقَعَ له مع شيخ وغيره أمور نذكرها فى محلّها .

وفى يوم الإثنين أول شعبان ، استدعى السّلطانُ الملكُ الناصرُ أبا الفضل العبّاس وَلَدَ الخليفةِ المتوكل على الله أبى عبد الله محمد ، وَبايعهُ بالخلافة بعد مَوْت أبيه المذكور ، ولَبسَ التّشريفَ ، ولُقّب بالمستعين بالله ، ونَزلَ إلى داره . وكانت وفاةُ المتوكل على الله فى سابع عشرين شهر رجب ، ثمّ كتَبَ السّلطانُ باستقرار الأمير طولو مِنْ علىّ باشاه فى نِيابة صفَد عِوضاً عن بَكْتَمُر الرُّكْنىّ ، المعروف بَكْتَمُر باطيا ، وَجهّزَ تشريفَ طُولُو على يد الأمير آقبَرْدِى رأس نوبة ، وكتب باستقرار الأمير دَمُرْداش المحمّدىّ فى نيابة حماة ، ثم وَردَ الخبرُ بوصول الأمير علاّن جلّق إلى دِمشق مُفارقاً لجكَم نائب حَلَب . وماتَ سعدُ الدين إبراهيم بن غراب فى يوم الخميس تاسع عشر شهر رمضان ـ كما سيأتى ذِكْرُه فى الوفيات ـ ثم أمسكَ السلطانُ الأميرَ إينال الأشقر وأرسلهُ إلى سجن الإسكندرية لأمرٍ بَلَغه عنه ، ثمّ فى أواخر شهر رمضان قُبضَ على الأمير سودُون المَارْدَانىّ مِنْ بيتٍ بالقاهرة ، فقيّد وحُملَ إلى سِجن الإسكندرية ، ثمّ كتبَ السلطانُ أماناً لكلٍّ من جُمَق ، وأسَنْبَاى ، وأرْغز ، وسودُون اليُوسُفىّ ، وبَرْسبَاى الدُّقْمَاقىّ ، أعنى الملكَ الأشرف ، وجهّزه إليهم بالشام ، ثمّ قبضَ السلطانُ على الوزير فخر الدين ماجد بن غُراب فى سابع ذى القعدة ، وسلّمه إلى جمال الدين يوسف البيرىّ الأستادار ، ثم كتبَ السلطانُ إلى الأمير نَوْرُوز الحافِظىّ ـ وهو عند جَكَم بحلَب ـ أنه قد قُدّمت مُكاتبةُ السلطان له أنّه يتوجّه إلى القُدْس بطّالا ، وأنه أيضاً ساعةَ وصولِ هذا المرْسُوم إليه يحْضُر إلى الدّيار المصريّة ، فلم يلْتفت جكَم إلى مرْسوم السلطان ، ونهَرَ القاصدَ ، وخشّن له فى الكلام .

ثمّ فى سابع من ذى الحجّة ، خَلعَ السلطانُ على القاضى فتح الدين فتح الله بإعادته إلى وظيفة كتابة السّر ، بعد عزل فخر الدين بن المزوّق عنها ، ثم أفرجَ السّلطانُ عنْ فخر الدين بن غُراب ، وخلعَ عليه ، واستقرّ وزيراً ومُشيراً وناظِرَ الخاص ـ على عادته أوّلا ـ بعد أن حمل عشرين ألف دينار .

وكان فى هذه السّنة ـ أعنى سنة ثمان [وثمانمائة](١) ـ الطاعون العظيم بصعيد مصر، حتى شمل الخرابُ غالبَ بلاد الصعيد، ثمّ بلغَ السّلطان أنّ جكم مِنْ عوَض نائب حلَب قد عظُم أمرُه، وأنه قد بدَا منه أمورٌ تدلّ على المخالفة، فكتبَ السّلطانُ بعزله عن نيابة حلَب وطرَابلس، وولاية الأمير دَمُرْدَاش نيابة حلَب عوضَه، وتولية الأمير علاّن اليحياوىّ [جِلّق](٢)، نيابةَ طرَابلس عوضه، وتولية الأمير عمر اهيْدُبانىّ نيابة حمَاة، وتوجّه بتقاليدهم ألطُنْبُغا شقَل مملوكُ الامير شيخ المحمودىّ نائب الشام، ولم يُرسل السلطانُ إليهم أحداً من أُمراء مصر لضعف حالهم وعدم موْجودِهم، وقبْل أن يَصل إليهم الخبرُ بذلك اقتتلَ الأميرُ شيخٌ مع الأمير جكَم بأرض الرَّسـتَن(٣) ـ فيما بين حمَاة وحمص ـ فى خامس من ذى الحجة قتالاً عظيما، قُتل فيه الأميرُ علاّن اليحياوىّ جلّق، والأمير طولُو مِنْ علىّ باشاه نائب صفَد، وجماعةٌ كبيرة فى الواقعة، وأما علاّن وطولُو فإنه قُبض عليهما فقدّما بين يدى الأمير جكَم، فأمرَ بضرب رقابهما، فضربت أعناقُهما بين يديه، وضُرب عنقُ طواشى كان فى خِدمة الأمير شيْخ معهما.

قلتُ: وهذا ثالثُ أميرقتَله الأمير جكَم مِنْ أعيان الملوك مِن خُشْدَاشيّته فى هذه السنة ـ أعنى: دُقْمَاق المحمّدىّ نائبَ حَلَب، وعلاّن هذا نائب حلَب أيضاً، وطولو نائب صَفَد ـ انتهى. وانهزم الأميرُ شيخ المحمودىّ نائبُ الشام ومعه الأميرُ دَمرْداش نائب حلَبَ إلى دمشق، فلم يقدِر شيخٌ على الإقامة بدمشق خوفاً من نَوْرُوز الحافظىّ، وخَرجَ مِنْ دِمَشْق ومضَى إلى الرّمْلة(٤) يُريدُ القُدُوم إلى القاهرة، ودخل نورُوزُ إلى دمشق، وملكَ المدينة من جهة جَكَم بعساكِره فى يوم الإثنين سابع عشرين

(١) إضافة لازمة.
(٢) الاضافة للتوضيح.
(٣) الرستن: هى قرية قرب حمص على بعد ٢١ ك. م. جنوبها، وتقع على نهر العاصى، وهى ريتوزا القديمة، قاعدة أمراء العرب فى القرن الأول الهجرى (المنجد ـ أعلام الشرق والغرب ٢١٦).
(٤) الرملة: هى مدينة إسلامية بفلسطين، بناها سليمان بن عبد الملك فى خلافة أبيه (ج ٨: ٣٦ من هذا الكتاب ط دار الكتب).

ذى الحجة المذكورة ، ثمّ دخل جكم دمشق بعده فى يوم الخميس سلخ ذى الحجة ، ونادى جكم فى دمشق بالأمان ، وأنه لا يشوّش أحدٌ على أحد ، وكان جكم قد شنق رجلاً من عسكره بحلب ؛ كونه رعى فرسه زرعاً ، وشنق آخر على شىء وقع منه فى حقّ بعض الرعيّة ، ثم لما قدم دمشق شنق بها أيضاً جندياً بعد المناداة على شىء من ذلك ، فخافته عساكره وانكفّوا عن مظالم الناس ، وعن شرب الخمر ، حتى لهجت النّاس بقولهم : جكم حكم وما ظلم ، وعظم أمر جكم بالبلاد الشامية إلى الغاية .

ولما بلغ خبرُ هذه الواقعة المصريين خارت قُواهم وتخوّفوا من جكم ، وخرج البريدُ من يومه يطلبُ الأمير تغرى بردى ـ أعنى الوالد ـ من بريّة القدس ، فحضر إلى القاهرة ، وجلس رأس الميْسرة ، بعد أن بنى السلطانُ على ابنته ـ كريمة[١] مؤلف هذا الكتاب[٢] ـ ثم جهز السلطانُ تشريفاً للأمير شيخ فى حادى عشر المحرم من سنة تسع وثمانمائة بنيابة الشام على عادته ، وأمدّه بمالٍ وسلاحٍ ، وقبلَ خروج القاصد إليه قدمَ الخبرُ بوصول شيخ المذكور إلى مدينة بلْبيس ، فخرجَ إليه المطبخُ السّلطانىّ وتلقّته الأمراء .

ثم قبضَ السلطانُ على الأمير كُزُل العجَمىّ حاجب الحجاب ـ وكان أمير حاجّ المحمل ـ لما فعلهُ مع الحُجّاج فى هذه السّنة ؛ فإنه أخذ من الحاج على كلّ جمل ديناراً وباعهم الماء الذى يردونه ، فصادره السلطانُ وأخذ منه نحو المائتى ألف درهم ، ففر فى سلخه ، فأُخذ له حاصل كبير[٣] أيضاً .

وأما جكم ، فإنّه أقام بدمشق مُدةً وقرّر أمورَها ، وجعلَ على نيابتها الأمير نوروزا الحافظى ، وكانَ الأميرُ سودُون تلى المحمّدى الأمير آخور ـ كان ـ فى سجن الأمير شيخ ، ففرّ منه ولحقَ بالأمير نوْروز الحافظىّ ، ثم وردَ الخبَرُ مِنْ قُضاة حَماة أنه سُمع طائرٌ يقول :

(١) هى خوند فاطمة ابنة الأمير تغرى بردى بن بشبغا ، وأخت أبى المحاسن يوسف .

(٢) زادت نسخة باريس بعد هذا اللفظ « عامله الله تعالى بحق لطفه » .

(٣) فى نسخة باريس « حواصل كثيرة » .

« اللهمّ انصر جَكَم » وهذا مِنْ غريب الاتّفاق ، هذا والناس فى جهد وبلاء من غُلوّ الأسعار بالديار المصرية ، لا سيّما لحم الضأن والبقر وغيره ، فإنه عَزّ وجودُه البتة ، ثم خرج الأمير الكبير يَشْبُك الشَّعْبَانىّ وغالب الأمراء إلى ملاقاة شيخ ، ودَمُرْدَاش ، ومعهما خير بك نائب غزّة ، وألطُنْبُغَا العثمانى حاجب حجّاب دمشق ، ويونس الحافظىّ نائب حماة ـ كان ـ وسودُون الظريف نائب الكرك ـ كانَ ـ وتنكزُبغا الحَطِطِىّ فى آخرين ، وطلع الجميع إلى القلعة ، وقبّلوا الأرضَ بين يدى السلطان ، فأكرمهم السلطان غايةَ الإكرام ، ثم نزلوا إلى القاهرة ، وعقيب ذلك وردَ الخبر بأخذ عسكر جَكَم مدينة صفد ، والكَرَك ، والصُّبَيْبَة وغيرها .

ثمّ فى سادس صفر من سنة تسع وثمانمائة المذكورة ، خلعَ السّلطانُ على الأمير شيخ المحمودىّ بنيابة الشام على عادته ، وعلى الأمير دَمُرْدَاش بنيابة حلب على عادته ، وأخذ السّلطانُ فى تجهيزِ أمْرِ السَّفر إلى البلاد الشّامية .

ثم فى حادى عشرين صفر من سنةِ تسع المذكورة ، حمَل السلطانُ الملكُ الناصرُ أخاهُ الملكَ المنصورَ عبد العزيز ، وأخاه إبراهيم ـ ابنى الملكِ الظاهر برْقوق ـ إلى سجن الإسكندرية صُحبة الأمير قُطْلُوبُغا الكركىّ ، والأمير إينال حطب العلائىّ ، ورسم لهما أن يُقيما باسكندريّة عندهما ، وقدْ تقدّم ذكر ذلك فى أواخر ترجمة الملك المنْصُور عبد العزيز .

ثمّ أنْعمَ السّلطانُ على الأمير شيخ بأشياء كثيرة ، فتجهّز شيخُ المذكور وخرجَ من الديار المصرية فى يوم الإثنين أول شهر ربيع الأول ، وخلَع السلطانُ على الأمير دَمُرْدَاش المحمّدىّ نائب حَلَب أيضاً خِلْعَة السَّفر ، وخرَجَ صُحبة الأمير شَيْخ ، وتوجّها بجماعتهما ونزلا بالرَّيْدانيّة(١) ثم لحقَ بهما الأميرُ سودُون الحمزاوىّ الدوادار الكبير ،

(١) كانت الريدانية تطلق على بستان كبير أنشأه ريدان الصقلى أحد خدام العزيز بالله الفاطمى المختصين به ، وعلى ما جاوره من الأراضى الرملية . ومكانها اليوم من العباسية حتى مصر الجديدة (ج ١٢ : ٢ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

والأمير سُودُون الطيّار أميرُ سلاح بطلْبهما[١] ومماليكهما وهؤلاء كالجاليش[٢] . وأقام الجميعُ بالرّيدانية إلى أنْ رَحَلُوا منها ، وبعد رحيلهم نزل السّلطانُ بعساكره وأمرائه منْ قلعة الجبل ، ونزل بخيَّمه من الرّيْدَانيّة خارج القاهرة ، فى ثامن شهر ربيع الأول المذكور من سنة تسع وثمانمائة ، وهذه تجريدةُ الملك النّاصر الثالثة إلى البلاد الشّامية ، فإنَّ الأولى كانتْ من سَنة اثنتين لِقتَالِ تَنَم ، والثانية فى سَنة ثلاث لقتال تَمُرْ لَنْك ، وهذهِ الثالثة .

وأقام السلطانُ بالرّيدانيّة إلى يوم ثانى عشر شهر ربيع الأول ، فرحلَ منها بعساكره إلى جهة الشّام ، بعد أن خلَع على الأمير يَمْرَاز الناصرىّ نائب السلطنة الشّريفة بالديار المصرية باستقراره أيضاً فى نيابة الغَيْبَة[٣] بالقاهرة ، وأنْزَلَ السلطانُ بقلعة الجبلِ جماعةً أُخرى مِنَ الأمراء ممن يَثِقُ بهم ، وكذلك بالقاهرة .

قالَ المقْريزىّ ـ رحمه الله : ولم يُحْمَدْ رَحِيلُ السّلطان الملكِ النّاصر مِن الرّيدانيةَّ فى يوم الجمعة ، فقد نُقل عن الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ أنه قال : ما سافر أحدٌ يوم الجمعة إلاّ رأى ما يكره . وسار السلطان بعساكره حتى دخل دِمشق فى يوم الإثنين سابع شهر ربيع الآخر من السنة بتَجَمُّل عظيم ، ونزل بدار السّعادة[٤] بعد أن زُيّنتْ له دمشق ، فأقام بدمشق إلى يوم سابع عشرِهِ ، فَرحل مِنْ دمشق بعساكره يُريد حلب ، وسار حتى دخل حَلَب فى يوم سادس عِشْرينهِ ، وقدْ فرَّ منها جَكَم وعدَّى الفُرَات خوفاً مِنَ الملكِ النّاصر فَرَج ، ومعه الأمير نوْرُوز الحافظىّ وتَمُرْبُغَا المشْطُوب ، فى جماعة أُخر ، فنزل السلطان

---

(١) الطلب : هو الفرقة من المماليك والعسكر الخاصةبكل أمير ، أو هو الحرس الخاص بالأمير (ج ١٢ : ١٨٦ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) يراد بالجاليش مقدمة الجيش ، ويطلق الجاليش أيضاً على علم من الأعلام التى كانت تحملها جيوش سلاطين المماليك فى الحرب ، وكان من الحرير الأبيض المطرز بشارات السلطان وتعلق فى أعلاه خصلة من الشعر (ج ١٢ : ٢٦ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) نائب الغيبة : هو نائب السلطان وقت غيبته عن القاهرة ، وله حرية التصرف فى الحكم ، وترتيبه بعد النائب الكافل (القلقشندى — صبح الأعشى ٤ : ١٧) .

(٤) دار السعادة : هى دار الحكومة (ج ٩ : ٢٨ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

بالقلمة من حَلب ، وبَعث بجماعةٍ فى طلب جَكَم ورُفقته ، فتوجّهوا فى أثَره ، ثمّ عادوا بعد أيام بغير طائل ؛ وخَرج السّلطان من حلب عائداً إلى الدّيار المصريّة يُريد الشّام فى أوّل جمادى الآخرة ، بعد ما ولّى الأميرَ جَرْكَس القاسمىّ المصارع الأمير آخور الكبير نيابةَ حَلَب عِوَضاً عن جَكَم مِنْ عَوَض ، وولّى الأمير سودُون بُقْجَة نيابة طَرابُلس . وجدّ السلطانُ فى سيره بعد خروجه منْ حَلب حتى قَدِمَ دمشق فى خامس جُمادى الآخرة ، وبعد خُروج السلطان مِنْ حَلَب بيوم ثارت طائفةٌ من المماليك ومعهم عامّة حلَب على جَرْكَس المُصَارِع ، ثمّ قَدِم الأميرُ نوْرُوز الحافظىّ إلى نحو حلب ، ففرّ منها جَرْكَس المصارع يُريدُ دمشق ونوْرُوز فى أثره ، فعثر نورُوزٌ بخام⁽¹⁾ الملكِ النّاصر ـ وكان تخلّف عن السّلطان لسرعة سَيرِ السّلطان ـ فقطعهُ نوروز ووقع النهب فيه ، ولحق الأمير جَرْكسُ السلطانَ ودَخل معه دمشق ، فنزل السّلطان فى دار السعادة ، ونادى بالإقامة فى دِمشق شهرين ، وكان الأتابَك يَشْبُك الشّعبانىّ قدم دمشق ، وهو مُتمرّضٌ فى أمْيه ، ومعه الأميرُ دَمُرْداش المحمّدىّ ، وبَشْبَاى رأس نوبة النّوب ، ووَرَد الخبر على السّلطان بنزول نَوْروز على حَمَاة ، وبقُدُوم جَكَم إلى حَلَب .

فلمّا بلغ السُّلطان ذلك خَرَج منْ دمشق فى يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة ، بعد ما أمرَ العسكر أنّ منْ كان فرسه عاجزاً فليتوجّه إلى القاهرة ، وألاّ يَتْبَع السلطان إلاّ من كان قويًّا ، فتسَارَعَ أكثر العسكر إلى العوْدِ لجهة الديار المصريّة ، ولم يتبع السّلطانَ منْ عسكره إلا القليل ، وسارَ الملكُ النّاصرُ حتى وصل إلى منْزلة قارَا⁽²⁾ ، ثمّ عادَ مُجدًّا فدخل دمشق وقدْ تمزّق عسكره ، وتأخّر جماعةٌ كبيرةٌ من الأمراء مع شيْخ نائب الشّام ، ثم قَدِمُوا دِمشْق ، ثم خرج الأميرُ شيْخٌ فى ثالث عشرينه من دِمشْق ومعه دَمُرْداش المحمّدىّ ،

(١) هو خيام السلطان وأمتعته (المقريزى – السلوك ٢ : ٦٨) .

(٢) قارا : هى قرية فى منتصف الطريق بين دمشق وحمص ، وعلى مرحلة ونصف منها (ج ٩ : ١٥٨ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

وألْطُنْبُغَا العثمانيّ فى عدّة من الأُمَرَاء إلى جهة صَفَد ، وسار السّلطان ويَشْبُك ، ومعهما جميعُ الأمراء إلى جهة مصر ، فدَخل السلطانُ إلى القُدْس ، وقد تخلّف عنه الأميرُ سودُون الحمزاويُّ الدّوادار الكبير بدِمشْق ، ومعه عِدّةٌ من الأُمَرَاء مُغَاضِبين للسّلطان لأمرٍ اقتضى ذلك ، ثمّ خرج الحمزاويُّ من دمشْق يريد صَفَد ، وأخذ كثيراً من الأثقال السّلطانيّة واستولى على صَفَد .

وأما نَوْرُوز فإنه جهَّزَ عسكراً عليهم الأمير سُودُون تِلّي المحمّديّ ، وأُزْبك الدّوَادار[1] فى آخرين ، فساروا إلى جهة الرَّمْلة ، ثمّ قَدِم على الأمير نَوْرُوز الحافظيّ الأميرُ إينال بأي بن قَجْمَاس والأمير يَشْبُك بن أَزْدَمُر ، وكانا مُخْتفِيَيْن بالقاهرة من يوم خروج الملك النّاصر فَرَج وعَوْدِه إلى مُلكه ، واختفيا حتى خرجا صُحْبة السلطان إلى البلاد الشّامية ، فلما عاد السّلطان إلى نحو الدّيار المصريّة توجّهاً إلى نَوْرُوز بدمشق ، وتوجّه معهما الأمير سودُون المحمّديّ لِصَعْفٍ أصابه ، فأكرمهما الأميرُ نَوْرُوز غايةَ الإكرام ، وأنعم عليهما بأشياء كثيرة ، وكتب للأميرِ جَكَم بقُدومِهما .

وأمَّا السّلْطانُ الملكُ النّاصر ، فإنه سَار من القُدس حتى دخل إلى القاهرة فى حادى عشر شهر رجب بِغَير طائل ، وقدْ تَلِف له ولعساكرِه مالٌ كبير ، وزُيِّنت القاهرةُ لِقُدُومِه ، وخَرجَ أعيانُ المصريّين لِتلقّيه ، ثمّ بَعْد قدُومِه بسبعة أيام وَصلَ دَمُرْداش نائب حَلَب ، وسُودُون مِنْ زَادة نائب غَزَّة إلى القاهرة ، واستمرّ سُودُون الحمزاويُّ وشيخٌ نائب الشّام بصفد ، وأخذ [سُودُون][2] الحمزاويّ يسعى فى الصّلح بَيْنَ شيخٍ ونَوْرُوز ، ولا زالَ فى ذلك حتى أجابَ نَوْرُوز ، وكتبَ فى هذا المعنى إلى جَكَمَ ، فبينما هُم فى ذلك خرجَ سُودُون الحمزاويُّ يوماً من صَفَد ليسير ، فقام شيخٌ وركِبَ واستوْلى على قلْعة صَفَد ، وأخذ جميعَ ما للحمزاويّ ، وبلغَ ذلك الحمزاويَّ

(١) مات أزبك هذا سنة ٨٣٣ هـ . بالطاعون بمدينة القدس بعد أن فنى جميع أولاده وخدمه (السخاوى – الضوء اللامع ٢ : ٢٧٣) .
(٢) الإضافة للتوضيح .

فهرَب ونجَا بنفسه فى قليل من أصحابه، وتوجَّه إلى دمشق فرَحَّبَ به نورُوز، غيرَ أنَّ نورُوزا كانَ مشغولاً بعمارة قلعة دمشق، فلم يَنهض بالخرُوج معهُ لقتال شَيْخ.

وأمّا الملكُ النّاصرُ، فإنّه فى يوم الجمعة رابع شعبان، مَسَكَ الوزير فخرالدين ماجد بن غُراب وسلّمه لجمال الدين الأستادار، ليصادرَه ويُعاقِبَه، واستقرّ جمال الدين فى وظيفتى الوزير وناظر الخاص مُضَافاً إلى الأستادارية، وهذا أوّل ابتداء تحكّم جمال الدين فى الناس، ثم قُبض على الأمير خيرْبَك نائب غزّة، وقُدِم به إلى القاهرة مُقيّداً، ثمّ عيّن السلطانُ جماعةً منَ الأمراء للتجريدة بالبلاد الشّامية ومقدّمهم الأمير تمراز النّاصرىّ النائب، وآقبَاى، وغيرُهما، وخرجوا من القاهرة فى عاشر شهر رمضان، فوردَ الخبر بأن عسكراً منَ الشام أخذَ غزّة، وأن يَشْبُك بن أزْدَمُر أخذَ قَطْيَا(١)، وأخربها وعاد إلى غزّة، فأقام تمرّاز بمن معه على مدينة بُلبيس أياما، ثم عادَ هو وآقباى بمن معهما إلى القاهرة فى سابع شوّال.

ثمّ قدِم الخبرُ على الملك الناصر بأن الأمير جَكَمَ منْ عَوَض نائب حلب تسلطَن بقلعة حلب فى يوم حادى عشر شوال من سنة تسع وثمانمائة المذكورة، وتلقّبَ بالملك العادل أبى الفتح عبد الله جَكَمَ، وخُطب باسمه منَ الفُرات إلى غزّة ــ ماعدا صَفَد ــ فإن بها الأمير شيخا المحمودىّ، وقد استولى عليها من سُودُون الحمزاوىّ حسبما تقدّم ذكره، وأنه لم يخطب باسم جَكَمَ، وأنه مستمرّ على طاعة السّلطان، وأن الأمير نوروزاً نائب الشّام باسَ الأرض لجكَمَ، وخَلع على بَكْتَمُر جِلّق بنيابة صَفَد بأمر الملك العادل جَكَمَ، ثمّ قدم بعد ذلك عدّةُ كتب من أمراء الشّام على السّلطان يرغّبون السّلطانَ فى الخروج إلى البلاد الشّامية، ثم قدمت عدّة كتب من جَكَمَ إلى عُربان مصر وفلاّحيها بمنعهم منْ دفع الخراج إلى السلطان وأمرائه وأجناده، وتحذيرهم منْ ذلك حتى يَقْدُم جَكَمَ إلى مصر، ثم وردَ الخبرُ من البلاد الشّامية أنه فى ثامن عشر شوال وصل إلى دمشق

(١) قطيا: هى قرية فى وسط الرمل قرب الفرما فى الطريق بين مصر والشام (ج ١٢ : ٦١ من هذا الكتاب ط دار الكتب).

قاصدُ الملك العادل جَكَم ، وعلى يده مرسومُ جَكَمَ بأنّ الأمير سودون الحمزاوى يكونُ دَوادَاراً بالدّيار المصرية على عادته ، وأن الأمير إينالَ باى بن قَجْماس يكونُ أمير آخور كبيراً على عادته ، وأن الأمير يَشْبُك بن أَزْدَمُر يكون رأس نوبة النّوب على عادته ، وأن الأمير نَوْرُوزا مُستمرّ على نيابة دمشق ، وجيء له بالخِلْعَة فلبسها نَوْرُوز ، وقبّلَ الأرض ، ودقت البشائر لذلك — بدمشق — أياماً ، وزُيّنت المدينة .

فلما بَلغ السّلطان ذلك أراد الخروجَ إلى البلاد الشّامية فكلمه أمراؤه فى تأخير السفر حتى يخفّ الطاعون من الدّيار المصريّة ، فإنه كان فشا بها وكثر ، فلم يلتفت السلطانُ لذلك ، وشرع فى أوّل ذى الحجة فى الاهتمام إلى سفر الشّام هو وعساكرُه ، ثم فى خامس عشرين ذى الحجة المذكورة علّق السّلطان جاليش[1] السفر ، وصُرفت النّفقةُ للمماليك السّلطانية فى تاسع عشرين ، لكل مملوكٍ ثلاثون مثقالا وألف درْهم فُلوساً ، فتجمّع المماليك تحت الطّبلْخاناة السلطانيّة وامتنعُوا من أخذها ، فكلّمهم بعض الأمراء على لسان السّلطان فى ذلك ، فرَضوا ، وبينما السلطانُ فى ذلكَ وردَ عليه الخبر بقتل الأمير جكم بآمد[2] ، منْ ديار بكر بن وائل ، فى سابع عشر ذى القعدة من سنة تسع وثمانمائة المذكورة .

وسبب قتلة جَكم المذكور أنه لما تسلْطَن بمدينة حَلَب ، ووافقه وأطاعه غالبُ نوّاب البلاد الشّاميّة ، وعظُمَ أمرُه ، وكَثُرت عساكرُه ، وخافه كُلُّ أحد حتى أهل مصْرَ ، وتهيّأ الملك النّاصرُ إلى الخروج من مصر لقتاله ، ابتدأ جَكَمَ بالبلاد الشّاميّة ، واستعد لأخذها ، على أن الدّيار المصريّة صارت فى قبضته ، وأعرض عنها حتى ينتهى من بلاد الشّرق ، وجعل تلكَ الناحية هى الأهم ، وخرج من مدينة حَلَب بعساكره إلى نحو الأمير عثمان بن طُرْعَلَيّ المعروف بِقَرَايُلُك ، صاحب آمِد ، وغيرها

(١) يراد بالجاليش هنا العلم الخاص المصنوع من الحرير الأبيض المزركش وتعلق بأعلاه خصلة من الشعر .

(٢) آمد : وتقع غربي دجلة ، ويدور النهر حولها كالهلال ، ويطل عليها جبل عال ، وسورها من الحجارة السود (لسترنج — بلدان الخلافة الشرقية ١٤٠ — ١٤٢ ط بغداد) .

من دِيار بكر، وكانَ قَرايُلُكُ المذكور يومئذٍ نازلاً بآمِد، فسار جَكَمُ حتّى نزل على البِيرَة، وحصَرها وأخذهَا، وقتلَ نائبها الأمير كُزُل، فأتته بها رسل قَرايُلُكُ يرغب إليه فى الطّاعة، ويَسأله الرجوعَ عنه إلى حَلَب، وأنه يحمل إليه منَ الجمال والأغنام عِدّةً كبيرة، ويخطب له بديار بَكْر، فلم يقبل جكَمُ ذلك، وسار حتى نزلَ قرب ماردِين(١)، فأقامَ هناك أياماً حتى قَدِم عليه الملك الظّاهر مجد الدين عيسى الأُرتقىّ صاحب مَارْدين، ومعه حاجبه فيّاض بعساكره، فاستصْحَبه جَكَمُ معه إلى نحو مدينة آمد، وقد تهيأ قَرايُلُكُ لقتال جَكَم المذكور، فعبّأ جَكَم عساكره، ومَشَى على آمِد، فالتقاهُ قَرايُلُكُ بظاهرها، وتقاتلا قِتالا شديداً قاتل فيه جَكَم بنفسه، وقتلَ بيده إبراهيم بن قَرَايُلُك، ثمّ حملَ على قَرَايُلُك بنفسه، فانهزم قَرَايُلُكُ بمن معه إلى مدينة آمد وامتنعوا بها، وغلقّوا أبوابها، فاقتحم جَكَمَ فى طائفة مِنْ عسكره القرايلُكيّة، وساقَ خلفهم حتى صارَ فى وسط بَساتين آمِد، وكان قَرَايُلُكُ قد أرسل المياه على أراضى آمِد حتى صارت رَبْواً، يَدْخل فيها الفارسُ بفرسه فلا يقدرُ على الخلاص، فلما وصلَ جَكَمُ إلى ذلك الموضع المذكور أخذه الرّجْمُ هو ومَنْ معه منْ كلّ جهة، وقد انحصروا مِنَ الماء الذى فاض على الأرض، وجعلها رَبْواً، فصاروا لا يمكنهم فيه الكرّ والفرّ، فصوّبَ عند ذلك بعضُ التّرَاكمين منَ القرَايلُكيّة على جَكَم، وهو لا يعرفه، ورماهُ بحجر فى مقلاع أصابَ جبهته وشجّه، وسال الدّم على ذَقنه ووجهه، وجَكَم يتجلّدُ ويمسح الدّم عنْ وجهه، فلم يَتمالك نفسه وسقط عنْ فرسه مغشياً عليه، وتكاثر التّركمانُ على رفقته نهزموهم بعد أن قتلوا منهم عدّة كبيرة، فنزلَ بعضُ التّراكمين وقطع رأسَ جَكَم، وجال العسكرُ واضطربَ أمر جيش جَكَم ساعة، ثم انكسروا لفقد جَكَم، وقد عاينتُ أنا موضع قتل جَكَم بظاهر مدينة آمِد لما نزل السّلطان

---

(١) ماردين : هى قلعة على جبل بالجزيرة الفراتيةمشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين ، ولا تزال قائمة فى الشرق منالرها (ج ١٢ : ٣٠ ، ٣١ من هذا الكتاب ط دار الكتب) وتقع حالياً فى تركيا ، وهىمحطة حديدية على بعد ٤١١ ك . م من حلب (المنجد – أعلام الشرق والغرب ٤٧٠) .

الملكَ الأشرفُ بَرْسبِاى عليها فى سنة ستٍّ وثلاثين وثمانمائة ، عرّفنى ذلك الأمير السّيفىّ صَرْبُغاَ أمير آخور الوالد ، فإنه كان يومَ ذاكَ صحبةَ جَكَم فى الواقعة المذكورة - انتهى .

ثم أخذَ التّركمانُ فى الأسر والقتل والنّهب فى عساكر جَكَم وعساكر مارْدِين حتى إنه لم ينج منهم إلاّ القليل ، فلما ذهبَ القومَ نزل قَرَايُلُك وتطلّب جَكَم بينَ القتلى حتى ظفر به ، فقَطع[1] رأسه ، وبعث به إلى السلطان الملك النّاصر إلى الدّيار المصريّة ، وقُتِل فى هذه الواقعة مع الأمير جَكَم من الأعيان : الملك الظّاهر عيسى صاحبُ مارْدِين ، وكانَ منْ أجلِّ الملوك ، والأمير نَاصر الدين محمد بن شَهْرِىّ حاجبُ حجّاب حلَب ، والأمير قَمُول نائب عين[2] تاب ، وصارو سيّدى ، وفرّ الأميرُ تَمُرْبُغاَ المشطوب . وكَمَشْبُغاَ العيساوىّ ، حتى لحقا بحلَب فى عِدّة يسيرة من المماليك ، وكانت هذه الواقعةُ فى سابع عشر ذى القعدة من سنةِ تسعٍ وثمانمائة - انتهى أمرُ جَكَم وقتْلَتِه .

وأما أمرُ الأمير شيخ المحمودىّ نائب الشّام - كان - فإنه فى ذى القعدة أيضاً ركب من صَفدَ يريد الأمراء الذين مِنْ جهة نَوْرُوز وجَكَم . وقد وصلوا من دمشق إلى غَزّة ، وهم إينال باى بن قَجْماس ، وسُودُون الحمزاوىّ ، و يَشْبُك ابن أَزْدَمُر ، ويونس الحافظىّ نائبُ حماة - كانَ - وسُودُون قُرناص فى آخرين ، فسارَ شيخٌ بمن معه وطرقهم بغزّة على حين غَفلة فى يوم الخميس رابع ذى الحجة ، فركبوا وقاتلوه قتالاً شديداً ، قُتِلَ فيه إينال باى بن قَجْماس ، ويونس الحافظىّ ، وسودُون قُرْناص ، وقبضَ شيخ على سُودُون الحمزاوىّ ، بعد ما قُلعت عينه ، وهرب يَشْبُك بن أَزْدَمُر إلى دمشق ، وقبضَ شيخٌ على

(١) هنا اضطراب فى السياق حيث ذكر المؤلف قبل ذلك بسطور أن بعض التراكين نزل وقطع رأس جكم وليس قرايلك .

(٢) عين تاب : وترسم أيضاً عينتاب وهى بلدة كبيرة بها قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية (ج ١٢ : ١٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

عدّة مماليك منَ المماليك السّلطانيّة ، فوسّط منهم تسعة ، وغرّق أحدَ عشر ، وأفرجَ عنْ مماليك الأمراء ، ولم يتعرض لهم بسوء ، وبعث بطائفةٍ أخرى من المماليك السّلطانيّة إلى الملك النّاصر فرج ، ثم عاد شيخٌ إلى صَفَد .

ثمّ ورد الخبر بأن الأمير نَوْرُوزاً نائب الشام عاد إلى طاعة السّلطان بعد قتل جَكَم ، وأنّ تَمُرْبُغاَ المشطوبَ تغلّب على حَلَب ، وقاتلته التّراكمين حتى ملك قلعة حلب بعد أمور ، وأنه أخذ ما كان لجَكَم بحَلَب واستخدم مماليك جَكَمَ ، فعظُم أمْرُهُ لذلك ، فأمر السلطانُ بتجهيز أموره للسفر إلى البلاد الشّاميّة ، وتجهزت العساكر ، فلمّا كان يومُ الإثنين سادس المحرم من سنة عشرة وثمانمائة فرّقَ السلطانُ الجِمَالَ على المماليك السّلطانيّة ؛ برسْم السّفَرِ إلى الشّام صُحبة السّلطان .

ثمّ في يوم الجمعة عاشِر المحرم قَدِم إلى القَاهِرة حاجبُ الأمير نُعَيْر برأس الأمير جَكَم ، ورأس ابن شهْرى ، فخلع السلطانُ عليه ، وطيفَ بالرأسين على رُمْحَين ، ونودىَ عليهما بالقاهرة ، ثم عُلقاً على باب زُويلة ، ودُقّت البشائر ، وزُيّنَت القاهرة لذلك .

ثمّ في تاسع عشَر المحرم ، خرَجت مُدَوْرَة[1] السلطانِ إلى الرّيْدَانيّة خارج القاهرة ، ثمّ في يوم حادى عشرينه ، برَزَ الجاليشُ السّلطانى مِن الأمراء إلى الرّيْدَانيّة ، وهم الأتَابَك يَشْبُك ، والوالدُ ، وهو تَغْرِى بَرْدِى البَشْبُغَاوىّ ، والأميرُ بَيْغُوت في آخرين مِن الأمراء ، ورحلوا في خامس عشرينه من الرّيدَانيّة ، ونزلَ السّلطانُ مِنْ قَلْعة الجبل في يوم الإثنين ثامن عشْرينه إلى الرّيْدَانيّة ببقيّة أمرائه وعساكره . وهذه تجْرِيدَةُ الملك النّاصر الرابعةُ إلى البلاد الشّاميّة ، غير واقعة السّعيدية .

ثمّ رحل السلطانُ مِنَ الرّيْدَانيّة في يوم ثانى صفر مِنْ سنةِ عشَرة وثمانمائة ، يريدُ البلادَ الشّاميّة .

وأما البلاد الشّاميّة ــ فإنّ نَوْرُوزاً الحافظىّ خرج منْ دمشق في أوّل محرم مِنْ

(١) المدورة : هى الخيمة الكبيرة الخاصة بالسلطان (ج ١٢ : ٣١٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

هذه السنة لقتال شيخ ، فضعف شيخٌ عن مقاومته ، ولم يخرج من صفد ، وأرسل يستحثّ السلطانَ على سُرعة المجيء إلى البلاد الشّامية ، فعاد نَوْرُوز إلى دمشق بعد أن حاصر شيخاً أياماً ، وأرسل إلى السلطان يطلبُ أماناً ، وأنه يمتثل ما يرسمُ به السّلطان ، وأنه يوافقُ شيخاً ، ويرضَى بما يولّيه السلطانُ منَ البلاد .

ثمّ أرسل نَوْرُوز إلى شيخ بأنْ يكاتبَ السلطان بأن يكونَ نائبَ حلَب ويكون شيخٌ نائب الشام على عادته ، فلم يَلتفت شيخٌ إلى كلامه ، وانتهز الفرصة وقد قويَ أمرُه بعد ما كان خائفاً من نَوْرُوز ؛ لقدوم السّلطان الملك النّاصر إلى البلاد الشّامية ، وسارَ بمماليكه وحواشيه حتى نزل بالقرب مِنْ دمشق ، ففرَّ فى تلك الليلة مِنْ نَوْرُوز إلى شيخٍ جماعةٌ مِنَ الأمراء ، منهم : قِمشُ ، وجُقَق ، ثمّ تحوّلَ نَوْرُوز من المزّة(١) إلى قُبّة(٢) يَلْبُغَا ، فوصل إليه قاصدُ الأمير شيخ ، بأنّ السلطان أرسل إليه تشريفاً بنيابة دمشق ، وأنه طلب مِن السلْطان لنوْرُوز نيابة حَلَب ، فأبى السّلطانُ ذلك ، وأن عسكر السّلْطان وصل إلى مدينة غزّة ، فتحولَ عند ذلك نَوْرُوز إلى بَرْزة(٣) ، ودخلت مماليك الأمير شيخ إلى الشام مِنْ غير قتال .

وأمّا السّلطانُ الملك النّاصر فإنه لمّا رحل مِن الرّيدَانيّة بعد أنْ عمل الأميرَ تمرَاز نائب السّلْطَنة نائبَ غيْبته بديار مِصْر ، وأنزله بباب السّلسلة ، وأنزل الأميرَ آقبَاى بقلعة الجبل ، وسكّن سُودُونَ الطيّار أمير سِلاح بالرمَيْلة(٤) تجاه باب السّلسلة ، وسارَ السّلطان حتى وصل إلى غزّة فى ثانى عشر صفر ، فورد عليه الخبر بفرار نَوْرُوز ، فلم يَلتفت إلى ذلك ، وسار حتى دخَل إلى دمشق فى يوم ثانى عشرين صفر بعد

(١) المزة : هى قرية كبيرة غناء فى أعلى الغوطة فى سفح الجبل بدمشق (ج ١٢ : ٣٢٤ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) قبة يلبغا : بنى هذه القبة الأمير يلبغا اليحياوى عند مسجد القدم جنوبى دمشق سنة ٧٤٧ هـ (ج ١٢ : ١٥١ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) برزة : قرية بغوطة دمشق من شماليها (ياقوت . معجم البلدان ١ : ٥٦٣) .

(٤) الرميلة : من الميادين الكبيرة الواسعة تحت قلعة الجبل بالقاهرة ، وتعرف حالياً بالمنشية ، وبها ميدان صلاح الدين الأيوبى (ج ٩ : ١٧٩ ، ج ١٢ : ٥٣ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

ماخرجَ الأمير شيخ إلى لقائه ، وقبّل الأرض بين يديه ، وسار معه حتى دخل دمشق فى خدمته منْ جملة الأمراء ، ونزل السّلطان بدار السّعادة منْ دمشق ، وصلّى الجمعةَ بجامع بنى أمية ، ثم قبض على قضاةِ دمشقَ ووزيرها ، وكاتب سرها ، وأهانهم السّلطانُ وألزمهم بحمل مال كبير .

ثم فى يوم الأحد خامس عشرين صفر ، أمسك السّلطان الأمير شيخاً المحمودىّ نائب دِمشق ، والأمير الكبير يَشْبُك الشّعبانىّ الأتابكى ، واعتقلهما بقلعة دِمشق ، وكان الأمير جرْكس القاسمىّ المصارع الأمير آخور قد تأخر فى هذا اليوم عن الخدمة السلطانية بداره ، فلما بلغه الخبرُ فرّ منْ وقته ، فلم يُدْرَك ، وهرب جماعةٌ كبيرةٌ من الشّيخيَّة واليَشْبُكيّة .

ثمّ فى سادس عشرين صفر خلع السلطان على الأمير بَيْغُوت باستقراره فى نيابة دِمشق عوضاً عنْ شيخ المحمودِىّ ، بحكم حبسه بقلعة دِمشق ، وخلع على الأمير فارس دوادَار تَنَم باستقراره حاجب حُجّاب دمشقَ ، وخلع على الأمير عُمر الهَيْذبانىّ بنيابة حَمَاة ، وعلى صَدْرِ الدّين علىّ بن الأدَمىّ باستقرارِه قاضى قضاة الحنفيَّة بدمشْق ، ودامَ يَشْبُك وشيخٌ بقلعة دِمَشق إلى أن استَمالاَ نائبَ قلعتها الأميرَ مَنْطُوقاً ، حتى أفرج عنهما فى ليلة الإثنين ثالث شهر ربيع الأوّل مِنْ سنة عشرة وثمانمائة ، وهو أن مَنْطُوقاً تحيّل على مَنْ عنده مِنْ المماليك بأنّ السُّلْطَانَ رسَم له بأنْ يَنقُلَ الأميرين شيخا ويَشْبُكَ ، من حبسٍ إلى آخر فصدّقوه ، فأخرجهما على أنه ينقلهما ، وفرَّ بهما ، ونزَل مِنَ القلعة ، فلَمْ يَبْلغ السلطانَ الخبرُ حتى ذهبوا حَيْثُ شاءوا ، وأصْبَحَ السلْطانُ يوم الإثنين نَدَب الأميرَ بَيْغُوتَ لطلبهم ، فركب بَيْغُوتُ مِنْ وقته بمماليكه ، وسارَ فى طلبهم — غارَةً — وقد اختفى الأمير شيخ بدمشْق ولم يخرج منها ، وتوجّه يَشْبُك فلم يُدرك بَيْغوتُ سِوى مَنْطوق نائب قلعة دِمِشْق الذى أطلَقَهمَا ، لِثِقَل جُثّته ، فإنه كان فى غاية مِنَ السّمن ، ففرّ يَشْبُك ، وقاتل مَنْطُوق

بَيْنُوتَ ساعةً ثُمَّ انْهزَم ، وقَبَضَ عليه [بيغوت][1] وقطع رأسه ، وحَمَلها إلى الملك الناصر ، ورُفعت عَلى رُمح وطِيف بها دِمَشْق ، ثم عُلِّقت عَلى سُور دِمشْق ، ثمّ قَدِم الخبرُ باجتماع الأتابَك يَشْبُك وشيْخ وجرْكس ، وأنّهم فى دون الألف فارس ، وهم عَلى حِمْص ، وأنّهم اشتدّوا عَلى النّاس فى طلب المال ، فَكتَب السّلطانُ فى الحال للأمير نَوْرُوز الحافظيّ وهو بمدينة حَلَب ، عند تمُرْبغا المشطوب يستدعيه لمحاربة يَشْبُك وشيخ ، وأنه ولاّه نيابة الشّام وأمَرَهُ أن يحمل إليه جماعةً مِنَ الأمراء ، ويبعث السلطانُ إليه التّقليد والتّشريف مع الأمير سَلاَمُش ، ثم جهّزَ السلطانُ سَلاَمُشَ إلى نَوْرُوز ، وعَلى يَدِه خِلعته بنيابة دِمَشْق ، فلَبِس نَوْرُوز الخِلْعَة ، وقبّل الأرض وامتثل ما أمَرَه السّلطانُ به مِنْ قِتال الأمراء وغيْره ، وكتَبَ يعتذر مِنْ عدم الحضور بما عنده من الحياء مِنَ السّلطان ، والخوْفِ لِمَا وَقَع منه قَبْل تاريخه ، وأنّه إذا سَار السّلطانُ مِنْ دِمَشْق نحو الدّيار المصرية قَدِمها وكَفَاهُ أمْرَ هؤلاء .

ثُمّ أرْسَل نَوْرُوز بعد ذلك بأنّه قَبَض عَلى جَمَاعةٍ مِنَ الأمراء الذين فرُّوا مِن السلطان مِن دِمَشْق ، وهم : الأميرُ عَلاّن ، والأمير جانَم مِن حَسَن شَاه ، والأمير إينال الجلاَلِيّ المنقار ، والأميرُ جَقْمَق العلائى أخو جَرْكس المصارع : أعنى الملك الظاهر جَقْمَق ، والأمير أسنْبَاى التّركمانى ، أحَد أُمراء الألوف بدِمشْق ، والأمير آسنباى أمير آخور ، والأمير جُمَق ، نائب الكَرَك ـ كانَ ـ وبعثَ بهم الجميع ماخلا جَانَم ، ثم أرْسَل إلى الدّيار المصريّة بالقَبْضِ عَلى الأمير تِمرَاز النّاصرىّ نائب السّلْطَنَة بالدّيار المصريّة . ثمّ نائب الغَيْبَة ، فأذعن تِمْراز وسلّم نفسه ، فَمُسِكَ وقُيِّدَ وحُبِسَ بالبُرْج[2] مِنْ

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) البرج : هو سجن بقلعة الجبل ، وكان موجوداً حتى هدم فى الدولة التركية العلية (ج ١٠ : ٢٣ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

قلعة الجبل ، وسكن سودون الطيار عوضه بباب السلسلة من الإسطبل السلطانى .

ثم ركب السلطان الملك الناصر فى يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر من دار سعادة دمشق ، وتوجه إلى الربوة (١) فتنزه بها ثم عاد إلى دار السعادة ، ثم أصبح لعب الكرة بالميدان ، وقدم عليه الأمير بكتمر جلق بالأمراء الذين قبض عليهم الأمير نوروز ، وهم المقدم ذكرهم ، فرسم السلطان بحبسهم ، ثم فى اليوم المذكور خرج حريم السلطان من دمشق إلى جهة الديار المصرية .

ثم خرج السلطان من دمشق فى يوم السبت سابع شهر ربيع الآخر يريد الديار المصرية ومعه الأمراء المقبوض عليهم ، وفيهم : الأمير سودون الحمزاوى وقد أحضر من سجن صفد ، والأمير آقبردى رأس نوبة أحد أمراء الطبلخانات ، وسودون الشمسى أمير عشرة ، وسودون البجاسى أمير عشرة ، وسار السلطان إلى مصر ، وجعل بكتمر جلق نائب الغيبة بدمشق حتى يحضر إليها نائبها الأمير نوروز ، وكان بكتمر جلق المذكور قد خلع عليه السلطان باستقراره فى نيابة طرابلس قبل تاريخه ، وأصبح شيخ لما بلغه خروج السلطان من دمشق طرقها ومعه يشبك وجركس ، وأخذها من بكتمر ، وملكها بعد أن فر بكتمر منها ، وقبض شيخ على جماعة من أمراء دمشق ، وولى وعزل ، وأخذ خيول الناس ، وصادر جماعة .

ثم ورد الخبر على يشبك وشيخ بنزول بكتمر جلق على بعلبك بأناس قليلة فخرج إليه يشبك الشعبانى وجركس فى عسكر ، ومضى بكتمر جلق إلى حمص ، وسار يشبك وجركس حتى وصلا إلى بعلبك ، فوافاهما الأمير نوروز بعساكره

(١) الربوة : هى كهف فى فم وادى غوطة دمشق عنده تنقسم المياه (القلقشندى — صبح الأعشى ٤ : ٩٢) وهى أيضاً حى من ظواهر دمشق به مساجد ومدارس وأبنية عظيمة عمرها نور الدين الشهيد ، وبنى فيها قصراً للضيافة (كرد على — خطط الشام ٥ : ٢٩٥ ، ٦ : ٦٥) .

على كُرُوم بَعْلَبك ، فبرز إليه يَشْبُك وجَرْكَس بن معهما ، فقاتلهم نَوْرُوز حتى هزمهم ، وقتلَ الأتابَك يَشْبُك الشّعبانىّ ، وجركس القاسمى المصارع فى ليلة الجمعة ثالث عشر شهر ربيع المذكور ، وقتل جماعة أُخر ، وقبض نَوْرُوز على جماعة ، وفرّ من بَقِى ، فلما بلغ ذلك شيخاً خرج من وقته من دمشق على طريق جَرُود[1] ، ودخلَ الأمير نَوْرُوز فى يوم رابع عشْرِه إلى دمشق وملَكَها من غير قتال ، وبعثَ نَوْرُوز بهذا الخبر إلى السلطان ، فوافاهُ المُخْبِرُ بذلك على العَرِيش ، فسُرَّ السلطانُ بذلك سروراً كبيراً ، وهانَ عليه أمر شيخ بعد ذلك .

ثمّ سارَ السلطانُ الملك الناصر مُجِدًّا حتى دخل إلى الديار المصرية ضُحى نهار الثلاثاء ، رابع عشرين شهر ربيع الآخر ، وبين يديه ثمانيةَ عشرَ أميراً فى الحديد ، ورِمّة الأمير إينَال باى بن قَجْمَاس ، وقد حملها الملكُ الناصرُ من غزة لأنه كان خصِيصاً عند الملك الناصر ، وقتل بغزّة فى واقعة شيخ بغير اختيار السلطان ، وطلع السلطان إلى قلعة الجبل ، وحبس الأُمراء المذكورين بالبُرْج من قلعة الجبل إلى أن كان يوم سادس عشرينه ، فاستدعى السلطان القضاة إلى بين يديه ، وأثبت عندهم إراقة دم الأمير سُودُون الحَمزَاوِىّ لقتله إنساناً ظلماً ، فحكموا بقتله ، فقتل ، وقتل معه تَمُرْبُغَا دَوَادَاره ، والأمير آقْبَرْدى ، وجُمَق ، وأسنْبَاى التركمانى ، وأسنْبَاى أمير آخور ، وتأخر الأمير إينال المنقار ، وسُودُون الشّمسىّ ، وجَقْمَق العلائى ، وجماعة أخر ، وسُودُون البَجَاسى فى البرج من قلعة الجبل .

ثمّ فى يوم سابع عشرين شهر ربيع الآخر ، أنعمَ السلطانُ على الوالد بإقطاع الأتابَك يَشْبُك الشّعبانىّ ، وأنعم بإقطاع الوالد على الأمير قَرْدَم الخازندار ، وأنعمَ على الأمير قَرَاجا بإقطاع تمرَاز الناصرىّ المقبوض عليه فى غيبة السلطان بالقاهرة ، واستقرّ قَرَاجا المذكور شادّ الشّراب خاناة ، وأنعم بإقطاع قَرَاجا على الأمير أرْغُون من بَشْبُغَا ، وأنعم بإقطاع أرْغُون المذكور على الأمير شاهين قَصْقَا ، وأنعم بإقطاع شاهين على الأمير طُوغَان الحسَنِىّ .

(١) جرود : هى قرية من إقليم معلولا من أعمال دمشق (ياقوت – معجم البلدان ٢ : ١٣٠ ط بيروت)

ثم فى يوم الخميس ثالث جمادى الأولى خلع السلطان على الوالد باستقراره أتابك العساكر بالدّيار المصرية عوضاً عن يشْبُك الشّعبانىّ، وخلع على الأمير كَمُشْبُغَا المزوّق الفَيْسِىّ باستقراره أمير آخور كبيراً، عوضاً عن جَرْكَس القاسمىّ المُصارِع.

وفى اليوم المذكور قدم إلى القاهرة قاصدُ الأمير نَوْرُوز الحافظىّ برأس الأتابك يَشْبُك، ورأس جَرْكَس المصارع، ورأس الأمير فارس التَّنمِى حاجب حجّاب دمشق.

وفيه شاوَرَ جمالُ الدين الأستادار السّلطان أنه يُعمِّرُ للسلطان مدرسة بخُط رَحْبَة باب العيد [١]، فأذن له السلطان فى ذلك، فشقّ جمالُ الدين أساسها فى هذا اليوم، وبدأ بعمارتها.

ثم أرسل السلطانُ إينالَ المنقار، وعَلاّن، وبلُبُغَا الناصرىّ إلى سجن الإسكندرية.

ثم ركب الملك الناصر مُتَخَفِّفاً بثياب جلوسه ونزل إلى عيادة الأمير قَرَاجا، فعاده، ثم سار إلى بيت جمال الدين الأستادار وأخذ تقدمته، ثم ركبَ وسارَ حتى نزل بالمدرسة الظاهرية ببين القصرين، وزار أمه وجده لأبيه الأمير أنص، وجعل ناحية مُنْبابَة [٢] بالجيزة وقفاً عليها.

ثم ركب منها إلى دار الأمير يَشْبَاى — رأس نوبة النُّوب — ونزل عنده، ثم ركب من عنده، وتوجّه إلى بيت الأمير كُزُل العجمىّ حاجب الحجّاب، ثم سار من عنده إلى قلعة الجبل.

قال المقريزى: ولم نَعْهَدْ مَلِكاً من مُلُوك مصر رَكِبَ من القَلْعَة بقماش جُلوسه غيرَه، قُلْتُ: لعل المقريزى أراد بقُمَاش جُلُوسِهِ عدم لبْس السّلطان الكَلَفْتَاة، وقماش الخدمة، وهذا كان مقصوده — والله أعلم.

---

(١) رحبة باب العيد : خط ينسب إلى باب العيد ، وسمى بذلك لأن الخليفة الفاطمى كان يخرج منه فى العيدين إلى المصلى التى كانت بظاهر باب النصر (المقريزى – الخطط ٢ : ٤٣٥ ، وعلى مبارك – الخطط ٢ : ١٥)

(٢) وهى أمبوبة وقد أضيفت إلى ناحيتى وراق الحضر وميت النصارى ، وأصبح يتكون من هذه القرى الثلاث قرية واحدة مشتركة الزمام والإدارة باسم « وراق الحضر وأمبوبة وميت النصارى » بمركز إمبابة محافظة الجيزة (ج ٦ : ٣٨٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

ثم فى تاسع عشر جمادى الأولى المذكور ، خلع السلطانُ على الأمير طوخ الخازندار باستقْرَارِهِ أمير مجلس عِوضاً عن يَلْبُغَا النّاصرى بحكم القبض عليه ، والعامة تُسَمّى طُوخ هذا طُوق الخازندار ، والصواب ما قلناه . وخلع على الأمير قَرْدَم باستقراره خازنداراً عوضاً عن طُوخ المذكور .

ثم فى سادس عشر جمادى الآخرة قبض السّلطانُ على الأمير سُودُون من زَادَة ، وقيّده وحمله إلى الإسكندريّة ، فَسُجِنَ بها مع من بها من الأمراء .

وأمّا الأميرُ نَوْرُوز الحافِظىّ فإنّه منذُ دَخَلَ دِمَشْق كانت مُكاتبَاتُ الأمير شَيْخ تَرِدُ عليه بِطَلَبِ الصُّلح ، ويترَقّق شَيْخُ لنَوْروز ، ويتخضّع إليه إلى أنْ أجاب نَوْرُوز إلى ذلك، وخَرَجَ من دِمشق فى سادس عشرين شهر رَجب ، إلى جهة حَلَب ، ليُصالح الأمير شَيْخاً، فتقدّم الأميرُ شيخُ إليه والتقاهُ واصطَلَحا ، ومسك نَوْروز بكْتَمُر جِلّق ، بَعْدما كانَ أعزّ أصْحابِ نَوْرُوز ، مُرَاعاةً لخاطر شَيْخ .

وحكى لى مَن أثقُ به من أعْيانِ المماليك الظّاهريّة مِمّن كان فى صُحْبتِهم يَوْم ذاك قال : لمّا أرادَ شيخُ الصُّلح مع نَوْرُوز ، طلبَ منه القبْضَ على بكْتَمُر ، فبلغ بكْتَمُرُ ذلك ، فلم يُصَدِّق أنَّ نَوْرُزا يَقَع فى مثل هذا لِمَا كان بيْنَهُما من تأكُّد الصُّحبة ، فلمّا اجتمع شيخُ مع نَوْرُوز وأراد نَوْرُوز القبْضَ على بكْتَمُر ، قال بلسانِ الجرْكَسِىّ : وُبطْ[1] . قال بكْتَمُر : يا جِنْسَ النّحْس بلغنى ذلك من مدّةٍ ، ولكنّنى ما ظَنَنْتُ أنّها تخرُج من فَمِك فى حقّى أبَداً ، ومُسِكَ بكْتَمُرُ جِلّق ، وسُجِنَ بقلعةِ دِمَشْق ، ثمّ دَخَلَ الأميرُ شيخ ونَوْرُوز إلى دِمَشْق ، وقد استقرّت طَرَابُلُس للأمير شيخ ، ودِمَشْق للأمير نَوْرُوز ، فأقامَ شيخُ بدِمَشْق عشرةَ أيّام ، ثم خرجَ منها وسارَ إلى طَرَابُلُس ، وكثُرَت المصادراتُ بدِمشْق وغيرها فى أيام هذه الفِتَن ، وأُخْرِجت الأوقافُ عن أرْبابِها ، وَخَرِبَت

(١) كذا فى الأصول بضبطها ، ولعل المراد أنه نطق لفظة « اعبط » بلكنة جركسية فجاءت — نطقاً — على هذه الصورة « وبط » وعبطه فى لغة العامة ضمه بذراعيه إلى صدره (المنجد ٤٨٤) وعبطته الدواهى نالته وأحاطت به (لسان العرب ٩ : ٢٢٢) ويفهم من السياق أن هذه الكلمة أريد بها القبض على بكتمر جلق .

بلادٌ كثيرةٌ بمصرَ والشّام ، لكثرةِ التّجاريد ، وسُرْعةِ انتقال الأمَراء مِنْ إقطاعٍ إلى إقْطاع .

وَلَمّا بَلغَ الملك الناصِر ذلك ، وَما وقَع مِن نَوْرُوز فى حقّ شيخ مِن الإكرام شقّ عليه ذلك ، لأن شيخاً كانَ قد تلاشى أمْرُه ، ونفَر عنه مماليكه وأصْحَابُه ، مِنْ كثرة الأسفَار والانتقال من بلدٍ إلى بلد ، وافتقر وصَار لا يجدُ بلداً يأوى إليه ، حتّى صالحه نَوْرُوز ، وأعطاهُ طَرَابُلس ، فعاد إليه مماليكُه ، ودار فيه الرّمق ـ انتهى .

ثمّ فى حادى عشر شعبان أفْرَجَ السّلطانُ عن الأمير تِمْراز النّاصِرىّ نَائبِ السّلْطَنة ـ كانَ ـ مِنْ حَبْسِه بالبُرْج مِنْ قلعة الجبل ، ونَزَلَ إلى داره ، ثمّ وَرَد الخبرُ على الملكِ النّاصر بأن بكْتَمُر جِلّق فرّ مِنْ سِجْن قلعةِ دِمشْق فى لَيْلَةِ الأرْبعاء عاشر شَهر رَمَضَان من سنَةِ عشرٍ وثمانمائة ، وأنّه توجّه إلى صفَد ، ثمّ نَزَلَ غزّة .

ثمّ وَرَد على السّلْطَانِ كتابُ الأمير شَيْخ يسأل السلطانَ الملك الناصر الرِّضى عنه ، وعَنْ جماعَتِه ، فلم يَقْبَل السّلْطَانُ ذلك ، فلم تزل مكاتباتُ شَيْخٍ تَرِدُ على السّلطان فى ذلك حتّى رَضِىَ عنه . وَكتَبَ لهُ بِنيابةِ الشّام على عادته ، وحَمَل إليه التّقْليد الأميرُ أَلْطُنْبُغَا بشلاق صُحْبة مملوك شيخ أَلْطُنْبُغَا شقل ، وقاضى القضاة نجم الدين عمر بن حجّىّ ، وقاضى القضاة صدر الدين بن الأدمى ، وقد تولّى كلٌّ منهما قاضياً بدمشق على مَذْهَبه ، وكانا هُما وأَلْطُنْبُغا شَقَل قدِمُوا فى إصلاح أمْرِ شيخ مع أستاذه الملك النّاصر فرج .

ثمّ كَتَبَ السّلْطَانُ باستِقْرار بَكْتَمُر جلّق فى نيابة طَرَابُلس عَلَى عادته ، وكَتَبَ السّلْطَانُ أيْضاً باسْتِقْرَار يَشْبُك بن أَزْدَمُر فى نيابةِ حَماة ، ووصلت رُسُل السّلْطَان إلى الأمير شيخ وغيرِه من الأمراء المذكورين من البحر المالح من عكّا ، وسَارُوا حتّى لقوا شيخاً على المرْقَب ، وقد تغيّر

عَنْ حَاله ، وَأَوْصلوه التَّقليدَ بِنِيَابة الشَّام ، فقال : أنا لا أعادي نَوْرُوزا وقد أحسن إليَّ ، وأقامني ثانياً ، وأيضاً لم يكن لي قُدْرَةٌ على قتاله ، وأَخَذ الخلْعة منهم ، وَبَعثها إلى الأمير نَوْرُوز ، وأَعْلَمه أنه باقٍ على طَاعته ، فَدُقَّت البَشَائرُ لِذَلِك ، وَزُيِّنَت دِمَشق .

ثمّ في أوّل المحرم من سنة إحدَى عشرةَ وثمانمائة بَرَزَ الأميرُ نَوْرُوز مِن دِمَشْق ، يريدُ قِتَالَ الأمير بَكْتَمُر جلَق ، فتهيَّأ بَكْتَمُر أيضاً لِقتَاله ، وتصَافَفَا ، واقْتتَلا قِتالاً شَدِيداً ، قُتل بيْنَهما أُناسٌ ، وحُرقَت الزُّرُوع ، وخَربت البلادُ . ثمّ عاد نَوْرُوز إلى جهة الرَّملة لِحفْظِ مَدِينَة غَزَّة .

وكانَ الملكُ النَّاصر لَمَّا بَلغَهُ أنّ سُودُون تِلِّي المحَمَّدِي صارَ نائب غزّة ، مِنْ قِبلِ نَوْرُوز ، ولّى الأميرَ أَلْطُنْبغا العثمانيّ نيابة غَزّة وَندَبه لقِتَال سُودُون المحمَّديّ . وأَرْسَل مَعَهُ مِنَ الأمراء يَشْبَاي رأس نَوْبة النُّوَب ، وسُودُون بُقْجة ، وطُوغان الحَسَنيّ ، والجميعُ يتوَجَّهُون لِقتالِ سُودُون المحمَّدي ، ثمّ يَمْضُون إلى صَفَد ، نجْدَةً لِمنْ بها مِنَ السلطانيَّة ، وخرجوا مِنَ القَاهِرة ، وساروا حتى وَصلوا إلى العَرِيش ، فبلغهم أنَّ الأمير بَكْتَمُر جِلِّق ، والأمير جَانِم من حَسَنْ شاه ، خَرَجا مِنْ صَفَد إلى غَزَّة ، وَمَلَكاها من سُودُون المحمّدي ؛ وفرَّ سُودُون المحمَّدي ، ولحَق بالأمير نَوْرُوز ، فجهَّزه نَوْرُوز في الحَال بعدَّةٍ مُقاتلةٍ لقتالهم ، وأنَّ نَوْرُوزا يكونُ في أثرِه إلى غَزَّة . فلمّا بَلغ بَكْتَمُر جِلِق ، وجَانم ، مَجِيء سُودُون المحمّدي ، ونَوْرُوز إلى غزّة ، خَرَجا من غَزَّة وعادا إلى صَفَد ، وبلغ هَذا الخبرُ يشباي وهو بالعَرِيش ، فعاد هُو وأصحَابُه إلى الدّيار المصرية ؛ منْ كوْنه لايقاومُ نوْروزا ؛ لِكثرةِ جُموعه ، فسكت السّلطانُ عَنْ نَوْرُوز لما يأتى ذكرُه .

ثمَّ أفرَجَ السلطانُ عَنِ الأميرِ إينال المنقار ، والأمير عَلاَّن ، منْ سجن الإسكندريّة ، وقَدِم الخبرُ على السلطانِ في أثناءِ ذلك بوقُوع الفِتْنة بَيْن

شَيْخ ونَوْرُوز ، وأنَّ شيخا نَزَل القريتين(١) ، ونَوْرُوزا بالقُرب منه ، وتَراسَلا فى الكفِّ عن القتال ، فامْتنع شيخٌ وقال : السلطانُ ولَّانى نيابة دِمشْق ، وباتا على القتال ، فلمّا كان الليلُ سار شيخٌ بمن معه يُريدُ دِمشْق ، وأكثر فى منزلته من إشعال النّيران ، يخْدعُ بذلك نَوْرُوزا ، فلم يَفطن نَوْروز برَحيله ، حتىّ مَضى أكثرُ الليل ، فَركبَ فى الحال نَوْروزٌ فى أثر شيخ حتىّ سَبقه إلى دِمشْق ، ودَخلها ، ولم يقْدر شيخ على دُخول دِمشق وكان مع نَوْرُوز شْبكُ بن أزْدمُر نائب حماة ، ووقع أمور إلى أنْ واقع نوْروز شيخاً بعساكره ، وكان مع شيخ نفرٌ يسيرٌ ، وقَدْ تعوّق عنه أصحابه ، لكنه كان متولى دمشق من قبل السلطان ، ومعه سنْجق(٢) الملك النّاصر ، وأرْدفَه بكتَمُر جِلّق ، وسيدى الكبير [الأمير قَرْقماس](٣) وغيرهما من الأمراء ، فتواقَعا بسعسع(٤) ، فانْهزم نَوْروزٌ بمن معه ، وقَصد حلب ، وركب شيخ أقْفيتهم ، فدخل نَوْروز دمشق ، فى عدّة يسيرة من الأمراء منْ أصحابه ، وبَات بها ليلةً واحدة ، ثمّ خرَج منها على وَجهه إلى حَلب ، وبَعْد خُروج نَوروز منْ دمشق ، دَخل إليها الأمير بكتَمُر جِلّق ، والأميرُ قَرْقَماس ابن أخى دمرْداش ، المعروف بسيدى الكبير ، ونُودِى فى دمشق بالأمان ، وأنَّ شيخاً نائبُ دِمشق ، ثمَّ دَخل شيخٌ بَعدهُم إلى دِمشق ، ونَزل بِدار السعادة ، ثم خرج شيخ من دار السعادة ونَزل بقبةِ يَلبغَا ، ولبس التّشريف السلْطانىّ المجهز إليه من مصر بنيابةِ الشام قبل تاريخه ، وعاد إلى دَار السعَادة فى موكبٍ جليل ،

---

(١) القريتين : هى قرية كبيرة من أعمال حمص فى طريق البرية ، وتدعى حوارين (ياقوت – معجم البلدان ٣ : ٧٨) .

(٢) السنجق : لفظ تركى يطلق أصلا على الرمح ، والمراد هنا الراية السلطانية التى تربط بالرمح ، وهى من حرير أصفر مطرزة بالذهب ، وعليها ألقاب السلطان (القلقشندى – صبح الأعشى ٤ : ٤٨ ، ٥ : ٤٥٦ ، ٤٥٨) .

(٣) الإضافة للتوضيح .

(٤) سعسع : تقع قرب صفد (كرد على – خطط الشام : ٢ : ١٩١) .

وقبض على الأمير نِكْباى حاجب دمشق، وعلى الأمير أرْغز، وهما من أصحاب نوْرُوز، وعلى جماعةٍ أُخر من النوْرُوزية. ثمّ قدِم عليه الأمير دَمُرْداش المحمّدى، فأكرمه شيخٌ وأنْزله بدِمشق مدّة أيام، ثمّ ندبه هو والأمير بكْتَمُر جِلّق لقتال نوْروز ومعهما عساكر دمشق، وَورد الخبرُ على السلطان بذلك، فسُرّ سروراً عظيماً، وكتب للأمير شيخٍ بالشكر والثّناء على ما فعله مع نَورُوز؛ لأنّ الملك النّاصر كان حصلَ لهُ مِنْ نَوْرُوزٍ قهرٌ عظيم، كوْنه كانَ ولاّهُ نِيابة دِمشق، ولم يَلتفت إلى شيخ، فتركه نَوْروز، وَوافق شيْخاً، فلم يُقم شيخُ على صُلْحه مع نَوْروز إلاّ أياماً يسيرة، وتَركهُ وَعاد إلى طاعة السُّلطان، وحارَب نَوْروزا، فعرَف له السّلطانُ ذلك وولاّه نِيابة دمشق عِوضاً عن نَوْروز، وسلّطَ بعضَهم على بعْض.

ثُمّ إنّ الملكَ النّاصر في يوم الجمعةِ سابع جُمادى الأولى من سنةٍ إحدى عَشرة وثمانمائةٍ أمسَك أعزّ أُمرائه الأمير بَيغوت، وأمسَك معه الأمير سُودُون بُقْجة، والأمير أرْنبغا أحد أُمراءِ الطبْلخانات، والأميرَ قَرا يَشْبُك، أحد أمراء العشرات، وقيد الجميعَ وأرسلهم إلى سجن الإسكندرية، وَخلع على إينال المنقار، وعَلّان، ويَشبك الموساوىّ، وجَعل كلاً منهم أمير مائةٍ، ومُقدّم ألف بالدّيار المصرية، ثمّ خلعَ السّلطانُ على الأمير أرْغون منْ بَشْبُغا، واستقرّ به أمير آخور كبيراً، عوَضاً عَنْ كَمَشْبُغاَ الفَيْسِيّ.

وأمّا أُمراء الشام فإنّ الأمير نَوْروزا الحافظى، لمّا خرَج مِنْ دمشْق لم يأْمَنْ على نَفسه أنْ يكُونَ بحلب عند تمُرْبغا المشطُوب، وَكانَ أوّل ما قَدِمها قابلَهُ تمُرْبغا المذكور وَوافقه، ثمّ بدا له أنْ يكُون على طَاعةِ السّلطان، فَفطن نَوْروزٌ بذلك؛ فخرَج مِنْ حَلَب بعْد أمُور، وَسارَ إلى مَلَطْيَة واستقرّ بها، وَآواهُ ابنُ صاحب الباز[1] التركمانىّ، ثمّ سَلم تمُرْبُغا المشْطوبُ حَلب للأمير قَرْقَماس ابن

(١) يفهم مما جاء فى كتاب خطط الشام لكرد على (٢ : ١٨٨ - ١٩٢) أن ابن صاحب الباز هو ابن الفارس إياس بن صاحب الباز. وكان مستولياً على أكثر البلاد الشمالية للشام وكان عنده ما يزيد على ثلاثة آلاف فارس غير الرجالة - وقد انضم إلى نوروز فى حروبه مع شيخ المحمودى وانكسر فيها نوروز سنة ٨١١ هـ

أخى دَمُرْداش المعروف بسيدى الكبير ، ونَزَل من قلعتها ، ثمّ فرّ جماعة من الأمراء أصحاب نَوْرُوز إلى شيخ ، وَهمُ : الأمير سُودُون تلى المحمّدىّ ، وسودُون اليوسفىّ ، وأخبرُوه أن نَوْرُوزا عَزَم على الفرار من أنطاكيَة ، فَسار شيخُ بجمُوعه من العمق[1] يريد نوْرُوزا بغتَة ، فأدْرَكَ أعقابَه ، وَقبض على عدّة من أصحابه وعاد إلى العُمق ، وَبعثَ العَسْكر فى طلبه ، فقدِم عليه الخبرُ أنّه أُمسكَ هُو وَيَشْبُك بن أزْدَمُرْ فى جَماعةٍ أُخر ، فكَتب شيخُ فى الحال يُعرِّفُ السّلطان بذلك كلّه ، فَشكرهُ السّلطان على ذَلك وَأرْسل إليه بالخلَع .

ثمَّ إنّ السّلطان فى هذه السّنة أضافَ إمْرَةَ المدينة النّبوية ، وَإمْرَةَ اليَنْبع ، وخُليص[2] ، والصّفْراء[3] ، وأعمالهم ، إلى الشّريف حَسن بن عَجلان أمير مكّة ، وَكتب له بذلكَ توْقيعاً ، وهذا شىْء لم ينله أمير مكة قَبله فى هذا الزّمان .

ثمَّ فى خَامس عشرين جمادى الآخرة ، أنعم السّلطَانُ بإقْطاع بَشْباى رأس نوبة النّوب ـ بعد وفاته ـ على الأمير إينال المحمّدى السّاقىّ المعروف إينال ضُضَع ، وأنْعم بإقطَاع إينال المذكور على الأمير أرْغُون من بَشبغا الأمير آخور الكبير ، وَأنعم بإقطَاع أرْغون المذكوَر على الأمير مقُبل الرُّومىّ ، والجميع تقادم أُلوف ، لكنْ بينهم التّفاوُت فى كثرة المغَلّ والخرَاج ، وأنْعم بإقْطاع مُقْبل الرُّومىّ ـ وهو إمرة طبلخاناة ـ على الأمير بُرْدبك ، ثمَّ خَلع السّلطَانُ على الامير إينال السّاقىّ المذكور باستقرارِه رَأس نَوبة النُّوب ، عِوضاً عن بَشْباى المذكور بحكم موته .

ثمَّ قَدِمَ الخبرُ على السلطَان منْ شيخ بأن التركمان الذين كانوا قبضوا على نَوْروز أطلقوه ، وأنَّ تمُرْبغا المشْطُوب هَرَب من الأمير شيخ ، وأن نَوْروزا توَجّه

(١) العمق : كورة بنواحى حلب (ج ١٢ : ٢٣ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) خليص : حصن بين مكة والمدينة . (ياقوت . معجم البلدان ٢ : ٤٦٧) ، (ج ٩ : ٦٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) الصفراء : قرية بين المدينة وينبع (ج ١٠ : ٢٢٤ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

بعد خلاصه من يد التركمان إلى قلعة[1] الرُّوم، وأنَّه خَرج من دِمشق جماعةٌ كبيرة مِنْ عند شيخ إلى نوْروز، فركِب شيخٌ فى أثرهم فلم يدركهم، فعاد إلى دِمشق وَقبضَ على الأمير يشْبُك العُثمانىّ، ثمَّ بعد مُدَّة يسيرة بلغَ الأمير شيخاً أنه قِيل للسلطان عنه إنّه عاصٍ، فطلب الأميرُ شيخ القضاة وأعيان أهل دمشق، وكتبَ محضراً بأنه باقٍ على طاعةِ السلطانِ الملك النَّاصر، وَبعثَ بهِ مَع القاضى نجم الدين عُمر بن حجىّ، وقدِم ابنُ حجّىّ بالمحضر، وَمع المحضر المذكور كتابُ الأمير شيخ يَستعطِفُ خاطر السُّلطان عليه، ويَعتذر عَنْ تأخّره بإرْسالِ مَنْ طَلبه السّلطانُ مِنَ الأمراء النَّوْروزيَّة، وكان السّلطان قدْ بعثَ إليه قبلَ ذَلك يَشْبُك الموساوِىّ بطلب جماعةٍ مِن الأمراء، فلم يُرسلهم شيخ إليه، فلم يقبل السّلطان عذره، واشتدّ غضبه، وأظهر الاهْتمام بالسّفر إلى الشّام، ثم كتب الجواب بتجهيز أمراء عيّنهم، وَواعدهم على مُدة ستة وعشرين يوْماً، ومتى مضتْ هذه المدّة ولم يجهّزهم، سار السّلْطان لقتاله، وبعثَ السلطانُ بذلك على يد قاصد شيخ نجم الدين بن حجّىّ، فعاد ابن حجى إلى الأمير شيخ وأدّى الرّسالة، فأخذ شيخٌ فى تجهيز الأمراء الذين طلبهم السّلطان، وامتثل مرْسومَه بالسَّمع والطَّاعة.

وبيْنما هو فى ذلك، بَلغهُ أنّ تغرى بَرمش كاشف[2] الرّملة فرَّ منهـا لقدوم كاشف ونائب القدْس مِنْ قِبَـل السّلْطان، وأنّ السلْطان قد عزم علىَ المَسير إلى الشّام، وأخرج الرّوايا والقِرَب على الجِمال ومَعَهم الطّبول، نحو

(١) قلعة الروم: وتقع غربى الفرات مقابل البيرة، وهى بينها وبين سميساط. وقد سميت بعد فتحها بقلعة المسلمين (ياقوت – معجم البلدان ٤: ١٦٤ وما بعدها).

(٢) الكاشف: من وظائف أرباب السيوف الذين لا يحضرون مجلس السلطان، وهو يحكم على جميع البلاد التى يتولى كشفها، وله موكب بمراسيم النيابة، فيجتمع إليه الأمراء، ويمد السماط، ويحضره القضاة، وتقرأ القصص بين يديه، وكان يطلق عليه والى الولاة (القلقشندى – صبح الأعشى ٤: ٢٤، ٢٥).

مائتى جمل إلى البركة(١) ، فعند ذلك رجع شيخٌ عَنْ إرسال الأُمراء ، وعوَّل على مصالحة نوْروز ، وبعث إليه الأمير جانم ليُصْلِحَ بينهما ، وجهز له شيخٌ ستّة آلاف دينار ، فمال نوْروز لمصالحته ، فلما بلغ دمرْداشَ نائبَ حلب الخبرُ اهتمَّ لقتال نوْروز ، وجمع طوائف التّركمان والعربان ، وسار إليه بكْتَمُر جِلّق نائب طَرَابُلُس ، وحضَر إليه أيضاً نائب أنطاكيّة(٢) وبعث دَمُرْداش ابن أخيه تغرى برْدى المعروف بسيّدى الصغير - وهو يومئذ أتَابَك حلب - إلى مرْج(٣) دابق ومعه جماعة كبيرةٌ مِنَ التُّركمان ، ثم أتاه بكْتَمُر جِلّق ، فرَحلا منْ حلب بعساكرهما وقصدا نوْروزا ، وقد نزل نوْروز بجموعه على عيْن تاب ، فتقدَّم إليه تغرى برْدى سيِّدى الصغير بالتركمان الكبكيّة(٤) ، جاليش عمّه دَمُرداش ، فرحل نوْروز إلى مَرْعش(٥) ، وتحاربت كشّافهُ مع كشّافة دُمُرداش محاربةً قويّة ، أُسر فيها عدّةٌ منَ النّوْروزية ، وانهزم نوْروز ، واستوْلى عَسكرُ دَمُرداش على عين تاب ، وعاد دَمُرْداش إلى حلب ، وكتَبَ بذلك إلى السُّلطان .

فسُرَّ السلْطانُ بذلك ، وكتب الجواب : إنّى واصلٌ عَقِيبَ ذلك إلى البلاد الشامية ، وعظم اهتمام السلْطان وعساكره للسَّفر ، إلى أنْ خرج جاليشه مِنَ الأمراء إلى الرّيدانيّة ، فى يوم الأربعاء سابع المحرَّم مِنْ سنة اثنتى عشرة

(١) البركة : المراد بركة الحاج ، وكانت تسمى بركة الجب إلى أيام المقريزى ، ثم تحولت إلى اسمها الجديد لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة ، وأيضاً كان ينزل عليها المسافرون إلى الشام ، وقد اتخذها العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٨٤ هـ . مكاناً لعرض العسكر إلى جانب كونها مكاناً للنزهة (المقريزى - الخطط ٢ : ٢٧٤) .

(٢) أنطاكية : مدينة فى شمال سوريا بحوض نهر العاصى ، على مقربة من مصبه ، ولها تعريف مطول فى (ج ٨ : ١٥٤ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) مرج دابق : هو مرج معشب نزه قرب حلب من أعمال أعزاز ، كان ينزله بنو مروان إذا غزوا صيفا (ج ٦ : ١٨٩ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٤) التركمان الكبكية بطن عظيم من أشرف بطون التركمان الجراكسة ، وفى كتاب السيف المهند فى سيرة المؤيد للبدر العينى ص ٢٦ ، ٢٧ تفصيل لبطون التركمان ، تحقيق فهيم شلتوت .

(٥) مرعش : مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم (ج ١٢ : ١٨ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

وثمانمائة ، وهم : الوالدُ ـ وهو يومئذ أتابك العساكر بالدّيار المصرية ـ وآقباى الطّرنطائىّ رأس نوبة الأمراء ، وطوخ أمير مجلس ، وطوغان الحسنىّ ، وإينال المنقار ، وكَمشْبُغا الفيسىّ المعزول عن الأمير آخورية ، ويشبك الموساوىّ الأفقم ، وعدّة أُمراء أُخر من الطّبلخانات والعشرات ، ونزل الجميع بالريدانية .

ثمّ فى يوم الإثنين حادى عشر المحرّم المذكور ، ركب السّلطان الملك النّاصر ببقيّة أُمرائه وعساكره منْ قلعة الجبل ، ونزل بمخيّمه بالرّيدانيّة ، وفى اليوْم المذكور ، رحل الوالدُ بمنْ معه من الأمراء وهو جاليش السّلطان ، وسار بهم يُريد دمشق .

ثمّ خلع السّلْطان على الأمير أرْغون منْ بَشْبُغاَ الأمير آخور الكبير باستقراره فى نيابة الغَيبة ، وأنه يقيم بسكنه بالإسطبل السلْطانى ، وخلَع على مقبل الرومىّ ، ورسم له أن يقيم بقلعة الجبل ، وخلع على الأمير يَلْبُغاَ النّاصرىّ باستقْراره فى نيابة الغَيْبَة ، ويقيم بالقاهرة للحكم بين النّاس ، وكذلك الأمير كُزُل العجمىّ حاجب الحجّاب ، ثمّ رحل السلْطان فى رابع عشر المحرّم من الرّيدانيّة ، يريد البلاد الشّاميّة .

وأما الأمير شيخٌ نائب الشّام ، فإنه لما سمع بخروج السّلطان من مصر ، أفرج عنْ الأمير سودُون تلى المحمّدى ، وعنْ سُودون اليوسفى ، وعن الأمير طوخ ، وهم الذين كان السلطان أرْسل إلى شيخ بطلبهم ، وأظْهر شيخٌ العصيان ، وأخذ فى مصادرات أهل دمشق ، وأفحش فى ذلك إلى الغَايةِ ، ثمّ سارَ الملك النّاصرُ إلى أنْ وَصل إلى غزّة ، وعَزل عنها الأمير ألطُنْبُغاَ العثمانىّ وولاه نيابة صفد ، وخلع على الأمير إينال الصّصْلانى الأمير آخور الثانى باستقرارهِ عوضه فى نيابة غزّة ، وكان الأمير شيخٌ قدْ أرسل قبل ذلك الأمير سودون المحمّدى ودواداره شاهين إلى غزّة ، فلما وصل جاليش السلْطان إليها انهزما من الرّملة إلى شيخ ، وأخبراه بنزول السلْطان على غزّة ، وكان استعدّ

شيخٌ فى هذه المرة لقِتال السّلطان ، فلمّا تحقق قدومه ، خارت طباعه ، وتحوّل فى الوقت إلى داريّا[١] فقدِم عليه الأمير قَرْقَماس ابن أخى دمرداش فارًّا من صفد ، وشجّع الأمير شيخا على ملاقاة السلْطان وقتاله ، وعرّفه أن غالب عساكره قد تغير خاطرهم على السلْطان ، فلم يلتفت شيخٌ لذلك ، وأبى إلا الهرُوب ، ثم قدِم عليه الأمير جانم نائبُ حماة بعسكره ، وعرّفه قدوم نوْروز عليهِ ، وهُو مع ذلك فى تجهيز الرَّحيل من دمشق .

وسار السّلْطان من غزّة حتى نزَل اللجون فى يوم السبت أوّل صفر منْ سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، فكثُر الكلام فى وِطاق[٢] السّلْطان بتنكّرِ قلوب المماليك الظّاهريّة على السّلطان ، وتحدّثوا فى بعضِهم بإثارة فتنة ؛ لتقديمه مماليكه[٣] الجلب عليهم ، وكثرةِ عطاياه لهم ، فلما أصبح السلْطان رحل من اللجون ونزل بَيْسان[٤] وأقامَ بها نهاره إلى أنْ غربت الشمس ، فماج العسكرُ ، وهُدّت الخيم ، واشتد اضطرابُ الناس ، وكثر قَلَقُ السّلطان طول ليلتِه إلى أن أصبحَ وجَد الأمير تِمْرازَ النّاصريَّ النائبَ ، وَإنيَّه وزَوْج بنتِهِ سُودُون بُقْجَة ، والأمير إينال المنقار ، والأمير قَرَايشْبُكَ ، والأمير سُودون الحمصىّ ، وعدةً كبيرة من المماليك السلطانيّة قد فرُّوا إلى الأمير شيخ ، وكان سبب فِرارهم فى هذه الليلة أنَّ آقبُغاَ الدّوادار اليشبُكىّ عرَّف السلطان بأنّ هؤلاءِ الجماعة يريدون إثارة فتنة ، فطَلَبَ السُّلْطاَنُ كاتبَ سِرِّه فتح الله ، وجمال الدين الأسْتاَدَار ، وعرّفهما ما بلَغَه عَن الجمَاعَة ، فدار الأمرُ بينهم على أنَّ السُّلْطاَنَ فِى وَقتِ المغرِبِ يُرْسِل خلفهم

(١) داريا : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة (ياقوت — معجم البلدان ٢ : ٥٣٦) .

(٢) الوطاق : هو محرف أوتاق ، وهى بالتركية الخيمة الكبيرة التى تعد للعظماء (ج ١٢ : ٣١٩ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) المماليك الجلب : هم المشترون أو المجلوبون باسم السلطان لشخصه (عن تعليق الدكتور زيادة على سلوك المقريزى ١ : ٧٣٦) .

(٤) بيسان : مدينة بفلسطين بين نابلس وعين جالوت بشرق (الدكتور الباز العرينى — الشرق الأوسط والحروب الصليبية — خريطة ص ٨٦٤) و (ياقوت — معجم البلدان ١ : ٧٨٨) .

ويقبض عليهم، وخَرجوا على ذلك مِنْ عِند السّلطان، فَغَدَرَ جمالُ الدين الأستادار وأرْسَلَ ـ بعد خروجه من عند السّلطان ـ عَرَّفَ الأُمَرَاءَ بِالأَمْر، وكان تمراز قَدِم من مصر في محَفّة، لِرَمَدٍ كان اعْتَرَاهُ، فأَعْلَمَهُم جمالُ الدين بالخبر، وبَعَثَ إليهم بمالٍ كبيرٍ لهم وللأمير شيخ نائب الشّام، فأخذُوا حِذْرَهم، ورَكِبُوا قبل أن يُرْسِل السّلطانُ خلفهم، ولحِقُوا بالأمير شَيْخ، وَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْوطَاق وَسَارُوا لم يكن حينئذ عند السلطان أحَدٌ مِنْ أكَابِرِ الأمراء؛ لِتوجّههم في الجاليش أمام السّلطَان، فَبعثَ السُّلطَانُ خلْف فتحِ الله وجمالِ الدين الأسْتَادَار، ولاَ عِلْمِ لِلسُّلْطَان بِمَا فعله جمالُ الدين الْمذكُور، وَكَلَّمَهُمَا فيما يَفْعَل، واسْتَشَارَهُمَا، فأَشَار عليه فتحُ الله بالثَّبَات، وأشَارَ عليه جمالُ الدين بالرّكُوب ليلاً وعَودِهِ إلى مصْر، يريد بذلك إفْسَاد حاَله، فَمَالَ السُّلْطَانُ إلى كلام فتحِ الله، وأقَامَ بوطَاقِه، فلمَّا طَلَعَ الفَجْرُ رَكِب وسَار بعَساكِرِه نحْوَ دِمَشْق، فقَدِمَ عليه الخبرُ بِرَحِيل شيخ من دِمَشْق إلى بُصْرى[1]، فَنَزَلَ السُّلْطَان عَلَى الْكُسْوة[2]، فَفرّ في تلْكَ الليلَة الأميرُ عَلاّن وجماعة من المماليك لشيخ، فركب السّلطان بُكْرَة يوم الخميس سادس صفَر، ودخَل دمشق، ونزل بدار السَّعَادة، ثُمَّ قبض عَلَى شِهاب الدين أحمد الحُسْبَانِيّ وسلّمه إلى الأمير أَلْطُنْبغُا شَقَل؛ من أجل أنّه أفتى بقتاله، وطَلَب ابن التُّبَّانِيّ فإذَا هو سار مع شيْخ، وكتب السلطان بالإفراج عن الأمير أرْغز، وسُودُون الظّرِيف، وسَلْمَان[3]، من قَلْعة الصُّبيبَة، وخلَعَ عَلَى الأمير زَيْن الدين عُمر الهَيْدَبَانِيّ باستقْرَارِه حاجب حُجَّابِ دِمشق، وعلى أَلْطُنْبغُا شَقَلَ حاجباً ثَانيا، وخلع على الأمير بُرْدبك باستِقرارِه

(١) بصرى: هي قصبة كورة حوران من أعمال دمشق ولها قلعة شبيهة بقلعة دمشق (ياقوت — معجم البلدان ٤ : ١٠٧، ١٠٨).

(٢) الكسوة: قرية صغيرة، وهي أول منزلة تنزلها القوافل بعد خروجها من دمشق متوجهة إلى مصر (ج ٧ : ٣٦ من هذا الكتاب ط دار الكتب).

(٣) يقول د. وليم پوپر في تعليقه ج ٦ : ٢٠٤ من هذا الكتاب ط كاليفورنيا: إن سلمان هذا لم يشر إليه في مكان آخر من هذا الكتاب أو غيره من المراجع، وكذلك الأمير أرغز والأمير سودون في حوادث الصبيبة.

فى نيابة حماة عِوَضاً عن جانَم ، ثمّ كَتَب السُّلْطان للأمير نَوْرُوز تقْليداً بنيابة حلَب عِوضاً عن الأمير دَمُرْدَاش المحمّدىّ .

ثمّ قَدِم الأميرُ بَكْتَمُر جِلِّق نائب طرابُلُس إلى دمشق ، وأخبرَ أنّ الطاعون فَشَا ببلاد حِمْص وطَرابُلُس ، ثمّ فى عشرينه قدِم الأميرُ دَمُرْدَاش المحمّدىّ نائب حلب فأكرمه السلطانُ وخلَع عليه ، ثمّ خلَعَ السُّلْطَانُ على الأمير بَكْتَمُر جِلِّق باستقْرارِه فى نيَابَة دِمشق عِوَضاً عن شيخ المحمودىّ ، وخلَع عَلَى دمرْدَاش المحمّدىّ باستِقْرَاره فى نيابة طَرابُلُس عِوضاً عن بَكْتَمُر جِلِّق - مُضَافاً لِنيَابَة حَلَب.

ثمّ وقَع من جمال الدين الأستادار نَكْبة فى حَقِّ بعض أصْحاَب الأمير شَيْخ ، وهو أنّه أمْسك جمال الدين القاضى ناصرَ الدين ابن البارزىّ وضَربَه ضَرْباً مُبرِّحاً ، لأجل معلومٍ تناوله لشمس الدين أخى جَماَل الدّين الأسْتادار ، ثمّ فى ليلة السبت أيضا قتل جمال الدين الأستادارُ القاضىَ شرفَ الدين بن الشّهاب محمود الحلبىّ كاتب سِرّ دِمشق ؛ لحقد كانَ فى نفس جمال الدين منه أيّام خموله بحلب ، وكانَ شرفُ الدين أيْضاً من أصْحاَب الأمير شَيْخ ، وكان عبد الباسط بن خليل فى خدمة شرف الدّينْ هَذَا ، ومِنْه تعرّف بالأمير شيخ ، وكان عبدُ الباسِط فِى أيّامِ سَعَادَتِهِ بمصر يَنْقُلُ فى غالب أفعاله عن أُستاذِهِ شرَفِ الدين هذا .

ثمّ فى يوم الإثنين ثانى شهر ربيع الأوّل ، خرج أطْلاَبُ السُّلْطَان والأمراء مِنْ دِمَشق ، وتَبِعَهُم السُّلْطَانُ بعساكره وهُم بآلةِ الحرْبِ والسلاح ، ونَزَلَ بالكُسْوة وأصْبَحَ راحِلاً إلى جهة الأمير شَيْخ ورُفقَتِهِ ، فالتَقَى كشّافةُ السُّلْطَانِ مَع كشّافةِ شيخ ، واقْتَتَلوا ، وأُسِر من الشَّيخيَّة رجلٌ ، ثمّ انهزَمَت الشَّيخيَّة ، ثمّ سَارَ السُّلْطَانُ بُكْرَة يوم الأربعاء فَنَزَلَ قريةَ الحَراك[1] نِصْفَ النهار ، وأقامَ بها قَدْرَ مَا أكَلَ السِّماط ، ثم ركِبَ منها بعساكره وسَار سَيْراً مُزْعِجاً ، ونَزَلَ عند الغروب

(١) قرية الحراك : لم يعثر المحقق على تعريف بها فى المراجع الميسرة له .

بكَرَك البَثَنية[1] من حُوران ، وبات وأصبح وسار حتَّى نَزَلَ مدينة بُصْرى ، فتحقَّق هناك خبر شيخ بأنّه فى عصر يوم الأربعاء الماضى بَلَغَه أنَّ السُّلطان خَرَج مِنْ دِمَشق فى أثَرِه ، فرَحَلَ مِنْ بُصْرى بعساكره فَزِعاً يريد صَرْخَد بعد ما كَلَّمَهُ الأمراء فى الثَّبات ، وقِتَال الملكِ الناصرِ ؛ فَلَمْ يَقْبَل ، ورَكِب مِنْ وقته ، وتَرَكَ غالبَ أصحابه بمدينة بُصْرى ، ثم تَبِعَتْهُ أصْحَابُه مع كَثْرة عَدَدِهم إلى صَرْخَد .

ولما بلَغ الملك الناصرَ فرارُ شيخٍ وأصْحَابه ، تأوَّه لذلك وقال لكاتب سرّه فتح الله ولجمال الدين الأستادار : ألم أقل لكما إن شيخاً فظيعٌ ليس له قلبٌ ولو كان معه مائة ألف مقاتل لا يَقْدر أن يقابلنى بهم ؛ لرُعبٍ سكن فى قلبه منى ؟ ثم أقام السُّلطانُ على بُصرى إلى بُكْرة يوم السبت ، فقدِم عليه وهو ببُصرى الأميرُ بَرْسبای الدُّقاقىّ الساقى : أعنى الملك الأشرف ، والأمير سكْب اليوسفىّ ، فأكرمهما السلطان ووعدهما بكلّ خير ، ثمّ ركبَ وسار — وهو ثَمِل — حتى نزل بقرية عُيون تجاه صَرخد ، فتناوش العسكران بالقتال ، فقُتل مِنْ جماعة شيخ فارسان ، وجُرح جماعةٌ من السلطانيَّة ، ثم فرَّ جَماعة أخر من السلطان إلى الأمير شيخ ، وبات السّلطان وأصبح فى وقت الفجر نادى أن لا يهدّ أحدٌ خَيْمَته ، ولا يُحَمَّل جملٌ ، وأن يركب العسكر خيولهم ، ويجرّ كل فارس جَنِيبه مع غلامه مِنْ غير أن يأخذوا أثقالهم ، فركبوا ، وسار بهم على هذه الحالة حتى طرقَ شَيخاً وأصْحَابه على حين غفلة ، بَعد أن كان سارَ هو بِنفسِه أمام عسكره مُسرعا ، وأُمراؤه يُخَذّلونه من انْقطاع عساكره عنه ، ويقولون له : بمنْ تاقى شيخاً ، وقد عظُم جمعه وتخلفت عساكر السلطان مُنقطعة ؟ والملكُ الناصر لا يَلتفت إلى قولهم ويقول :

لو بَقِى مَعى عِشرةُ مماليك لقيتُ بهم شيخاً وَمَنْ معه ، [أنا][2] أعرفهم حقّ المعرفة .

---

(١) البثنية : هى مدينة أذرعات من أعمال دمشق القبلية (القلقشندى – صبح الأعشى ٤ : ١٠٥) .

(٢) إضافة يقتضيها السياق .

ودامَ على سيره حتى طرقَ شيخاً على حِين غَفــلة ، وقد عبأ شيخٌ عساكره ، فأوقف المصريين ناحيةً : أعنى الذين فرّوا إليه من الملك الناصر ، وَجعل عليهم الأمير تمراز النائب ، وَوقف هو فى ثِقاته وخَواصه ، وهُم نحو خمسمائة نَفَر ، فتقدَّم السلطانُ وصدمَ بعساكره الأمير تمراز بمن معه — وكانوا جمعاً كبيراً — فانكسروا مِنْ أوّل وَهلةٍ ، ثم مال على الأمير شيخٍ وأصْحَابه ، وقد تَقهقَر شيخ وأصحابه إلى جهة القلْعة ، فكان بينهم معركةٌ صدراً من النهار ، وهو يتأخر إلى المدينة ، وأصحابه تتسلّل منه ، وصار القتالُ بجدران مدينة صَرْخد ، ولا زَال شيخٌ يَتأخر بمنْ معه ، والملكُ الناصرُ يتقدَّم بمن معه ، حتى ملكَ وِطاقَ شيخ وانتهب جميع ما كان فيه من خَيْلٍ وقماش وغيرها ، ثمّ هرب شيخٌ إلى داخل جُدران المدينة ، واستولى السلطانُ على جامع صَرْخد ، وأصعد أصحابه فرموا من أعلى المنارة بمكاحل[1] النفط والمدافع والأسهم الخطائية[2] على شيخ ، وشيخٌ يَلومُ أصحاَبه ويُوبّخهم على ما أشاروا عليه من قِتال الملكِ النّاصِر ، ثمَّ حَمل السلطانُ عليه حملةً منكرة بنفسه ، فلم يثبُت شيخٌ وانهزم والتجأ فى نحو العشرين من أصحابه إلى قلْعة صَرْخَد ، وكانتْ خلْف ظهره وقد أُسْنِدَ عليها ، فتسارع إليه عِدّةٌ من أصحابه ، وتمزّق باقيهم ، وطَلع شيخٌ إلى قلعة صَرْخد فى أسوإ حال ، وأحاطَ السّلطان على المدينة ، ونزل حوْل القلعة ، وأتاهُ الأمراء فقبَّلوا الأرض بين يديه ، وهنَّئوه بالظفر والنّصر ، وامتدَّت أيدى السلطانية إلى مدينة صَرْخد ، فما تركوا بها لأهلها جليلاً ولا حقيراً ، وانطلقت ألْسنةُ أهل صَرْخَد بالوقيعةِ فى شيخ وأصحابه ، وأكثروا لهُ التوْبيخ بكلام معناه أنه إذا لم يكن له قوَّة ماباله يقاتل منْ لم يُطِقْ دفعه وقتاله ، وسار الأميرُ تمراز ، وسودون بُقجة ، وسودون الجَلَب ،

(١) المكاحل : هى المدافع التى يرمى عنها النفط (ج ١٢ : ٢٢٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) الأسهم الخطائية : هى سهام عظام يرمى بها عن قسى عظام توتر بلولب يجر بها ويرمى عنها فتكاد تخرق الحجر (القلقشندى — صبح الأعشى ٢ : ١٤٤) . ولعل نسبتها إلى أمة الخطا أى الصين .

وسودُون المحمدىّ ، وتمُرْبغا المشطوب ، وعَلاَّنُ فى عِدةٍ كبيرةٍ إلى دمشق ، فقدمُوها يوم الإثنين تاسعه ، فقاتلتهم العامّة ودفعوهم عنها ، وأسمعوهُمْ من المكْروه أضعاف ما سمعه شيخٌ بصرْخد ، فولوا يريدُون جهة الكرك وهُم فى أحقر ما يكون من الأحوال ، وساروُا عن دِمشق بعد ما قُتل منهم جماعةٌ ، وجرح جماعة ، وتأخَّر كثيرٌ منهم بظواهر دِمَشْق ، ومضى منهم جماعة إلى حَماة ، والجميعُ فى أنحس حال ، وأُخذ منهم جماعةٌ كثيرة بدمشق وغيرها .

ولمَّا دخلت الأمراء على السّلطانِ الملك الناصر للتّهنئة حسبما ذكرناه التفتَ السّلطانُ للوالد ، وكان يُسَمِّيه أَطَا : أعنى أب ، وقال له : يا أطا ، أنا ما قلتُ لك أنا أعرف شيخا ، إذا كان معى عشرةُ مماليك قاتلتهُ بهم ، ثم تكلَّم فى حقِّ شيخ بما لا يَليقُ ذِكْرُه ، فقالَ له الوالدُ : يا مولانا السّلطان ، هذا كلُّه بِسَعْدِ مولانا السّلطان ، وعِظَم مَهابته ، وأمَّا شيخٌ فإنَّه إذا كانَ منْ حزْب السّلطانِ وتَحَمَّلَهُ نظرُ مولانا السّلطان مَنْ ذَا يُضاهِيه فى الفرُوسِيَّة ؟ غير أنَّ للرُّعْب الذى فى قلبه من حُرْمَةِ مولانا السّلطان ، وغضبه عليه يَقَع فى مثل هذا أو أكثر .

قلتُ : وأظهر الملكُ النَّاصرُ مِنَ الشجاعةِ والإقدام ما سَيُذْكَرُ عنه إلى يوم القيامة ، على أنَّ غالبَ أُمرائه ومماليكه الأكابر كانوا اتفقُوا مع جمال الدين الأستادَار أنهم يَكْبِسُون عليه ويقتلونه فى اللّيل ، وَبَلَغَ الملكَ النَّاصرَ ذلك من يوم خرُوجه منْ غزَّة ، فاحترز على نفسه ، وأشار عليه كلٌّ مِنْ خواصّه أن يَرْجِع عن قتالِ شيخٍ وأصحابه بحيلةٍ يُدَبِّرها ، ويَرْجع إلى نحو الدّيار المصرية ؛ مخافةَ أن تخذله عساكرُه ، فلم يلتفت إلى كلام أحد ، وأبى إلاَّ قتالَ شيخ ، وهذا شىء مهولٌ عظيمٌ إلى الغاية ، وإنْ كانَ هو يَهُولُ فى السَّماع ، فإذا تحقّقَه الشخصُ يهوله إلى الغاية ؛ مِنْ كَوْن عسكر الملكِ يكونُ مختلفاً عليه وهو يُرِيدُ يقاتل ملوكاً عديدة ، كل واحدٍ منهم مرشَّحٌ للسّلطنة ، وما أظنّ أن بعد الملكِ الأشْرَفِ خليل بن قلاوون وُلِّىَ عَلَى مصر سلطانٌ أشجع مِنَ الملك النَّاصر هذا فى مُلوك التُّرك جميعها . ولقد أخبرنى جماعة كبيرةٌ منْ أعْيان المماليك

الظاهريّة الذين كانوا يوم ذاك مع الأمير شيخ المذكور .

قالوا : لمّا قيل للأمير شَيْخ : إنّ السّلطان الملك الناصر قدِم إلى جهة صَرْخد ، تغيّر لونه واختلط فى كلامه ، وأراد طلوع قَلْعة صرْخد قبل أنْ يُقاتِل الملكَ الناصر ، فلامَه على ذلك بعضُ خَوَاصّه ، وقالوا له : قد انضمّ عليك فى هذه المرّة مِنَ الأمراء والعساكر ما لم يجْتَمِع مِثْلُه لأحدٍ قبلك ، فإن كنتَ بهم لا تُقاتِلُ الملكَ الناصر فى هذه النّوبة فمتى تقاتله ؟ وبَعْدَ هذا فلا ينْضمُّ عليك أحدٌ ، فقال شيخٌ : صدَقْتَ فيما قلتَ ، غير أنّ جميعَ مَنْ تنظُرُه الآن وهو يَتَنَمَّرُ عَلَى فَرَسِهِ إذا وقعَ بصرُه على الملكِ النّاصر صار لا يستطيعُ الهُروب ، فكيفَ القِتال ؟ ! فقالَ له القائل : فالذى يعلمُ هذا لا يَصلُح له أنْ يَعصى ويَتطَلّبَ السّلطنة ، فقال شيخٌ : والله ما أُريد السّلطنة ، وإنّما غالبُ ما أفعلُهُ خَوْفاً من شرّ هذا الرّجل ، وقد بذلتُ له الطاعة غير مَرّة ، وتوجّهتُ إلى خدمته بمصر والشّام ، وقاتلتُ أعداءه ، والله أنا أهابُه أكثر منْ أُستاذى الملك الظاهر بَرْقُوق ، غير أنّه لا يريد إلاّ أخذ رُوحى ، والرُّوحُ والله لا تَهُون ، فأيْش يكون العمل ؟

وشرَع يتكلم فى هذا المعْنى ويُكثر حتى أمرهُ تِمْرازُ النائب بالكفّ عَنْ هَذا الكلام فى مثل هذا الوقت ، والعملِ فيما يعودُ نَفْعُه عليه وعلى رُفْقته ، فكَفّ شيخٌ عن ذلك ، وأخذ فى تدبير أمْرِه وتَعْبِية عساكره ، حتى وقع ما حكيناه — انتهى .

ولمّا نَزَل السّلطانُ الملكُ الناصر على قَلْعة صَرْخَد ، أمر النّوّاب أنْ يتوجّه كلُّ واحد منهم إلى محلّ كفَالَتِهِ ، فسار الجميعُ إلاّ الأمير دَمُرْداش المحمّدىّ ، فإنه أرسل ابنَ أخيه تَغرِى بَرْدى المدعو سيّدى الصّغير إلى حَلَب ؛ ليكونَ نائباً عنه بها ، وأقام هو عند السّلطانِ على صَرْخَد ، وكذلك الأمير بَكْتَمُر جِلّق نائب الشّام ، فإنّه أيضا أقام عند السّلطان ، وأخذ السّلطانُ فى حصار قَلْعَة صَرْخد ، وعزم على أنّه لا يَبْرَح عن قتالها حتى يأخذها .

ثمّ قَدِم الخبرُ على السّلطان أنّ تُرْكُمان الطّاعة(١) قاتلوا نَوْرُوزاً وكَسَرُوه كسرةً قبيحةً ، فدُقّت البشائر بصرْخَد لذلك ، ثمّ أمر السّلطانُ دَمُرْداش المحمّديّ بالتوجّه إلى محل كفالته بحلب ، هذا ونوّاب الغَيْبَة بدِمَشْق فى أمرٍ كبير منْ مُصادَرات الشّيخيّة ، وقبضوا على جماعة كبيرة من حواشيه ، منهم : علم الدين داود ، وصلاح الدين أخوه ابنا الكُوَيز ، قُبض عليهما منْ بيْتِ نصْرانِيّ بدِمَشْق ، فأُهينا ، وقُبِض أيضاً على شهاب الدين أحمد الصّفديّ مُوَقّع الأمير شيخ ، وتوجّه الطّوَاشى فيْرُوز الخازندار فتسلّمهم من دِمَشْق ، هـذا والملكُ الناصرُ مُسْتمِرٌ على حِصَارِ قلعة صَرْخَد ، وأحْرَق جِسْرَ القلعة ، فامتنع شيخٌ بمن معه داخِلَها ، فأنْزَل السّلطانُ الأمراءَ حوْلَ القلعة ، وألْزَم كلّ أمير أن يُقاتل مِنْ جهته ، والسّلطانُ فى لَهْوِهِ وطربِهِ لا يَرْكب إلى جهة القلعة إلاّ ثَمِلاً ، ثمّ طلَبَ السّلطانُ مكاحِلَ النّفط ، والمدافع من قَلْعة الصُّبَيْبَة وصَفَد ودِمَشْق ، ونَصبَها حوْلَ القلعة ، وكان فيها ما يَرْمى بحجر زِنَتُه ستّون رطلا دِمَشْقِيّا ، وتمادى الحِصار ليلاً ونهاراً ؛ حتى قَدِمَ المنجنيق(٢) من دِمَشْق على مائتى جَمَل ، فلمّا تـكامل نَصْبُه ولم يبق إلاّ أن يرمى بحجره ، وزِنة حجره تسعون رطلا بالدمشقيّ ، فلمّا رأى شيخ ذلك خافَ خوْفاً عظيما ، وتحقّق أنّه مَتى ظَفِرَ به الملكُ الناصر على هذه الصّورة لا يُبقيه ، فتَرَامَى على الوالد ، وعلى بقيّة الأمراء ، وألقى إليهم الأوْراق فى السّهام ، وأخذَ شيخٌ لا يَقْطَع كُتُبَه عَنِ الوالد فى كلّ يوم وساعة ، وهو يقول له فى الـكُتُب : صُنْ دماء المُسْلِمِين واجعلنا عُتَقاءك ، وما لك فينا جميلةٌ فإنّنا إنيّاتك(٣) ، وخُشْداشِيّتُك ، ولم يـكن فى القوْم مَنْ لَهُ علَيَّ أنا خاصّةً شَفَقَةٌ وإحسان غيرُك ، وأنت أتابكُ العساكر وحمُو السّلطان ، وأعظمُ مماليك أبيه ، فأنتَ عِنْدَه فى مقام بَرْقُوق ، وكلمتُك لا تُرَدُّ عنده ، وشفاعتُك مَقْبُولةٌ . وأشْياء كثيرة مِنْ هَذا الـكلام وأشباهه ، وكانَ الوالدُ يميلُ إلى الأمير

(١) أى الموالون للسلطان و الداخلون فى طاعته .

(٢) المنجنيق : آلة من خشب ترمى عنها الحجارة أو النفط (ج ١٢ : ٢٢٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب).

(٣) انظر التعليق ٣ ص ٩ من هذا الجزء وما هنا يؤكد ما ذهبت إليه فى التعليق .

شيخ لِمَا كانَ لشيخٍ عليه مِنَ الخِدَم بالقَصْر السّلطانى أيّام أستاذهما الملك الظّاهر بَرْقُوق مِنْ تَلْبِيسِه القُماش، والقيام فى خِدْمَتِه، ثمّ كاتَبَ شيخ أيضاً الأمير جمال الدين الأستادار، وفتحَ الله كاتبَ السرّ، وكانَ جمالُ الدين قد انحطَّ قَدْرُه عِنْدَ المَلِكِ النّاصر فى الباطن، واتّفَق السّلطانُ مع الوالِدِ على مَسْكه بدِمَشْق، فَمَنَعَهُ الوالدُ مِن ذلك، ووَعده أنه يكفيه أمْرَه ويمسكهُ بالقُرب مِنَ القاهرة، حتى لا يَفِرّ أحدٌ من أقاربه وحواشيه.

ثمّ أخَذَ الوالدُ مع السّلطان فى أمْرِ شيخ ورفقته فى كلّ يوم وساعة، ولا زَالَ يُخَذِّلُ الملكَ الناصر عَنْ قتالهم، ويحسِّن له الرِّضى عنهم حتى أذْعَن السُّلطان، وشَرَط عليه شرُوطا، فعِنْدَ ذلك رَكِبَ الوالدُ ومَعَه الخَليفَةُ المُسْتعين بالله العبّاس، وفتح الله كاتب السِّرّ، فى يوم السَّبت ثانى عشرين شهر ربيع الأوّل من سنة اثنتى عشرة وثمانمائة المذكورة، وساروا حتى نَزَلوا على جانب الخَنْدَق، وخَرَج شيخٌ وجَلَس بداخل باب القلعة، فأخَذ الوالدُ يُوَبِّخُه على أفعاله، وما وقَع للنّاس والبلاد بسَبَبِه، وهو ساكت لا يَتَكَلَّم، وقيل إنّ شَيْخاً أراد الخُروج إليهم فَغَمَزَهُ الوالدُ ألاّ يخرج، فَفَطِنَ شيخٌ بها، وجلَس بداخل باب القلعة، ثمّ أخَذَ فتحُ الله أيضا يحذِّره مخالفةَ السُّلطان، ويخوِّفه عواقب البَغْىِ، وفى كل ذلك يعتذِرُ شيخٌ للوالد بأعذارٍ مقبولة، ويَسْتَعْفِى من مقابلة السّلطان؛ خوفاً من سوء ما اجترمه، والوالدُ يَشْتَدُّ عليه، ويُلْزِمُهُ بالخُروج معه إلى السلطان فى الظاهر، وفى الباطن يُشيرُ عليه بعدم الخُروج — هكذا حَكَى الملكُ المؤيدُ شيخٌ بعد سلطنته — وطال الكلامُ حتى قام الوالدُ، والخليفةُ، وفتحُ الله، وأعادوا بالجواب على السُّلطان، فأَبَى السُّلطانُ الرِّضى عنه إلاّ أن يَنْزِل إليه، فكلَّم الوالدُ السُّلطانَ فى العَفْوِ عن ذلك، فلم يَقْبل، فكَرَّر عليه السُّؤال مَرّات، وقبَّل يَدَه والأرضَ غيرَ مرّة، واعتذَر عن عدم حضورِه بأعذارٍ مقبولة.

ثمّ عاد الوالدُ وفتحُ الله فقط إلى شيخ، فخَرَج شيخٌ حينئذٍ للوالد فعانَقَهُ الوالدُ، فبَكَى شيخٌ، فقال له الوالدُ على سبيل المُداعَبة والمماجنة: ما مُتّ يا شيخ حتى مَشّيْنا

فى خِدْمتِك ، فقال شيخٌ : لَمْ تَزَل الأكابرُ تمشِى فى مصالح الأصاغرِ ، كلُّ ذلك فى حالِ الوُقُوف للسلام ثمَّ جَلَسا ، وعرَّفَه الوالدُ رِضَى السُّلْطان عليه ، وعرَّفه الشُّروط فقبلها ، وقام قائماً وقبَّل الأرْض غير مرَّة ، وتَقَدَّم فتحُ الله حلَّفَه على طاعة السُّلطان ، وأخذ منه الأمير كَشْبُغا الجمالىّ ، وأَسَنْبُغا ـ وكانا فى حبْس الأمير شيخ ـ بعد ما خَلَع عليهما شيخ وأدْلاهما من سُورِ قلعة صَرْخَد ، ثمَّ أدْلى الأميرُ شيخ ابنَه إبراهيمَ ليتوجَّه مع الوالد ويقبِّل يدَ السُّلطان ، فلمَّا تعلَّق الصغيرُ من أعلى السُّور بالسَّرِيَّاقات[1] ، صاحَ وبَكَى مِنْ خَوْفِهِ أن يَقع ، فَرحِمَه الوالدُ وأمَرَه بردِّهِ إلى القلعة ، فنشَلُوه ثانيا ، وقال الوالدُ : أنا أكْفِيكَ هذا الأمْر ، ولايحتاجُ إلى نُزُولِ الصغير ، ثمَّ تصايَحَ الفريقان من أعلى السُّور ومن جميع خِيَمِ العَسكَر : اللهُ ينصرُ السُّلطان ؛ فرَحاً بوقوع الصُّلْح ، وفرِح أهلُ القلعة من أصحاب شيخ فرَحاً عظيما ؛ لأنهم كانوا قد أشْرَفُوا على الهلاك ، وأمَّا فرَحُ العَسكر فإن غالب أمراء الملك الناصر كانوا غير نُصحاء له ، ولم يُرِدْ أحدٌ منهم أن يَظفَرَ بشيخ ، حتى ولا الوالد ، خشية أن يتفرَّغ السُّلطان من شَيْخ لهم .

ثمّ أصبحوا يوم الأحد ، ركبَ الوالدُ وكاتبُ السرِّ وجماعة من الأمراء ، طَلَعوا إلى قلعة صَرْخد ، وجلسوا على عادتهم ، وخرَجَ شيخٌ وجلَس على باب القلعة ، وأحلف فتحُ الله مَنْ بَقِى مع شيخ من الأمراء ، وهم جانَم من حَسَن شاه نائب حَماة ، وقَرْقَماس ابن أخى دَمُرْداش — وقد فارقَ عمَّهُ دَمُرْداش ، وصار مِنْ حزْب شيخ — وتمراز الأعور ، وأفرج شيخ عن تجَّار دمشق ، الذين كان قَبض عليهم لما خرَج عنِ الطَّاعة وصادرهُم ، ثمّ بعَث شيخٌ بتقدمة إلى السلطان فيها عدّة مماليك .

وتقرَّر الحالُ على أنّ شيخاً المذكور يكون نائب طَرَابُلُس ، وأن يَلبس التشريف

(١) السرياقات : جمع سرياق وهو الحبل الغليظ (عن هامش الدكتور زيادة على السلوك للمقريزى ٢ : ٤٥١) .

السلطانىّ إذا رحل السلطانُ . ثمّ قام الوالدُ ومَنْ معه وسلم على شَيخ ، وعاد إلى السّلطان .

فرحل السلطانُ من وقته ، وسار حتى نزَل زُرْع [1] وباتَ بها ، ثمّ سار حتى قدم دِمَشق يوم الثلاثاء أوّل شهر ربيع الآخر ، بعد أن جَدَّ فى السير ، فنزَل بدار السعادة على عادته .

وأمّا شيخ فإنه نزَل مِنْ قلعة صَرْخد بعد رحيل السّلطان ، ولبس التّشريف السلطانىّ بنيابة طَرابُلُس ، وقبّل الأرضَ على العادة ، ثمّ قبّل يَد الوالد غير مرّة ، ثمّ جهز شيخٌ وَلده إبراهيم صُحْبةَ الوالدِ إلى السّلطانِ الملك الناصر ، ورَحل الوالدُ ، ورحل معه سائر مَنْ تخلّف عنده من الأُمراء ، منهم : بَكْتَمُر جِلّق نائب الشّام — وهو أعدى عدوٍّ للأمير شيخ — وسارُوا حتى وصلوا الجميع دِمشْق فى سابع شهر ربيع الآخر المذكور ، وأحضَر الوالدُ إبراهيم ابن الأمير شيخ إلى السلطان ، فأكرمه السّلطان وخَلع عليه ، وأعاده إلى أبيه ، ومَعهُ خُيولٌ ، وجِمَالٌ ، وثِيابٌ ، ومالٌ كبير .

ثمّ خلع السلطانُ على الشّريف جمّاز بن هِبةِ الله بإمرة المدينة النبويّة — على ساكنها أفضل الصّلاة والسلام — وشرط عليه إعادة ما أخذه من الحاصلِ بالمدينة .

ثمّ فى رابع عشر شهر ربيع الآخر المذكور ، خَرج قضاة مصر الذين كانوا فى صُحْبة الملكِ الناصر مِن دمشق عائدين إلى الديار المصرية ، هم وكثيرٌ منْ الأثقال ، ونَزلُوا بداريّا خارج دمشْق ، ثمّ طُلبت القُضاةُ من يوْمهم فعادُوا إلى مدينة دمشْق ، لعقد [عقد [2]] ابنة السلطان على الأمير بَكْتَمُر جِلّق نائب الشّام ، ثمّ فى يوم الخميس سابع عشره حمل بَكْتَمُر جِلّق المهْر ، وزَفّته المَغانى حتى دخل دار السّعادة إلى السّلطان ، ثمّ عُقد العقدُ بحضرةِ

(١) زرع : من أعمال حوران ، وهى نطق العامة لقرية زره (ياقوت — معجم البلدان ١ : ٦٢١) .

(٢) إضافة يقتضيها السياق .

السلْطان والأمراء والقضاة ، فتولَى العقدَ السلطانُ بنفسه ، وقَبِلَهُ عنْ الأمير بَكْتَمر جِلِّق الوالد ، ثمَّ خرجت القضاةُ منْ الغدِ في يوم الجمعة سائرين إلى مِصْر ، ثمَّ صَلَّى السلْطانُ صلاة الجمعة بالجامع الأمويّ ، وخرج منه وسار منْ دمشقَ بعساكره يُريد القاهرة ، ونَزل بالكُسْوَة ، وخلع على الأمير نكباى باستقرَاره حاجب حُجّاب دمشق ، عوضاً عن عُمر بن الهَيْدَبانيّ .

ثم في تاسع عشره أخلع السلطانُ على الأمير سُودُون الجلَب باستقرَاره في نيابة الكَرَك ، ثم سار السّلطان في ليلة الأحدِ من الكُسْوة ، واستولى بَكْتَمر جِلّق على دِمشق ، ونزل بدار السّعادة ، وسار السّلطانُ حتى نَزَلَ الرَّملة في رابع عشرينه ، وركب منها وسارَ مُخِفًّا يريد زيارة القُدْس ، وبعث الأثقال إلى غَزّة ، ودَخَلَ القُدْس وزارهُ ، وتصدّق بخمسة آلاف دينار ، وعشرين ألف درهم فضّة ، وبات ليلتهُ في القُدس ، وسار منْ الغدِ إلى الخليل عليه السلام فبات به ، ثمّ توجه إلى غَزّة ، فدخلها في سابع عشرينه ، وأقام بها إلى ثاني جُمادى الأولى ، فرحل منها .

وأمّا دِمَشْقُ ، فإنه قَدِمَ إليها في ثالث جمادى الأولى كتابُ السُّلطان إلى أعيان أهلِ دِمَشق بأنّه قد وَلَّى الأميرَ شيخا نيابة طرَابُلُس ، فإن قَصَدَ دِمَشقَ فَدَافِعُوهُ عَنْها وقَاتِلوه ، وسَبَبُهُ أنَّ الأميرَ شيخاً كان قصد دخول دِمشْق ، وكَتَبَ إلى الأمير بَكْتَمرُ جِلّق يَسْتَأْذِنُهُ في الحضور إليها ليقضي بها أشْغَاله ثمّ يرحل إلى طرَابُلُس ، وكان الذي قَصَدَهُ الأميرُ شيخٌ على حَقِيقَتِهِ ، وليس له غرض في أخذ دِمَشْقَ ، فلم يأذن له بَكْتَمر في الحضور إليها وخَاشَنَهُ بالكلام ، فقالَ شيخٌ أنا أسيرُ إلى جهة دِمَشق وَلاَ أدْخلها ، وسارَ حتى نَزَلَ شيخٌ في لَيْلَة الجُمعَة عَاشرَ جمادى الأولى على شَقْحب[1] ، وكان الأمير بَكْتَمر قد خَرَج بِعسَاكِرِ دِمَشق إلى لِقائه ، وَنَزَلَ

(١) شقحب : قرية تقع شمال غربي غباغب ، ويقال تل شقحب ، وهي من ضواحي دمشق (ج ٨ : ١٥٩ ، ج ١٢ : ١ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

بِقُبَّة يَلْبُغَا ، ثُمّ رَكِب لَيْلاً يُرِيدُ كَبْسَ الأمير شيخ ، فَصَدَفَ كَشَّافتَه عِنْدَ خان ابن ذى النُّون فواقعهم ، فبَلَغَ ذلك شيخا فركبَ وأتى بكْتَمُر وصَدَمه بمَنْ مَعه صَدْمَةً كَسَرَهُ فيها ، وانهزَم بكْتَمُر بمن معه إلى جهَة صَفَد ، ومعه قريب من مائة فارس ، وعِدَّةٌ من الأمراء ، وتخلَّف عَنْه جَمِيعُ عَسَاكر دِمَشْق ، وسارَ شيخٌ حتَّى أتَى دِمَشَق بُكْرَةَ يَوْمِ الْجُمْعَة ، ونزَلَ بدَار السّعادة مِنْ غير مُمَانع ، وقد تَلَقَّاه أعيَان الدَّماشقَة فاعتذر إليهم ، وَحلَف لهم أنّه لم يقصِدْ سِوَى النُّزُول بالميدان خَارج دِمشق ليقضى أشغاله ، وأنّه لم يكن له استِعْدَاد لقتال ، وأنّه كتَبَ يستأذن الأمير بكْتَمُر فى ذلك ، فأبى ثم خرج وقاتله فانهزم ، وَسَأل جَمَاعةً من أعيان دِمَشْق أن يَكْتُبُوا للسّلطان بذلك بعد أن كَتَبَ بهذا جميعه محضراً ، وأرادَ إرساله إلى السّلطان فلم يجسر أحدٌ مِنَ الشاميِّين أن يمضِىَ به إلى السُّلطان للملكِ الناصر ؛ خَوْفاً مِنْ سَطْوته .

ثمّ فى ثالث عشره وَلّى الأميرُ شيخ شِهَابَ الدّين أحمد بن الشّهيد نظرَ جَيْش دِمَشْق ، وَوَلّى شمسَ الدين محمّد بن التُّبّانىّ نَظَرَ الجامع الأموىّ ، وَوَلّى تَغْرِى بَرْمَش أستاداره نيابةَ بَعْلَبكّ ، وولّى إياساً الكَرَكِيّ نيابة القُدْسُ ، وولّى مَنْكُلِى بُغَا كاشِف القبليّة ، وولى الشّريف محمّدا محتسبَ دِمَشق .

وأمّا السُّلطانُ فإنّه لمّا خَرَج من مدينة غزّة سار منها حتّى نَزَلَ قرية غِيْتا(١) خارج مدينة بُلْبيْس فى يوم الخميس تاسع جمادى الأولى ، ولمّا استَقرَّ السُّلْطانُ فى المنزلة المذكورة ، وقد خرج الناسُ لتلقى العَسْكَر ، وخرج غالبُ أقارب جمال الدين الأستادار إلى تَلَقِّيه ، وفُرِشَت له الدّورُ بالقاهرة ، فرَكِب الوالدُ بقُمَاش جُلوسِه من مُخَيَّمه منغيرِ أنْ يجْتَمع بالسُّلطانِ ؛ لاتّفاقٍ كان بينهما من دِمَشق فى القَبض على جمال الدّين المذكور لأسبَاب نذكُرُها ، وكان الوالدُ يَكْرَه جَمَالَ الدين بالطّبْع ، على أنَّه باشر أيّام عظَمَتِهِ أُستاداريَّةَ الوَالِدِ ، مُضَافاً إلى أُستاداريَّة السُّلطان ، وصَار

(١) غيتا : إحدى قرى محافظة الشرقية تابعة لمركز بلبيس (على مبارك . الخطط ١٤ : ٦٤) .

يجلسُ مع مباشريه وينفذُ الأمور ، ومع ذلك لم يُقْبِل عليه الوالد ؛ لقلّةِ دينِه وسفْكِهِ الدّماء ، وعظَمِ ظُلْمِه ، وسار الوالدُ منْ مُخيَّمِه ومَمَاليكُه مُشاةٌ حَوْلَه يَقْصِدُ وطاق جمال الدّين .

حدّثني القاضي شرفُ الدين أبو بكر بن العجميّ ، موقّعُ جمال الدين ، وزوجُ بنت أخيه ، قال : كنت جالساً بين يَدَى الأمير جمال الدين الأستادار في وِطاقِه ، وقد حضر إلى تلقّيه غالب أقاربه ، فقيل له إنّ الأمير الكبير تغرى بَرْدى قادمٌ إلى جِهَتِكَ ، فلمَّا سَمِعَ جمالُ الدّين ذَلِكَ تغيَّر لونُه وقال : هذا منْ دُونِ عَسْكر السّلطانِ لا يَعُودني في مرضي ، فما مجيئُه في هذا الوقت لخير . ونهض من وقته قَبْل أن نَرُدَّ عليه الجواب ، وخَرج من خامهِ ماشياً إلى جِهَةِ الْوَالد خطواتٍ كثيرة غالبها هَرْولة حتى لَقِيَ الوالد ــ وهو راكب ــ فقبَّل رِجْلَهُ فِي الرّكاب . فمسكه الوالد من رأسِهِ ثمّ أمر به نُقَيَّدُ فِي الحَال ، وقالَ لِمَنْ تَوَلَّى تَقْييده هذا الأميرُ جمال الدين عظيم الدَّوْلة ، أبْصِر له قيداً ثقيلا يصلح له ، فبكى جمالُ الدين ودخل تَحْتَ ذَيله .

ثمّ أمر الوالد بالقبض على جَميع أقاربه وحَواشيه ، فقُبض على ابنه أحمد ، وعلى ابنيْ أخته أحمد وحمزة ، وكان الوالد نَدَبَ جماعةً من مماليكه إلَى القاهرة للحَوْطة على دور جمال الدين وأقاربه ، ثمّ أخذهم الوالد[1] ، وأركبهم بالقُيود ، وسار بِهمْ إلَى جهة الدّيار المصريَّة ، كلّ ذلك والسُّلْطانُ لاَ يَعْلَمُ بما وقع إلاَّ بعد سَيْرِ الوالد إلى جهة القاهرة ، وأخَذَ جمالُ الدين في طريقه يترقَّقُ للوالد ويمدُه ويسأله القيام في أمْرِه ، كلّ ذلك والوالد لا يعتبه إلاَّ على قَتْلِ أستاداره عماد الدين إسماعيل وأخْذِ ماله .

وكان خَبَرُ إسماعيل مع جمال الدين المذكور أن [عماد الدين][2] إسماعيل كانَ أستادار الوالد ، وكانَ لَهُ عزٌ وثروةٌ ومعرفةٌ ورئاسةٌ قبل أن يترأس جمال الدين ، فكان يستخِفُّ بجمالِ الدين ، ويُطْلق لِسانَه في حقّه ، وجمال الدين لا يصل إليه من انتمائه للوالد ، فأخذ جمالُ الدين يَسْعَى في أستاداريَّة الوالد مدّة طويلةً

(١) زادت نسخة باريس بعد كلمة الوالد « زكى الله عمله ، وتغمده برحمته ، وجعل الخير في عقبه » (تعليق الدكتور پوپر ج ٦ : ٢١٧ من هذا الكتاب ط كاليفورنيا) .

(٢) الإضافات للتوضيح .

حتى ولاّه الوالد أستاداريّته ، بعد أن بذل جمال الدّين مالاً كثيراً للوالد ولحواشيه ، واستأذن الوالدَ أنّه يقبضُ على [عماد الدين][1] إسماعيل ويؤدِّبه ويُظهر للوالد فى جهته جملة كبيرة من الأموال ، وفى ظنّ الوالد أنّه يوبّخه بالكلام ، أو يهينه ببعض الضرب ثمّ يُطلقه ، فأذن له الوالد فى ذلك ، وكان [عماد الدين][2] إسماعيل المذكور مُسافراً ، فلمّا قدِمَ مِنَ السّفر رَكِبَ وأتى إلى الوالد ، وكانَ الوالدُ تغيّر عليه قَبْلَ ذلك لسَببٍ مِنَ الأسْبَاب ، فقبَّل يَدَ الوالدِ ، وخَرَج من عِنْدِه فصدَفَ جمال الدين عندَ مَدْرَسَة سُودُون مِنْ زَادَة ، فقالَ له الأمير جمال الدين : بسم الله يا أمير عماد الدين ، أينَ الهَديّة ؟ فعادَ مَعَهُ عمادُ الدين ، وحالَ وُصُولِهِ إلى بَيْتِهِ أجْرَى عليه العُقُوبَة ، وأخَذَ منه أرْبَعين ألفَ دينار ، ثمّ ذَبَحَهُ من لَيْلَتِهِ ، فلمّا سَمِعَ الوالدُ بقتْلَته مِنَ الغَدِ كادَ عقلُهُ أن يَذْهَب ، وأرادَ الرّكوبَ فى الحالِ والطّلُوعَ إلى السُّلْطان ، فقال له حَوَاشِيه وخَوَاصّه : يا خوَنْد قد فات الأَمْرُ ، وما عَسى أنْ يصنَعَ فيه الملكُ الناصرُ مع خصوصيّته عنده ، فسَكَتَ الوالدُ على دَغَل[3] ، وأخذ فى توْغِير خاطرِ السُّلطان عليه ، ويعرِّفُ السُّلْطان بأفعال جمال الدين ، ولا زَالَ به حَتّى تَغَيَّر عليه مع أمورٍ أُخَر وقَعت مِن جمال الدين ، فكانَ ذلك أكبرُ أسباب ذهاب جمال الدين ، وأرَاحَ اللهُ المسلمين منه .

ثمّ رَكِبَ السلطانُ من غِيتَا وسارَ حتى نزل بالخانقاة[4] ، ثمّ سار حتى طَلَعَ إلى قلعة الجبَل فى يوم السّبْت حادى عشر جمادى الأولى المذكور ، بعد أن زُيّنَت له القاهرةُ ومصر ، وخَرَج النّاسُ لِتَلَقّيه ، فكان لدخوله يَوْمٌ عَظيم ، وحَمَل الوالدُ على رَأْسِهِ القُبّة والطّير[5] ، ولَمّا اسْتَقَرّ السُّلطان بقلعة الجبَل — وقَدْ حُبس بها جمالُ الدين —

(١ ، ٢) الإضافات للتوضيح .

(٣) الدغل : الخيانة والحقد المكتتم (لسان العرب ١٣ : ٢٦٠) .

(٤) المراد خانقاة سرياقوس .

(٥) القبة والطير : يراد بهما المظلة التى كانت من رسوم الخلافة الفاطمية فى مصر ، وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، فى أعلاها طائر من فضة (عن تعليق الدكتور زيادة على السلوك للمقريزى ١ : ٩٣٩) .

ثمّ رسَمَ السُّلطانِ للوالد أن يَتَسَلَّم جمال الدين ويعاقبَه ، فقال الوالدُ : يامَوْلاَنا السلطان جمال الدين كلبٌ لا يَتَسَلَّمهُ إلاّ كَلْبٌ مِثْلُه ، فقال تاجُ الدِّين عبدُ الرَّزَّاق[1] ابنُ الهيصم : ياخَوَنْد ، أنا ذلك الكَلْب ، فَسَلَّمَهُ السلطانُ له .

وأمّا أسْبابُ القَبْضِ على جمال الدين فكثيرةٌ ، منها : ما فَعَلَه ليلة بَيْسان لمّا استَشاره السلطان هو وفتح الله ، وفرّ الأمراء ، وكان جمال الدين لمّا خَرَج مِنْ عند السُّلْطان أرْسَل إلى الأمراء بذلك ، وطَلَب جمال الدين صَيْرَفيّه عبدَ الرحمن وأمرَه فَصَرّ للأميرِ شيخٍ المحموديّ نائب الشّام بخمسة آلاف دينار يُرْسلها له صُحبَة الأمراء المتوجّهين في الليل إليه ، وإلى تمِرْاز بثلاثة آلاف دينار ، وهو رأْس الأمراء الذين عَزَمُوا على الفرار ، وعلى رُفقَتِه : سُودُون بُقْجَة ، وعَلاّن ، وإينال ، لكلّ وَاحِدٍ بألْفى دينار ، وبَعث بالمبلغ إليهم ، وأعلمهم بما عزم عليه[2] السلطان منَ القَبْض عليهم ، فكان هذا من أكبر الأسباب في هلاك جمال الدين ، ولم يعلم السلطانُ ذلك إلاّ بعد أيّام .

ومنها أنّ السلطانَ الملكَ الناصرَ لم يكن معه في هذه السّفرة من الذّهَب إلاّ النَّزْر اليسير ، فَسأل جمال الدين في مبلغٍ فقال جمال الدّين : مامعى إلاّ مبلَغا هيّنا ، فَندَبَ السلطانُ فتح الله كاتبَ السرّ في الفَحْص عَنْ ذلك ، فقال له فتحُ الله : قد رافق جمال الدين في هذه السَّفرة تاجُ الدين عبد الرزّاق بنُ الهيصم كاتبُ المماليك ، وأخوه مجدُ الدين عبد الغنيّ مستوفي الديوان[3] المفْرَدِ فاسألهما[4] وَتَلَطَّفْ بهما تَعْلَم ما معَ جمال الدين من الذّهب ، فطلبهما السلطان ، وفعَل ذلك ، فأعلماه بليلة بَيْسان ، وما فَعَلَه جمال الدين من إرسال الذّهب ، وإعلام الأمراء بقَصْدِ السّلطان حتى فَرُّوا ولحقُوا

(١) هو عبد الرزاق بن إبراهيم ، تاج الدين بن سعدالدين القبطي المصري ، يقال إنه من ذرية المقوقس ، ولد بالقاهرة ، وتنقل في الخدم وترقى إلى أن ولى الأستادارية ثم الوزر ، ومات في عشرين ذي الحجة سنة ٨٣٤ هـ . (السخاوي – الضوء اللامع ٤ : ١٩١) .

(٢) في الأصول « عليهم » .

(٣) مستوفي الديوان المفرد : هو كاتب الديوان الذي يضبط ما يتبعه ، وينبه إلى مصالحه من استخراج الأموال ونحو ذلك . والديوان المفرد هو الخاص بما أفرد للسلطان (عن تعليق الدكتور زيادة على السلوك للمقريزي ١ : ١٩٢) .

(٤) في الأصول « فاسألهم » .

بالأمير شيخ ، فقال السلطان : من أينَ لكم هذا الخبَر ؟ فقالاَ : صيرفيّة عبدُ الرحمن ينزل عندنا وعند تقيّ الدين عبد الوهّاب بن أبى شاكر ناظر ديوان المفْرد ، وهو الحاكى ، فصدّق السلطان مقالَتهما وأسرَّها فى نفسه ، واستشار الوالدَ فى القبض على جمال الدين ، فقال لَهُ الوالدُ : المصلحةُ تَرْكُه حتى يعودَ إلى جهة القاهرة ، ويُقبَض عليه وعلى جميع أقاربه ؛ حتى لا يفوت السّلطان منهم أحدٌ ، وتكون الحوطةُ على الجميع معاً ، فأعجَب السُّلْطَان ذلك ، وسكت عن قبضه بالديار الشامية .

ثمّ إن [تاج الدين عبد الرزّاق[١]] بن الهيْصم لا زال حتى أوْصل عبد الرحمن الصّيرفىّ إلى السلطان ، وحكى له الواقعة من لفظه فى مجلس شرابه ، وشرب معه عبد الرحمن فى تلك الليلة .

ومنها : أنّ القاضى محيي الدين أحمد المدنىّ كاتب سرّ دِمَشْق لَقِيَ ابن هيازع عند باب الفَرَادِيس[٢] بدمشق ، فأعلمه ابن هيازع أن أصحابه وَجَدُوا عند مدينة زُرْع ساعياً مَعَه كُتُب ، فقبضُوا عليه وأخذُوا مِنْهُ الكُتُبَ وجاءوا بها إليه ، وكان محيي الدين المذكور معزولاً عن كتابة سِرّ دِمشق من مُدّة ، فأخذ الكتبَ ولم يدْرِ ما فيها وَسَلَّمها لِفَتْح الله ، فأخذ فتح الله الكتب ومحيى الدين إلى السّلطان وفُتحت الكتب ، وقُرِئَتْ بحضرة السّلطان ، فاذا هى من جمال الدين إلى الأمير شيخ ، فزَاد السلطان غَضَباً على غضبه ، وأخفى ذلك كلّه عن جمال الدين لأمرٍ سبق ، وأخذ السلطان يغالطُ جمال الدين والتغيير يظهر من وجهه ؛ لشَبيبَته وشدّة حقْدِه عليه ، فتَقهقر جمالُ الدين قليلاً ، وأخذ يغالِطُ السلطانَ ، ويسأله أن يُسَلِّمَ له ابن الهيْصم وابنَ أبى شاكر ، وألَحَّ فى ذلك والسُّلطانُ لاَ يُوافِقهُ وَيَعِدُه ويمنّيه ، إلى أنْ نَزَل السلطانُ بمدينة غَزَّة ، وأظْهرَ لجمال الدين الجفاء ، وأرادَ القبضَ عليه ، فلم يُمَكِّنْه الوالدُ ، فتَرَكَه السُّلطانُ إلى أن نَزَلَ بلُبَيْس وَوَقَع ما حكيناه .

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) باب الفراديس : هو أحد أبواب جامع دمشق وينسب إلى محلة كانت تسمى الفراديس ، والفراديس بلغة الروم تعنى البساتين ، وهو الباب الرابع من أبواب المسجد وعليه منارة (ج ٤ : ١٥٧ ؛ ج ٦ : ١٤٨ ؛ ج ١١ : ١٣١ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

وأما أصل جمال الدين ونَسَبُه فإنّه يوسف بن أحمد بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن جعفر ابن قاسم البيرىّ الحلبىّ البجاسىّ ، كان أبوه يتزيّ بزىّ الفقهاء ، وكان يخطب بألبيرة ، فتزوّج بأخت شمس الدين عبد الله بن سهلول ، وقيل سحلول ، المعروف بوزير حلب ، فولدت له يوسف هذا ، ولقّب بجمال الدين ، وكُنِّى بأبى المحاسن هو وأخوته ، ونشأ جمال الدين يوسف المذكور بألبيرة ، ثمّ قَدِم البلادَ الشّاميةّ على فاقةٍ عظيمة ، وتَزَيَّا بزِىّ الجند ، وخَدَم بلاصيًا[1] عند الشّيخ علىّ كاشف بَرّ دِمَشْق ، ثمّ عند غيره من الكُشّاف ، وطالَ خموله ، وخالط[2] الفقرَ ألوانا إلى أن خَدَمَ عند الأمير بَجاس — وهو أمير طبلخاناة — بعد أمور يطول شرحُها ، ثمّ جعله بَجَاسُ أستاداره وتموَّلَ وعُرف عند الناس بجمال الدين أستادار بجاس ، وكَثُر مالُه ، وسَكَنَ بالقصر بين القَصْرَين ، واتّهم أنّه وجَدَ به من خَبايَا الفاطِميِّين خبيئة ، ثمّ خَدَم بعد بجاس عند جماعة من الأمراء إلى أن عُدَّ من الأعيان ، وصَحِب سعد الدين إبراهيم بن غراب ، فنوّه ابنُ غراب بذكره إلى أن طَلَب أن يَلِىَ الوزر فامتنع من ذلك ، وطلب الأستاداريّة ، فخلَع السلطانُ عليه باستِقْرَاره أستادارا عوَضاً عن سعد الدين بن غراب المذكور ، بحكم توجُّه ابن غراب مع يَشْبُك الدّوادار إلى البلاد الشّاميّة ، وذلك فى رابع شهر رجب سنة سبع وثمانمائة ، ومن يومئذ أخذ أمرُه يظهر حتّى صار حاكم الدّولة ومُدَبِّرَها ، بعد أن قَتَل خلائق مِنَ الأعْيان لا تدْخُل تحت حَصْر مِنْ كُلِّ طائفة ، بالعُقُوبة والذَّبْح والخَنْقِ وأنواع ذلك .

قلتُ : لا جَرَم أنّ الله تعالى قاصَصَهُ فى الدنيا ببَعْضِ ما فَعَلَهُ ؛ فعُوقب أيّاماً بالكَسَّارَات وأنواع العذاب ، ثمّ ذُبِحَ فى ليلةِ الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة ، وأراحَ اللهُ الناسَ من سوء فِعْلِه وقُبْح منظره — انتهى .

---

(١) البلاصى : لم يتيسر للمحقق تعريف بهذا المصطلح فى المراجع المتخصصة ، ولعل الكلمة مأخوذة من « البلص » وهو أخذ المال من الرعية ظلماً أو بدون وجه مشروع ، أو طلب الشىء فى خفاء ، أو من « البلاصى وهو الجرة ذات الأذنين التى تنسب إلى « البلاص » إحدى قرى صعيد مصر (تاج العروس ٤ : ٣٧٥ ، المنجد ٤٨) .

(٢) فى الأصول « خابط ، وخلط » وما أثبته يتفق مع السياق .

ثمّ فى يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى المذكور خَلع السلطانُ على تاج الدين عبد الرزّاق بن الهَيْصم ناظر الإسطبل ، وكاتب المماليك السلطانيّةِ ، باستقراره أستاداراً عوضاً عن جمال الدين يوسف البيرىّ — بحكم القَبْض عليه — وترك لبس المباشرين ولبس الكَلَفْتاة(١) ، وتقلّد بالسيف وتزيّا بزىّ الأمراء ، وخلع على أخيه مجد الدين عبد الغنى بن الهيصم مستوفى ديوان المفرد ، واستقر فى نظر الخاصّ ، وخَلع على سعد الدين إبراهيم بن البشيرىّ ناظر الدّولة ، واستقر فى الوزارة ، وكل هذه الوظائف كانت مع جمال الدين الأستادار ، وخلَع على تقىّ الدين عبد الوهّاب بن أبى شاكر واستقرّ ناظر ديوان المفرد ، وأُضيف إليه أسْتادارية الأملاك والأوقاف السلطانيّة ، عِوضاً عن أحمد ابن أخت جمال الدين ، وخلع على تاج الدين فضل الله بن الرَّملىّ واستقرّ ناظر الدَّولة ، وخَلع على حسام الدين حسين الأحول — عدوّ جمال الدين — واستقر أمير جاندار .

ثمّ قدِم الخبرُ بأخذ شيخ لدمشق ، وفرار بَكْتَمُر جِلّق إلى صفَد ، وأرسل الأمير شيخُ محضراً يتضمن أنه كان يُريدُ التوجّه إلى طرابلُس، فلما وصل شقحب قصده بكْتمُر جِلّق وقاتله ، فركب ودفع عن نفسه ، وشهد له فى المحضر جماعةٌ كبيرة من أهل دمشق وغيرها ، وكان الأمرُ كما قالهُ شيخ ـ حسبما ذكرناه قبل تاريخه ـ وسكت الوالدُ ، واحتار فى نفسه بين بَكْتَمُر وشيخ ، فإنّه كان يميلُ إلى كل منهما .

ثمّ قدِم فى أثناء ذلك الأميرُ بَكْتَمُر جِلّق إلى القاهرة فى سابع عشرين جمادى الأولى ، بعد دخول السلطان إلى القاهرة بنحو ستّة عشر يوما ، وقدِم صُحبة بَكْتَمُر المذكور الأمير بُرْدبَك نائب حَماة ، والأمير نكْبَاى حاجب دِمشق ، والأمير ألطُنبُغا العثمانىّ ، والأمير يشْبُك الموساوىّ الأفقم نائب غزّة ، فخرج السلطانُ إلى لقائهم ، ودَخل بهم مِنْ باب النَّصر ، وشقّ القاهرة وخرَج من باب زُوَيْلة ، ونَزل بدار الأمير طوخ

(١) الكلفتاة : نوع من غطاء الرأس وهى الكلوتة المزركشة . وانظر تعليق الدكتور محمد مصطفى زيادة (على السلوك للمقريزى ١ : ٤٩٣) فى شرح هذا المصطلح وإرجاعه إلى أصوله .

ـ أمير مجلس ـ يعودُه فى مرضه ، ثمّ طلعَ إلى القلعة ، ولم يعتب السُّلطان على الوالد فى أمر شيخ ، ولا فاتحه الوالدُ فى أمره حتى قال الوالدُ لبعض مماليكه : كأن السلطان عذر الأمير شيخاً فيما وَقع مِنْه ـ والله أعلم .

وفى هذه الأيَّام ، تناوَلَت جمالَ الدين وحواشيَه العقوباتُ ، وأخذُوا له عدّة ذخائر من الأموال ، وما استهلّ جمادى الآخرة حتى كان مجموعُ ما أُخذ منه من الذّهب العيْن المصرىّ تسعمائة ألف دينار وأربعة وستّين ألف دينار ، وهو إلى الآن تحْتَ العقوبة والمصادَرة .

ثمّ ورَد الخبر على السلطان من البلاد الشامية ، من دَمُرْدَاش نائب حلَب ، بأنّ الأمير نَوْرُوزاً الحافظىّ قدِم إلى حَلب ، ومعه يَشْبُك بن أزْدَمر وغيره ، وأنَّ الأمير دَمُرْدَاش المحمّدى نائب حلب تلقَّاه وأكْرَمه وحلَّفه للسلطان ، ثمّ كتَب يُعلِم السلطانَ بذلك ، ويسأله أن يُعيده إلى نيابة دمشق ، وأن يولّى يَشْبُك بن أزْدَمُر نيابة طرابُلُس ، وأن يُولّى ابنَ أخيه [تغرى بردى](1) المعروف بسيِّدى الصغير نيابة حَماة ، فأجاب السُّلطانُ إلى ذلك ، وأرْسل الأميرَ مُقْبلاً الرُّومىّ فى البحر إلى نَوْرُوزٍ المذكور وعلى يدِه التّقليد والتّشريف بنيابة الشّام ، فوَصل إليه مُقْبل الرومىّ المذكور فى رابع شعبان ، فلَبِس نَوْرُوزُ التشريف ، وقبّل الأرض ، وجدَّد اليمين للسُّلطان بالطّاعة على كلّ حال ، وعدم المخَالفة ، ولما بلغَ شيخاً ذلك فَرَّ منهُ جماعةٌ مِن الأمراء وأتَوْا إلى الأمير نَوْرُوز ، منهم : تمُرْبغا العلائىّ المشطوب ، وجانَم من حسن شاه نائب حَماة ، وسودُون الجلَب . وجَانِبَك القرمىّ وبُرْدبَك حاجب حلب ، فلمّا وقع ذلك أرْسل الأميرُ شيخٌ إلى السلطان الملك الناصر إمامَ الصَّخرة(2)

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) الصخرة : أى مسجد الصخرة بالقدس ، وقد بناه الخليفة عمر بن الخطاب على الصخرة المقدسة بعد أن نظفها من القاذورات حيث جعلتها الملكة هيلانه ـ أم الملك قسطنطين ملك الروم ـ مكاناً لإلقاء القمامة عناداً لليهود ، ثم جاء الخليفة الوليد بن عبد الملك وبناه على ما هو عليه (القلقشندى ـ صبح الأعشى ٤ : ١٠١)

وجُنْديًّا آخر بكتابه ، فقدِما إلى القاهرة فى ثانى جمادى الآخرة المذكور وعلى يدهما أيضاً محضَرٌ مكتوبٌ ، فغضِب السلطانُ غضباً عظيما ، وَوسَّط الجندىّ ، وضَرب إمام الصخْرة ضرباً مُبَرِّحاً وسجنه بخزانة شمائل[1] .

ثمّ مِن الغد أُنزل جمالُ الدين وابنه أحمدُ على قفصَىْ حمّال إلى بيت تاج الدين بن الهيصَم ، ثمّ قَبض السُّلطان على الأمير بلاط أحد مقدّمى الألوف ، وعلى الأمير كُزُل العجمىّ حاجب الحجّاب وقيدهما وأرسلهما إلى سجن الإسكندرية .

ثمّ فى حادى عشر جمادى الآخرة نُقل جمال الدين الأستادار — فى قفص حمال أيضاً — من بيت ابن الهَيْصَم ، بعد ما قاسَى محناً وشدائد ، إلى بيت حُسام الدين الأحول ، فتنوّع حسامُ الدين فى عقوبته أنواعاً ؛ لما كانَ فى نفسه منه ، وأخذَ فى استصفاء أمواله ، فاستحثه القومُ فى قتله خشية أن يحدُث فى أمره حادثٌ ، فقتله خنقاً ، ثمّ حزّ رأسه من الغد وحَمله إلى السُّلطان حتى رآه ، ثمّ أعادَهُ فدُفن مع جثّته بتربته بالصَّحراء ، وقد ذكرنا تاريخ مَوْته عند القبض عليه .

ثم أصبح السلطان خلع على الأمير يَلبُغا الناصرىّ باستقراره حاجب الحجاب — بالدّيار المصرية — بعد مسك كُزُل العجمىّ .

ثم وَرد الخبرُ بأن الأمير شيخاً تَوجه لقتال نَوْرُوز بحماة ، فتوجه وحصره بها ، وأنّ الأمير يشبك الموساوىّ نائب غَزة كان بينه وبين سودون المحمدى وعَلاّن واقعةٌ قُتل فيها جماعة ، وفرّ يَشْبُك الموساوى إلى جهة الديار المصرية ، وأن عَلاّن جُرح فى وجهه فحُمل إلى الرملة فمات بها .

(١) خزانة شمائل : تنسب إلى الأمير علم الدين شمائل والى القاهرة فى أيام الكامل بن العادل أبى بكر ابن أيوب ، وكانت من أشنع السجون ، وقد هدمها السلطان المؤيد ، وبنى مكانها ومكان جملة من الدور التى هدمها مسجداً ومدرسة لصق باب زويلة — وفاء لنذر نذره .

قلتُ : وعَلّان هذا هو خلاف عَلّان جِلَّق نائب حَماة وحلب ـ الذى قتله جَكَم مع طُولو نائب صَفَد فى سنة [ثمان و] [١] ثمانمائة ـ حسبما تقدّم ذكره ، وأن سُودون المحمدى بَعث يسأل شيخاً فى نيابة صفد فأجابه إلى ذلك ، كل هذا وَرَد على السلطان فى يوم واحد .

ولما طالَ حصارُ شيخ لنَوْرُوزٍ على حماة ، خرَج دَمُرداش نائب حَلب وقدِم إلى حماة ـ نجدةً لنَوْرُوز ـ ومعه عساكر حلب ، فلمّا بلغ شيخاً قدوم دَمُرداش ، بادر بأن ركب وترك وطاقه وأثقاله وتوجه إلى ناحية العرُبان[٢] فركب دَمُرداش بُكرةَ يوم الأحد ، وأخذ وطاق شيخ واستولى عليه ، فعاد شيخ وتقاتلا بمن معهما قتالاً شديداً قُتل فيه جماعةٌ كبيرة ، منهم : بايَزيد ـ من إخوة نَوْروز الحافظىّ ـ وأُسر عدّةٌ كبيرة من أصحاب دَمُرداش ، منهم : الأمير محمد بن قُطْبَكى كبير التركمان الأوشرية[٣] ، وفارس أمير آخور دمرداش ، واستولى الأمير شيخٌ على طبلخاناة الأمير دَمُرداش ، وكسر أعلامه ، ثم ركب شيخٌ وسار يريد حمص .

ثم إن الأمير شيخاً بعد مدّة أرسل يخادع السلطان بكتابٍ يستَرْضيه ويقُول فيه : إنه باقٍ على طاعة السلطان ، وحكى ماوقع له مع الأمير بَكْتَمُر جِلّق نائب الشام ، ثم ما وقع له مع الأمير نَوْرُوز ، ثم مع الأمير دَمُرداش وأن كلّ ذلك ليس بإرادته ولا عن قصده ، غير أنه يدافِعُ عن نفسه خوفاً مِنَ الهلاك ، وأنّه تابَ وأنابَ ورجع إلى طاعة السُّلطان ، وأرسلَ أيضا للوالدِ بكتابٍ مثل ذلك ، فلم يتكلّم الوالدُ فى حَقّهِ بكلمة ، ثم أخَذ شيخٌ يقولُ عن نَوْرُوز أشياء ويُغْرِى السُّلطان به ؛ من ذلك أنّه يقول : إنّ نَوْرُوزا يريدُ المُلْكَ لنفسه ، وهو حريصٌ على ذلك من أيّام السُّلطان السّعيد الشهيد الملك الظاهر

(١) سقط فى الأصل .

(٢) أى عربان حماة فقد كانت لهم شوكة وكانوا يمثلون قوة يضرب حسابها (ج ١٢ : ٢٢١ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) التركمان الأوشرية : إحدى بطون التركمان الاثنى عشرة بطناً . ويقال لهم « أفشار أو أوشار » (البدر العينى — السيف المهند ٢٠) .

بَرْقُوق ، وأنَّه لا يُطيعُ أبداً ، وأنَّه هوَ لا يريدُ إلاَّ الانتماء إلى السُّلطان فقط ، ورَغْبتَهُ فى عَمَل مصالح العِبادِ والبِلادِ ، ثم كَرَّرَ السؤالَ فى العَفْو والصَّفْح عنه فى هذه المرّة ، فلم يمْشِ ذلك على الملكِ الناصر ولم يلتَفت إلى كتابه .

وشرَعَ السُّلطان فى التّنزّه ، وأكْثَر من الرّكوب إلى برّ الجيزةِ للصَّيْد فى كلّ قليل ، ووقع منه ذلك فى الشهرِ غير مرة ، ولمَّا عادَ فى بعضِ ركوبِهِ فى يوم الخميس ثالث عشرين شوّال من سنة اثنتى عشرة وثمانمائة المذكورة ، ووصل قريباً من قناطر السّباع[1] عند الميدان الكبير أمر السُّلطان بالقبض على الأمير قَرْدَم الخازندار ، وعلى الأمير إينال المحمّدى السّاقىّ — المعروف بضُضَع — أمير سلاح ، فقُبِضَ فى الحال على قَرْدَم ، وأما إينال ضُضَع المذكور فإنّه شَهَرَ سَيْفَه وساقَ فرسه ومَضَى ، فلم يلحقه غيرُ الأمير قُجَق الشَّعبانىّ ، فأدركَهُ وضَرَبَهُ بالسَّيف على يده ضربةً جرحتْه جُرْحاً بالِغاً ، ثم فاتهُ ولم يَقْدِر عليه ، وطلَعَ السلطانُ القلعة ، كلّ ذلك وهو لا يملك نَفْسَهُ على فرسِهِ من شِدَّة السُّكر ، ونُودِى فى الحالِ بالقاهرة على الأمير إينال المحمَّدىّ المذكور ، فلم يَظْهَر له خبرٌ ، وقُيِّدَ قَرْدَمُ وحُمل إلى الإسكندريَّة من يومه .

وأمّا الأميرُ شيخ ، فإنَّه كمَّل فى هذا الشهر — وهو ذو الحجّة من سنة اثنتى عشرة وثمانمائة — سبعةَ أشهرٍ وهو يقاتل نَوْرُوزاً ودَمُرْداش ، ويحاصِرُهما بحماة ، ووقع بينهم فى هذه المدّة المذكورة حُرُوبٌ وخطوبٌ يطولُ شرْحُها ، وقُتل بينهم خلائقُ لا تُحْصى ، واشتدّ الأمر على نَوْرُوز وأصحابه بحَماة ، وقلَّت عندهم الأزوادُ ، وقاسوا شدائدَ حتّى وقع الصلحُ بينه وبين الأمير شيخ ؛ وذلك عندما سَمِعُوا بخروجِ الملكِ الناصرِ فَرَج إلى البلاد الشَّاميَّة ، وخاف نَوْرُوزُ إنْ ظَفِر به

(١) قناطر السباع : أنشأها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى . ونصب عليها تماثيل سباع من الحجارة . لأن شعاره كان على شكل سبع . فقيل لها قناطر السباع . وتقع على الخليج المصرى . وتتكون من قنطرتين ، وقد اندثرت بعد ردم الخليج . ومكانها اليوم ميدان السيدة زينب عند ملتقاه بشارع الكومى (ج ٧ : ١٩١ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

الملكُ الناصرُ لا يُبقيه ؛ فاحتاج إلى الصُّلح ، وحَلَف كلٌّ من نوْرُوز وشيخ لصاحبه ، واتَّفقا على أنَّ نوْروزاً يمسك دمُرْداش نائب حَلَب ، وأنَّ شيخا يُمْسك ابن أخيه قَرْقَماس — المدعوّ سيِّدى الكبير — ففطن دَمُرْداش بذلك ، وأرسل أعلم ابن أخيه قَرْقَماس المذكور مع بعض الأعوان ، وهَرب دَمُرْداشُ من نَوْرُوز إلى العِجْل ابن نُعَير ، وفرّ ابنُ أخيه قَرْقَماس من عند شيخ إلى أنْطاكيَّة ، والعجبُ أنَّ قَرْقَماس المذكور كان قد صار من حزب شيخ ، وترك عمَّه دَمُرْداش وخالفَهُ وصار يقاتل نَوْروزاً وعمه هذه المدة الطويلة ، وعمه دَمُرداش يرسلُ إليه فى الكفِّ عن قتالهم ، ويدعوه إلى طاعةِ نَوْروز ويوبخهُ بالكلام وهو لا يلتفت ، ولا يبرَحُ عن الأمير شيخ ، حتى بَلغهُ من عمِّه أنّ شيخاً يريدُ القبضَ عليه ، فعند ذَلك تَركهُ وهرَب ، ثمّ إنّ الأمير نَوْروزاً قصد حلب وأخذَها واستولى عليها ، وهرَب مُقْبل الرومىّ ، الذى كانَ حملَ للأمير نَوْرُوز التّقليد بنيابة الشام ، ولحقَ بالسّلطان على غزّة .

وأمّا السلطانُ الملكُ الناصر ، فإنه أخذَ فى التّجهيز إلى السفر نحو البلاد الشّامية ، وعظم الاهتمام فى أوّل محرم سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، وخلَع فى عاشر المحرّم على الأمير قَراجا شادّ الشراب خاناة باستِقراره دَوَاداراً كبيراً ـ دفعةً واحدة ـ بعد موت الأمير قُجاجق ، وخلع على سُودون الأشقر باستقراره شادّ الشّراب خاناة عوضاً عن قَراجا المذكور ، ثمّ عمل السلطان فى هذا اليوم عُرْس الأمير بَكْتَمُر جلَّق ، وزُفّت عليه ابنةُ السلطان الملك الناصر ـ التى كان عُقدَ عليه عقدُها بدمشق ـ وعمرُها يوم ذلك نحو سبع سنين أو أقلّ ، وبنى عليها بَكْتَمُر فى ليلة الجمعة حادى عشر المحرّم المذكور ، وأخذ السّلطانُ فى أسباب السفر ، وتهيأ وأنفقَ على المماليك السلطانيّة وغيرهم من الأمراء ، ومَنْ له عادةٌ بالنّفقة ، فأعطَى لكلّ مملوكٍ من المماليك السلطانية عشرين ألف درهم ، وحمل إلى الأمراء مقدّمى الألوف لكلّ واحد ألفى دينار ،

ما خلا الوالد وبَكْتَمُر فإنه حمل لكلٍّ منهما ثلاثة آلاف دينار، وأعطى لكل أميرٍ منْ أُمراء الطّبلخانات خمسمائة دينار، ولأمراء العَشَرات ثلاثمائة دينار.

ثم خرج الأمير بَكتَمُر جِلّق جاليشاً من القاهرة إلى الرَّيدانيّة، وصحبته عدّةٌ من أمراء الألوف وغيرهم، فى يوم الخميس ثالث عشرين صفر، فالذى كانَ معه من أمراء الألوف هم: —

يَلْبُغا الناصرى حاجبُ الحجّاب، وأُلْطُنْبُغا العثمانىّ، وطُوغانُ الحسنىّ رأس نوبة النّوب، وسُنقر الرُّومى، وخيربك، وشاهين الأفْرم، وعِدةٌ كبيرةٌ من أمراء الطّبلخانات والعشَرات، وسار بَكْتَمُر بعد أيام قبل خروج السلطان.

ثمّ ركب السلطان من قلعة الجبل ببقيّة أمرائه وعساكره فى يوم الإثنين رابع شهر ربيع الأول من سنة ثلاث عشرة المذكورة، ونزل بالرّيدانية، وهذه تجريدةُ الملك الناصر السادسة إلى البلاد الشامية، غير سفرة السعيدية، وخلع على أرغون من بَشْبُغا الأمير آخور الكبير بنيابة الغيبة على عادته، وأنه يستمر بسكنه بباب السلسلة، وأنزلَ الأمير كَمَشْبُغا الجمالى بقلعة الجبل، وجعل بظاهر القاهرة الأمير إينال الصصلانى الحاجب الثانى أحد مقدمى الألوف، ومعه عدّة أمراء أخر، والذى كان بقى مع السلطان — من أمراء الألوف وخرجوا صُحبته — الوالد رحمه الله، وهو أتابك العساكر، وقُجق الشعبانى، وسودُون الأسَنْدَمُرى، وسُودون من عبد الرحمن، وسُودُون الأشقر شاد الشّراب خاناة، وكَمَشْبُغا الفيسى المعزول عن الأمير آخورية، وبُرْدبك الخازندار.

ثمّ ركب الملك الناصر من الغد فى يوم الثلاثاء خامس شهر ربيع الأوّل منَ الرَّيدانية إلى التربة التى أنشأها على قبر أبيه بالصّحراء.

قلت: وجماعة كبيرة من النّاس يظنّون أنّ هذه التربة العظيمة أنشأها الملكُ الظاهر برقوق قبل موته، ويُسمونها الظاهريّة، وليس هو كذلك، وما عمرها إلّا الملك

الناصر فرج بعد موت أبيه بسنين ، وهى أحسن تُربة بُنيت بالصّحراء — انتهى .

وسار الملك النّاصر حتى نزل بالتّربة المذكورة ، وقرّر فى مشيختها صدرَ الدين أحمد بن محمود العجمىّ(١) ، ورتّبَ عنده أربعين صُوفيًّا ، وأجرى عليهم الخبزَ واللحمَ الضأن للطبوخ فى كلّ يوم ، وفُرشت السّجادة لصدر الدين المذكور بالمحراب ، وجلس عليها . أخبرنى العلّامة علاء الدين علىّ القلقشندىّ(٢) قال : حضرتُ جلوس صدر الدين المذكور فى ذلك اليوم مع من حضَر من الفقهاء ، وقد جلَس السلطانُ بجانب صدْر الدين فى المحراب ، وعنْ يمينه الأميرُ تَغرى بَرْدى من بشْبُغا الأتابك ـ يعنى الوالد ـ وتحته بقيّةُ الأمراء ، وجلس على يسار السلطانِ الشيخُ بُرْهان الدين إبراهيم بنُ زُقّاعة(٣) ، وتحته المعتقد الكَرَكى(٤) ، فجاء القضاةُ فلم يجسر قاضى القضاة جلال الدين البُلقينى(٥) الشافعىّ أن يجلس عن يمين السّلطان فوق الأمير الكبير ، وتوجّه وجلس عن ميسرة السّلطان تحت ابن زُقّاعة

---

(١) هو أحمد بن محمود بن محمد بن عبد الله . الصدر بن الجمال القشيرى الأصل . القاهرى الحنفى ، ويعرف بابن العجمى ، وقد توفى بالطاعون فى رابع عشر رجب سنة ٨٣٣ هـ (السخاوى — الضوء اللامع ٢ : ٢٢٣ ، ٢٢٤ ت ٦٢٣) .

(٢) هو على بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن على . العلاء أبو الفتوح بن القطب القرشى القلقشندى الأصل القاهرى الشافعى . ولد سنة ٧٨٨ هـ وتوفى مستهل المحرم سنة ٨٥٦ هـ (السخاوى— الضوء اللامع ٥ : ١٦١ ، وما بعدها ت ٥٥٧) .

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن بهادر بن أحمد بن عبد الله برهان الدين القرشى النوفلى الغزى الشافعى ، ويعرف بابن زقاعة مات سنة ٨١٦ هـ (السخاوى— الضوء اللامع ١ : ١٣٠) . ، (ج ٦ : ٤٤٠ من النجوم الزاهرة ط كاليفورنيا) .

(٤) هو الشيخ الصالح المعتقد أبو عبد الله محمد بن سلامة النويرى المغربى المعروف بالكركى— نسبة إلى الكرك بسبب مقامه به مدة طويلة — توفى سنة ٨٠٠ هـ ، وكان عند الظاهر برقوق بمنزلةمكينة جدا . وكان يجلسه فوق قضاة الشرع (ج ١٢ : ١٦٥ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٥) هو عبد الرحمن بن عمر بن رسلان بن نصير بن صالح . جلال الدين أبو الفضل البلقينى سبط البهاء بن عقيل . توفى سنة ٨٢٢ هـ (السخاوى — الضوء اللامع ٤ : ١٠٦ ت ٣٠١) .

والكركى ، فإنهما كان لهما عادةٌ بالجلوس فوقَ القضـاة من أيَّام الملك الظاهر بَرْقوق — انتهى .

قلتُ : والعادةُ القديمةُ من أيّام شَيْخون العُمرىّ إلى ذلك اليوم ، أنه لا يجلسُ أحدٌ فوقَ الأمير الكبير منَ القضاةِ ولا غيرهم ، حتى ولا ابن السّلطان ، غير صاحب مكة المشرّفة ؛ مراعاةً لسلفه الطاهر — انتهى .

ثمّ ركبَ السّلطانُ بأمرائه وخواصه وعاد إلى مخيّمه بالرَّيدانية ، وأقام به إلى أن رَحل منه فى يوم السبت تاسع شهر ربيع الأوّل المذكور ، يريدُ البلاد الشّامية .

وأمَّا الأمير شيخ ، فإنه لمَّا بلغه خروج السّلطانِ من الدّيار المصرية ، لم يَثبت وداخَلَه الخوف ، وخرج من دِمشق فى يوم الثلاثاء سادس عشرين شهر ربيع الأوَّل المذكور بعساكره ومماليكه ، وتبعهُ الأميرُ جانَم نائب حمَاة . فدخل بَكْتَمُر جِلّق إلى الشّام من الغد فى يوم سابع عشرينه ــ على حين غفْلةٍ ــ حتى يَطرُق شيخاً ، ففَاتهُ شيخٌ بيوم واحد ، لكنّه أدْرك أعقابه وأخذ منهم جماعةً ، ونهب بعض أثقال شيخ ، ثمَّ دخل السلطانُ الملكُ النّاصر إلى دِمَشْق بعد عشاء الآخرة مِنْ ليلة الخميس ثامن عشرينه ، وقد رَكِبَ من بُحيْرَةِ طَبَرِيّة(١) فى عصر يوم الأربعاء على جَرائِدِ الخَيْل لِيكْبِسَ شيخاً ، ففاته بيسير ، وكان شيخ قد أتاهُ الخبرُ وهو جالسٌ بدار السّعادة من دِمَشْق ، فركب من وقته وَتَرَك أصحابه ، ونجا بنفسه بقُماشِ جلوسه ، فما وصل إلى سطح المِزّة إلاّ وَبكْتَمُر جِلّق داخِل دِمَشْق ، ومرَّ شيخ على وجهه مُنْفَرِدًا عن أصحابه ، ومماليكه وحواشِيه فى أثَره ، والجميعُ فى أسوإ ما يكون من الأحوال .

---

(١) بحيرة طبرية : سميت بطبارى أحد ملوك الروم . وتقع فى غور الأردن ، ويدخل إليها نهر الشريعة الذى ينصب من بحيرة بانياس ، وعلى جانبها الغربى الجنوبى تقع مدينة طبرية .
(القلقشندى — صبح الأعشى ٤ : ٨٣) .

ولمّا دخل السُّلطانُ إلى دمَشْق ، أصبحَ نادَى بِدمَشْق بالأمان والاطمئنان لأهل الشّام ، وألا ينزل أحدٌ من العسكر فى بيت أحدٍ من الشّاميِّين ، ولا يُشَوِّش أحدٌ منهم على أحدٍ فى بيعٍ ولا شراء ، ونودى أن الأمير نَوْرُوزاً الحافظىّ هو نائب الشّام .

ثمّ فى ثانى شهر ربيع الآخرة قدم الأمير شاهين الزَّردكاش(١) نائب صفد على السُّلْطان بِدمَشْق ، ثمّ فى ثالثه خَلعَ السُّلطانُ على الأمير يَشْبُك الموساوىّ الأفقَم باستِقْراره فى نيابة طَرَابُلُس ، وآستقرّ أبو بكر بن اليَغموريّ فى نيابة بَعْلَبَك ، وأخوه شعبان فى نيابة القُدْس ، ثمّ فى سادس شهر ربيع الآخر المذكور ، خرجَ أطلابُ السُّلْطان والأمراء من دِمَشْق إلى بَرْزَة ، وَصلى السلْطانُ الجمعةَ بجامع بنى أُميَّة ، ثمّ ركبَ وتوجه بأمرائه وعساكره جميعاً إلى أنْ نزَل بمخيّمه بِبَرْزة ، وخلَع السلطانُ على شاهين الزَّردكاش نائب صفد باستقراره نائب الغَيْبة بدمَشق ، وسكن شاهين بدار السعادة ، وتأخر بدمشق من أمراء السلْطان الأمير قانى بَاى المحمّدىّ ، لضعفٍ كان اعترَاهُ ، وتخلّفَ بدمشق أيضاً القضاةُ الأربعة ، والوزير سعد الدين بن البشيرىّ ، وناظر الخاص مجدُ الدين بن الهَيْصَم ، وسارَ السّلطانُ بعساكرهِ إلى جهةِ حلَب حتى وَصلَهاَ ، فى قصد شيخٍ ونَوْرُوز بمن معهما من الأمراء ، ثمّ كتبَ السّلطانُ لنَوْروز وشيخٍ يُخيِّرهماَ ، إما الخروجُ من مملكتِه ، أو الوقوفُ لمحاربتِه ، أو الرجوعُ إلى طاعتهِ ، يريدُ — بذلك — الملكُ الناصر الشفقة على الرعيّةِ من أهلِ البلادِ الشّامية ؛ لكثرةِ ما صار يحصُل لهم من الغرامة والمصادَرة ، وخرابِ بلادهم من كثرةِ النّهابةِ من جهة العُصاَة ، ثمّ أخبرهما الملكُ الناصرُ أنه عزَم على الإقامة بالبلاد الشّامية السنتين والثلاثة حتى ينال غرَضه ، فأجابهُ الأميرُ شيخ بأنه ليسَ بخارجٍ عن طاعتِه ، ويعتذرُ عن حضورهِ بما خامر قلبه من شدة

(١) توفى شاهين هذا فى حدود الأربعين بعد الثمانمائة (السخاوى — الضوء اللامع ٣ : ٢٩٥) .

الخوْف والهيبة عندما قبضَ عليه السُّلطانُ مع الأتابَك يَشْبُك الشعبانىّ فى سنة عشر وثمانمائة ، وأنه قد حلَف لا يُحارب السلطان ماعاش ، من يوم حلّفه الأميرُ الكبير تَغرى بَرْدى — أعنى الوالد — فى نوبة صَرْخَد ، وكرّر الاعتذار عن محاربتهِ لِبَكْتَمُر جِلّق ، حتى قال : وإن كان السلطانُ ما يسمح له بنيابة الشّام على عادته ، فينعم عليه بنيابة أَبُلُسْتين (١) ، وعلى الأمير نَوْرُوز بنيابة مَلَطْيَة ، وعلى يَشْبُك بن أَزدَمُر بنيابة عين تاب ، وعلى غيرهم من الأمراء ببقية القلاع ؛ فإنهم أحق من التركمان المفسدين فى الأرض ، وكان ما ذكروه على حقيقته ، فلم يرضَ السُّلْطانُ بذلك ، وَصمَّم على الإقامةِ ببلاد الشام ، وكتب يستدعى التركمانَ وغيرهم ، كلّ ذلك والسلطان بأَبُلُستين ، وبينـاهمُ فى ذلك فارقَ الأميرُ سودُون الجلَبُ شيخاً ونَوْروزاً ، وتوجهَ إلى الكَرَك واستولى عليهـا بحيلةٍ تحيّـلها .

ثمّ عاد السّلطانُ إلى حَلَب فى أوّل جمادى الآخرة ، ولم يَلْقَ حَرْباً ، فقَدِم عليه بها قَرْقمَاس ابن أخى دَمُرْدَاش — المدعو سيّدِى الكبير — والأمير جَانَم من حسن شاه نائب حَماة — كان — فأكرَمَهُما السلطانُ وأنعمَ على قَرْقَماس بنيابة صَفَدَ ، وعلى جَانم بنيابة طَرابُلُس ، واستقرّ الأميرُ جَركس والد تَنم حاجبَ حجّـاب دِمَشْق ، ثمّ خلع على الأمير بَكْتَمُر جِلّق باستقرارهِ فى نيابة الشام ثانياً ، وأنعم بإقطاعهِ على الأمير دَمُرْدَاش المحمّدِىّ نائب حلَب ، ثمّ بعد مدّة غيَّر السلطان قَرْقمَاس سيّدِى الكبير — مِنْ نيـابة صَـفَد إلى نيابة حَلَب ، عِوَضاً عن عمّه الأمير دَمُرْدَاش المحمَّدِىّ ، وأخلع على أخيه تَغرى بَرْدى — المدْعو سـيّدى الصَّغير — باستقرارهِ فى نيابة صفَد .

وَبَيْنا السلْطانُ فى ذلك بحلَب ، وَرَدَ عليهِ الخبرُ بأنّ شـيخاً ونوْرُوزاً وَصلا عَيْن تاب ، وسارَا على البَرِّية إلى جهة الشّام ، فَركبَ السـلْطانُ مُسْرِعا

(١) أبلستين : مدينة ببلاد الروم (ياقوت — معجم البلدان ١ : ٩٣ ، ٩٤) .

مِنْ حَلب عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ فى ثالث عشرين شهر رجب بِبعضِ عساكرِهِ ، وسارَ حتى دَخل دِمَشْقَ فى أربعة أيّام، ثمّ قَدِمَ فى أثَره الوالِدُ بغالِبِ العساكر، ثمّ الأمير بَكْتَمُر جِلّق نائب الشّام ، ثمّ بقيّة الأمراء والعساكر ، ثمّ فى ثالث شعبان قَدِمَ الأمير تِمْرازُ النّاصرى نائبُ السّلطنة — كان — إلى دِمَشْق فى خمسِينَ فارساً ، داخلا فى طاعة السّلطان بَعْدَما فارَقَ شيخاً وَنوْرُوزاً ، فركبَ السّلطانُ وتلقّاهُ وبالَغَ فى إكرامِه ، قلتُ ، وتِمْرازُ هذا هو الذى كانَ فَرّ مِن السّلطان فى ليلة بَيْسان ومعهُ عدّةُ أُمراء — وقد تَقدّم ذِكرُ ذلك فى وقته — ثمّ فى الغدِ سمّرَ السُّلطانُ ستةَ نفرٍ مِنْ أصحاب شَيْخ وَوَسّطَهُمْ .

وأما شيخٌ وَنوْرُوزٌ ، فإنّهما لمّا سارَ السّلطانُ عن أُبُلُسْتَين خرجا منْ قَيْسارِيّة[١] بمن معهم ، وجاءوا إلى أُبُلُستين فمنعهم أبناء دُلْغادِر وقاتلوهم ، فانكسَرُوا منهم وفرّوا إلى عَيْن تَاب ، فلمّا قربوا مِنْ تل باشِر[٢] تمزّقوا وأخذت كلّ طائفةٍ جهةً من الجهاتِ ، فلحق بحلَبَ وَدِمَشْقَ منهم عِدّةٌ وافرةٌ ، واختفى منهم جَماعةٌ ، ومرّ شَيخٌ وَنوْروزٌ بحواشيهما على البرّية إلى تدْمُر[٣] فامتارُوا منها ، ومضوا مسرعين إلى صَرْخَد وتوجهوا إلى البَلْقاء[٤] ودخلوا بيت المقدِس ، ثمّ توَجّهوا إلى غزّة بعد أن مات من أصحابهم الأمير

---

(١) قيسارية : المراد قيسارية الروم ، وتقع على نهر قراصو أحد فروع نهر قزل ارمك ، وكانت عاصمة بنى سلجوق بآسيا الصغرى (ياقوت – معجم البلدان ٤ : ٢١٤) .

(٢) تل باشر : حصن فى شمال سوريا على نهر الساجور بقرب عينتاب (ج ٨ : ٨٩ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) تدمر : مدينة قديمة معناها بالعبرية : النخيل ، وتقع فى طرف بادية الشام . وبينها وبين حلب خمسة عشر فرسخاً ، فتحها خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م (المنجد – معجم الأعلام ١٦٦) ، (ج ١٢ : ٢٥١ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٤) البلقاء : عمل وولاية تقع فى الطرف الجنوبى من الشام (حالياً الأردن) تلقاء الحجاز (ياقوت – معجم البلدان ٤ : ٥٧١) .

تمُرْبغا المشْطُوب نائب حلب — كان — والأمير إينال المِنْقار، كلاهُما بالطّاعون بمدينة حُسْبان(١).

ثمّ قدِمَ عليهم سودُونُ الجلَب مِنَ الكَرَك، فتتبّعُوا مَا بِغزّة مِن الخيولِ فأخذوها، وأقاموا بها حتى أخرجَ السّلطانُ إليهم بكْتَمُر جِلّق على عَسكرٍ كبير، فسارَ إلى زُرْع، ثمّ كتبَ للسّلْطانِ يطْلُبُ نجدةً، فأخرجَ إليهِ السّلطانُ منْ دِمَشق بعسكر هائل من الأمراء والمماليكِ السلطانيّة، ورأسُ الأمراء الأميرُ نَوْرُوزُ النّاصريّ — الذى قدِم على السّلطان طائعاً بدِمَشْق — ويَشْبك الموساويّ الأفقم، وأَلْطُنْبُغا العُثمانىّ، وأَسنْبُغا الزَّردكاش وسُودُون الظّريف نائب الكَرَك — كان — والأمير طُوغان الحسنىّ رأسُ نوبة النُّوَب، فخرجوا من دِمَشْق مُجدّينَ فى السَّير إلى قَاقُون(٢) — وبها الأميرُ بَكْتَمُر جِلّق — فسارُوا جميعاً إلى غزّة، فقدِمُوها فى عصر يوم الثلاثاء مِن ثالث شهر رمضان، وقد رحلَ شيخٌ ونوْرُوزٌ بمنْ معهُما بُكْرَةَ النهار عند ما قدمَ عليهم سُودُون بُقْجة وشاهين الدّوادار من الرّملة، وأخبرَاهم بقدُوم عسكر السلطان إليهم، فنهبوا غزّة وأخذوا منها خيولاً كثيرةً وغلالاً، فتبعهم الأميرُ خير بك نائب غزّةَ إلى الزّعقة(٣)، وسارت كشّافتُهُ فى أثرهم إلى العَريشِ، ثمّ عادُوا إلى غزّة.

فلمّا وَصل بَكْتَمُر جِلّق بمنْ معَهُ مِنَ الأُمراء إلى غزّة، وبلغه توجّه شيخ ونوْرُوز إلى جهة مصر، أرسَل بكْتَمُر الأميرَ شاهينَ الزَّردكاش والأميرَ أَسنْبُغا الزَّردكاش على البرّية إلى مصر ليخبرا من بقلعة الجبل بقدُوم شيخ ونَوْرُوز إلى مصر، فسارا وسبقَا شيخاً ونوْرُوزاً، وعرّفا الأميرَ أرْغون الأميرَ آخور

(١) حسبان : قاعدة عمل البلقاء (ج ٩ : ١٤٩ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) قاقون : قرية من أعمال فلسطين تقع شمال غربى طول كرم (ج ١٠ : ١١٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) الزعقة : من مراكز البريد بين العريش ورفح . (القلقشندى — صبح الأعشى ١٤ : ٣٧٨) .

وغيرَه ممن هُو مِن الأمراء بمصر ، ورُدّ جوابُ أرْغون على بَكْتَمُر بأنه حصّنَ قلعة الجبل ، والإسطبلَ السلطانىّ ، ومدرسة السلطان حسن ، ومدرسة الملكِ الأشرف شعبان بن حسين — التى كانت تجاه الطبلخاناة عند الصّوة[١] — وأنه هُوَ ومَنْ معه قد استعدّوا للقاء شيخٍ ونَوْرُوز .

وأمّا شيخٌ ونَوْرُوز ومَنْ معهم فإنهم ساروا مِنْ مدينة غزّة إلى جهة الدّيار المصرية ، فمات بالعَريش شاهينُ دَوادَار الأمير شيخ — وكان عضد الأمير شيخ وأعظم مماليكه — ثمّ ساروا إلى قَطْيا[٢] ونهبوها ، ثم سارُوا من قَطْيا إلى أنْ وَصلوا إلى مِصر فى يوم الأحد ثامن شهر رمضان مِن سنة ثلاث عشرة وثمانمائة المذكورة ، ودخل شيخ ونَوْرُوز بمَنْ معهما مِن أمراء الألوف ، وهم : الأمير يَشْبُك بن أزدمُر ، والأمير سودُون بُقْجة ، والأمير سُودون المحمّدىُ تلّى ، والأمير يَشْبُك العثمانىّ ، وغيرهم مِنْ أمراء الطّبلخانات مِثل قِمش وقُوزى وغيرهما ، ودَخلَ معهم إلى القاهرةَ خلائقُ مِن الزّعر ، وبنى وَائِل — من عرب الشّرْقية — والأميرُ سعيدُ الكاشِف — وهو معزُول — فبَلغهُم تحصينُ القلْعةِ والمدرستين[٣] ، وأنّ الأمير أرْغُون ومَنْ معه مِنْ الأمراء قبضوا على أربعينَ مملوكاً مِن النّوْروزيّة — أعنى مِمن كانَ له مَيلٌ إلى نَوْرُوز من المماليك السلطانيّة — وسجنُوهم بالبُرْج من قلعةِ الجبل خوفاً منْ غَدْرهم ، فسارُوا منْ جهة المطريّة خارج القاهرة إلى بُولاق ، ومضوا

(١) الصوة : تطلق على المنطقة الجبلية الواقعة فى الجهة الشمالية من قلعة الجبل فيما بينها وبين مسجد الرفاعى ويتوسطها الطريق المعروف بسكة المحجر (ج ١١ : ٤٣ ، ج ١٢ : ١٨٦ من هذا الكتاب ط دار الكتاب) .

(٢) قطيا : وتقع بالرمل فى الطريق بين الشام ومصر قرب الفرما ، وبها تحصل المكوس من القادمين إلى مصر ، وقد اندثرت ولم يبق منها إلا أطلالها بين العريش والقنطرة (ج ٧ : ٧٧ ، ج ١٢ : ٢٠٨ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) يريد مدرسة السلطان حسن ومدرسة السلطان الأشرف شعبان ، وكانتا بمثابة الحصون والقلاع من ماكهما يستطيع أن يصعد للرماة من القلعة وأن يبادلهم الرمى) .

إلى الميدان الكبير إلى الصّليبة(١) ، وخرجُوا إلى الرّميلة(٢) تحتَ قلعةِ الجبلِ ، فَرماهُم المماليك السلطانيةُ بالمدافِع والنشّاب ، وبرزَ لهم الأميرُ إينال الصصلانىّ الحاجبُ الثانى بمن معه ، وَوقف تجاه باب السّلسلة ، وقاتَل الشيْخية والنُّورُوزية ساعةً ، فَتقنطرَ مِنَ القوْم فارسان ، ثمّ انهزَم إينال الصّصلانىّ وعَادَ إلى بيتهِ تجاه سَبيل المؤمنى(٣) — المعرُوف ببيت نَوْرُوز — وباتَ الأمراء تلكَ الليلة بالقاهرة ، وأَصبحَ الأميرُ شَيخٌ أقامَ رَجلاً فى ولايةِ القاهرة فنادَى بالأمان ، وَوعَد الناسَ بترخِيص الأسعار ، وبإزَالة المظالم ، فَمالَ إليهِ جمعٌ من العامّة ، وأقاموا ذلك اليوم ، وملَكُوا مَدْرسةَ الملكِ الأشْرَف شعبان التى كانت بالصوّة تجاه الطّبلخَاناة السلطانية ، هذا والقتال مُستمرٌ بَينهم وبين أهل القلعةِ ، ثمّ ملك الأمراء مدرسة السلطان حسن ، وهزَموا مَن كان فيها مِن المقاتلة ، بعدَ قِتال شديد ، وأقاموا بها جَماعةَ رُماةٍ من أصحابهم ، ورَموا على قلعة الجبل يومَهم ولَيلتهم ، وطَلعَ الأميرُ أرغون مِنْ بَشْبُغا — الأمير آخور — من الإسطبل السُّلْطانىّ إلى أعلا القلعة عندَ الأمير جرَباش وكَشْبُغا الجمالى ، فأدْخلاهُ القلعة بمفردِه مِنْ غير أصحَابهِ .

فلمّا كانت ليلة الإثنين ، كُسرَتْ خُوخة أَيدَغْمُش(٤) ، وَدَخلت طائفةٌ مِنَ الشاميِّين إلى القاهرة ، ومعهم طوائفُ مِنَ العامة ؛ ففتحُوا بابَ زويلة ، وكان والى القاهرة حسام الدين الأحوَل ، وقد اجتهد فى تحصين المدينَة ، ثمّ كَسرُوا بابَ خِزَانة شمائل ، وأخرجوا مَنْ كانَ بها ، وكسرُوا سِجنَ

(١) الصليبة : انظر التعليق (ج ٩ : ١٦٣ من هذا الكتاب ط دار الكتب)

(٢) فى الأصول « الرملة » وهو خطأ .

(٣) السبيل المؤمنى بناه الأمير بكتمر بن عبد الله المؤمنى المتوفى سنة ٧٧١ ﻫ بميدان الرميلة (ج ١١ : ٥٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٤) خوخة أيدغمش : هى باب حارة الروم ، وكانت لصق حمام أيدغمش ، وهى فى حكم أبواب القاهرة يخرج منها إلى ظواهرها (ج ١٠ : ١٠٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

الدَّيلم[١] أيضاً ، وسِجْنَ رَحبةِ باب العيدِ[٢] ، وانتشرُوا فى حارَات القاهرة ، ونهبُوا بيتَ كَمَشْبُغا الجمالىّ ، وتَتبّعُوا الخُيولَ والبغالَ من الإسطبلات وغيرها ، وأخذُوا منها شيئاً كثيراً ، ثمّ فتحوا حاصِلَ الديوانِ المُفرد ببينِ القصْرَين وأخذُوا منه مالاً كثيراً ، ثمّ ملك شيخٌ بابَ السلسلة ، وجَلسَ بالحرّاقة هو ورُفقته ، ثمّ طلبوا مِن الأمراءِ الذينَ بِالقلعةِ فتحَ القلعةِ لهم فى بُكرةِ يوم الثلاثاء ، فاعتذَرَ الأمراء لهمْ[٣] بأنّ المفاتيح عند الزّمام[٤] كافور ، فاستدْعوهُ فأتاهم ، وكلّمهم مِنْ وَراء الباب ، فسلموا عليه من عند الأمير شيخ ومن عند أنفسهم ، وكان الأميرُ نَوْرُوز منْ جُملة مَنْ كان واقفاً على الباب ، وسألوه الفتْحَ لهم ، فقالَ : ما يُمكنُ ذلكَ ، فإنّ حريمَ السُّلطانِ بالقلعة ، فقالوا مالنا غرضٌ فى النهب وإنما نُريدُ أنْ نأخذ ابنَ أُستاذِنا ، يعنون بابن أُستاذِنا : الاميرَ فرجَ ابنَ السُّلطان الملك الناصر فرَج ، وكانَ هذا الصبىّ سُمى على اسم أبيه — وهوَ أكبرُ أولادِ الملكِ الناصر — فقالَ كافورُ الزِّمام : وأيش صابَ السُّلطانَ حتى تأخذُوا ولدَهُ ؟ فقالوا : لو كانَ السُّلطانُ حيّا ما كنّا هاهنا — يعنون أنهم

(١) سجن الديلم : حين تكلم المقريزى عن سجون القاهرة (الخطط ٢ : ٣٨٧) ذكر من بينها حبس الديلم . ولكنه لم يفرده بحديث يخصه كما خص غيره . وهذا الحبس ينسب إلى حارة الديلم . وقد بقى هذا السجن حتى الدولة التركية العلية فهدمته الحكومة وباعت أرضه ، ومكانه حالياً زقاق السباعى وعطفة التومى بين خوشقدم وشارع الدرديرى بقسم الدرب الأحمر (ج ١١ : ٢٨٢ ، ٢٨٣ من هذا الكتاب ط دار الكتب)

(٢) سجن رحبة باب العيد : هذا السجن كان قصراً لخوند تتر الحجازية بنت الناصر محمد بن قلاوون وزوج الأمير ملكتمر الحجازى ، حوله الأمير جمال الدين أستادار الناصر فرج بن برقوق إلى سجن يحبس فيه من يعاقبه من الوزراء والأعيان . وموضعه اليوم مبنى شرطة قسم الجمالية وإدارة دمغ المصوغات وبيت المال — فيما بين بيت القاضى وشارع بيت المال وشارع خان جعفر (ج ١١ : ٢٨٣ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) فى الأصول « عليهم »

(٤) الزمام : أصله الزنان بالنون ، وهو لقب للذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام الخصيان ، وهو الموكل بحفظ الحريم ، وقد حرفته العامة إلى الزمام (القلقشندى — صبح الأعشى ٥ : ٤٥٩ — ٤٦٠) .

قتلوا السلطانَ ، وساروا إلى الديار المصرية ليُسلطنوا ولدَه — فلم يمْشِ ذَلك على كَافور ولا على غيرِه ، وطالَ الـكلامُ بينهم فى ذلك ، فلم يلتفت كَافور إلى كلامهم ، فهدّدُوه بإحراق الباب ، فخافَ وقالَ : إن كنتم ما تريدون إلا ابن أُستاذِكم فليحضر إلى باب السرّ اثنان مِنكم أو ثلاثة ، وتحضُر القضاةُ ، ثمّ احلفوا أنكم لا تَغْدِرُون بهِ ولا تمسُّونه بسُوء ، وكَانَ كَافور يقْصدُ بذلك التطويلَ ، فإنه كانَ بلغهُ هُو والأمراء الذين بالقلعة قُرْبُ مجىء العسكر السلطانىّ إلى القاهرة ، فبعثوا لهم البطاقةَ من القلعة باستِعجالهم ، وأنهم فى أقوَى ما يكون مِنَ الحصَار ، ومتى[١] لم يدركوا أُخذُوا ، وأخذَ كَافورُ فى مُدَافعةِ الجماعة والتمويه عليهم — قلت : وعلى كل حال فهو أرجلُ مِنْ أرغون الأمير آخور ، فإنّ أرغونَ مع كثرة من كان عنده من المماليك السلطانية ومماليكه لم يقْدرْ على منع بابِ السِّلسلة ، وتركها وفَرّ فى أقلّ مِنْ يومين ، وكانَ يمكنه مدافعة القوم أشهراً — انتهى .

وبينما [كافور][٢] الزّمام فى مُدافعتهم لاحَتْ طلائعُ العسكر السلطانىّ لمنْ كانَ شيخُ أوقفه مِنْ أصحابهِ يرْقبهمْ بالمآذن بقلعة الجبل ، وقد ارْتفعَ العجاجُ ، وأقبلوا سائقين سوْقاً عظيما جهدَهم ، فلما بلغَ شيخاً وأصحابه ذلك لم يَثبتُوا ساعةً واحِدةً ، وركبوا مِنْ فوْرهم ووقفُوا قريباً مِنْ باب السِّلْسلة ، فدَهمهم العسكرُ السّلطانىّ فولّوا هَاربين نحو بابِ القرافة[٣] والعسكرُ فى أثرهم ، فكبا بالأمير شيخ فرسُه عندَ سُوق الخيم[٤] بالقرْب مِنْ بابِ

(١) العبارة فى الأصول « و متى ما لم يدركوا أخذوا » .

(٢) الإضافة للتوضيح .

(٣) باب القرافة : أحد أبواب سور القاهرة الذى بناه صلاح الدين الأيوبى إمتداداً من القلعة إلى الفسطاط ، ويقع بجوار مدفن تمرباى الحسنى الفاصل بينه وبين باب السيدة عائشة (ج ١٢ : ٢٨٥ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٤) سوق الخيم : وسوق الخيميين ؛ ويقع بالقرب من الجامع الأزهر ، وهو متصل بسوق الخراطين المبتدئ من شارع السكة الجديدة والمنتهى بشارع الصنادقية — (على مبارك — الخطط ٢ : ١٢)

القرافة ، فتقنطرَ من عليه ، فلم يستطع النهُوضَ ثانياً ؛ لعظَم روعه وسرعة حركته ، فأركبهُ بعضُ أمراء آخوريته — يُقالُ إنه الأمير جُلُبّانُ الأميرُ آخور ، الذى كان وَلىَ نيابة الشام فى دولة الملكِ الظاهر جقمق إلى أن مات فى دولة الملكِ الأشرف إينال فى سنة ثمان وخمسين وثمانمائة — وركب شيخٌ ولحقَ بأصحابهِ ، فرّوا على وُجوههم على جرائد الخيل ، وتركوا ما أخذُوه من القاهرة ، وأيْضاً ما كانَ معهم ، وسارُوا على أقبح وجهٍ بَعْد أنْ قبضَ عسكرُ السّلطانِ على جماعةٍ مِنْ أصحاب شيخ ، مثل الأمير قرَايَشْبُك — قريب نَوْرُوز — وبُرْدبَك رأس نَوْبة نَوْرُوز ؛ لأنّ نَوْرُوزا ثَبتَ قليلا بالرُّميلة بعد فرار الأمير شيخ ، وعلى برْسبَاى الطُّقطَائىّ أمير جاندار ، وثمانية وعشرين فارساً ، وجُرحَ جماعةٌ كبيرة ، منهم السيفىّ يَشْبُك السّاقىّ الظاهرىّ — الذى وُلّى فى الدولة الأشرفية [برْسبَاى] (١) الأتابكيةَ — ومنْ هذا الجرْح صارَ أعْرَجَ بعد أن أشرفَ على الموت (٢) .

ودَخلَ الأمير بَكْتَمُر جِلّق بعساكره ، وأرسلَ الأميرَ سُودُون الحمقى فاعتقلَ جميعَ من أُمسكَ من الشّاميين ، وأخذ يتتَبعُ مَنْ بقىَ من الشّامية بالقاهرة ، ثمّ نادى فى الوقت بالأمان ، ثمّ أخذَتْ عساكرُهُ يقتلون فى الشاميّين ، ويأسِرون وينهبونَ إلى طَموه (٣) ، وألزم بَكْتَمُر جِلّق والىَ القاهرة بمسكِ الزّعر الذين قاموا مع الشّاميين ، فأبادهم الوالى ، وقطع أيدى جماعة كبيرة ، وحبس جماعة أُخر بعد ضَرْبهم بالمقارع ، وأخذ الاميرُ بَكْتَمُر جِلّق فى تمهيد أحوال الديار المصرية ، وقدمَ عليهِ الخبرُ فى ليلة الأربعاء حادى عشر من شهر رمضان المذكور بأنّ شيخاً

(١) الإضافة للتوضيح

(٢) توفى يشبك هذا فى جمادى الآخرة سنة ٨٣١ هـ . (السخاوى — الضوء اللامع ١٠ : ٢٧٦) .

(٣) طموه : قرية مصرية قديمة ، وهى من قرى مركز الجيزة (ج ١٠ : ٢١٨ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

نزل إطفيح[١] ، وأنّ شعبان بنَ محمد بن عيسى العائذىّ توجه بهم إلى نحو الطور[٢]، فنودى بالقاهرة ومصر بتحصيل من اختفى من الشاميين بها ، ثمّ قدِم الخبرُ بوصولهم إلى السُّوَيْس ، وأنهم أخذُوا علفاً كان هناك للتجّار ، وَزاداً وجمالاً ، وسار بهم شعبانُ بن عيسى فى درب الحاج[٣] إلى نخِل[٤] ، فأخذُوا عدّةَ جمالٍ للعُرْبان ، وأن شعبان المذكور أمدَّهم بالشعير والزّاد ، وأنهم افترقُوا فِرْقتين ، فرقة رأْسها الأمير نَوْرُوزٌ الحافظىّ ويَشْبُكُ بن أَزْدَمُر وسُودون بقُجة ، وفرقة رأْسها الأمير شيخٌ المحمودىّ وسودُون تلّى المحمدىّ وسُودون قراصُقل ، وكلّ فرقة منهما معها طائفة كبيرةٌ من الأُمراء والمماليك ، وَأنهم لما وصلوا إلى الشُّوبَك[٥] دفعهم أهلها عنها ، فسارُوا إلى جهة الكرَك وبهَا سُودُون الجلَب ، فتضرعوا له حتّى نزَل إليهم من قلعةِ الكرَك ، وتلقّاهم وادخلهم مدينةَ الكرَك ، وَأنهم اسْتَقرُّوا بالكرَك .

وأما الأمير بَكْتَمُر جلّق بمن معهُ من الأُمَراء والعسَاكر السُّلْطَانية ، فإنهم أَقاموا بالقَاهرة نحو ستَّة أيّام حتّى تحققُوا توَجُّهَ القَوْم إلى جهة البلاد الشّامية ، فخَرَجوا مِنَ القاهرَة فى يوم سادس عشر من رمضان يريدون البلاد الشّاميّة إلى الملِكِ النـاصر وهو بدمشق ، وتأخَّر بالقاهرة من الأمراء من

(١) إطفيح : من البلاد المصرية القديمة ، تقع على الشاطىء الغربى للنيل ، بمركز الصف (ج ٥ : ٣١٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) الطور : جبل عال قرب طبرية وحطين ، ويطل على عكا . وعليه قلعة بناها الفرنج وملكت فى حروب صلاح الدين ، ثم خربها المسلمون وعفوا أثرها ، ثم عمرها الملك العادل بن أيوب (ياقوت – معجم البلدان ٣ : ٥٥٧ ، وابن واصل – مفرج الكروب ٣ : ٢١٥) .

(٣) درب الحاج : المراد طريق الحاج البرى من جهة سيناء وشرق البحر الأحمر ، وهو موصوف بتوضيح فى صبح الأعشى للقلقشندى (١٤ : ٧٨٥ – ٧٨٧) .

(٤) نخل : محطة من محطات الحجاج ومنهل من مناهلهم، وهى اليوم نجع صغير يقع فى وسط جبال شبه جزيرة سيناء شرق السويس على بعد ١٢٠ كم منها ، وهى نقطة حدود مصرية (ج ٩ : ٣٠٠ ، ج ١١ : ٧٩ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٥) الشوبك : قلعة من قلاع الكرك – بالأردن – (ج ١٢ : ١١٢ من هذا الكتاب ط . دار الكتب) .

أصْحَاب بَكْتَمُر جِلّق : طوغانُ الحَسَنِىّ رأس نوبة النّوب — وقد اسْتَقرّ قبل تاريخه دَوَادَارا كبيراً بعد موت الأمير قَرَاجا بطريق دِمَشْق ، فى ذهاب الملك النّاصر إلى الشّام — وَيَشْبُك الموساوِىّ الأفقَم ، وشَاهين الزَّردكاش وأَسَنْبُغا الزَّردكاش ، وسارَ بكتُمُر جِلّق بمَنْ بَقِىَ حتى وَصل دمشق .

وأما السُّلطان الملك النّاصر ، فإنه كانَ فى هذه الأيام بدمشق ، وبلغَهُ ما وقع بالدِّيار المصرية مُفصلاً ، لكن نُقل إليه أنَّ بَكْتَمُر جِلّق وطوغان الحَسَنِىّ قصّرَا فى أخذ شَيْخ ونَوْرُوز ، ولو قَصدَا أخذهما لأمكنهم ذلك ، فأسرّهَا الملك الناصِر فى نفسه ، قلتُ : ولا يَبْعُدُ ذلك ؛ لما حكى لى غيرُ وَاحد — مِمّن حضر هذه الواقعة — مِنْ ضعف شيخ وَنوْرُوز ، وتقاعدِ الأمراء عن المسير فى أثرهم . ولمّا بَلَغَ الملك الناصِر ذلك لم يسعْهُ إلاالسكات ، وعدم معاتبة الأمراء على ذلك .

ثمّ إنّ السّلطان أمسكَ الأمير جَانِبَك القرمِىّ بدِمشق فى يوم الإثنين أوّل شوّال ، وضَرَبه ضربا مُبَرِّحاً ، وسجنه بقلعة دمشق ، ثمّ أمر السُّلطانُ الأمير قَرْقَماس ابن أخى دَمُرْداش — المعروف بسيِّدى الكبير — بالمضِىّ إلى مَحلّ كفالته بحلب ، فسار من دمشق عائداً إلى حلب ، واستمرّ السّلطانُ بدمشق إلى يوم سابع عشر ذى القعدة ، وَخرج منها إلى قبّة يَلْبُغَا ، ورحل من الغد بأمرائه وعساكره يريدُ الكرَك بعد ما تحقّق نزُول الأمراء بالكرَك ، وخلعَ على بَكْتَمُر جِلّق بنيابة الشام عَلى عادته ، وعاد بَكْتَمُر إلى دمشق .

وأما شيخٌ وَنوْرُوزُ وجماعتهُما ، فإنهم أقاموا بالكرَك أياماً ، واطْمأَنُّوا بها ، ثمَّ أخذُوا فى تحصينها ، فلَمّا كانَ بعضُ الأيام نَزل الأمير شيخٌ ومعهُ الأمير سُودُون بُقْجَة ، وقانى بَاى المحَمّدِىّ فى طائفةٍ يسيرة من قلعةِ الكرَك إلى حمّام الكرَك ، فدخل جميعُ هؤلاء الحمام ، وبلغ ذلك الأمير شهاب الدين أحمد حاجبَ الكرَك ، فبادَرَ بأصحَابه وَمعهُ جمعٌ كبير من أهل

البلد ، واقتحموا الحمامَ المذكورة ليقتلوا بها الأمير شيخاً وأصحابه ، فسبقهم بعضُ المماليك وأعلم الأمير شيخاً ، فخرَج من وقته من الحمام ولبس ثيابه ووقفَ في مَسلخ الحمام عند الباب ، ومعهُ أصحابه الذين كانوا معه في الحمام، فطَرقهم القومُ بالسلاح ، فدافَع كلٌّ واحدٍ منهم عن نفسه ، وقاتلُوا قتال الموت ، حتى أدْرَكهم الأميرُ نَوْرُوزُ بجماعته ، فقاتلوهم حتى هَزَموهم بعدَ ما قُتِل الأميرُ سُودون بُقْجة ، وأصابَ الأمير شيخاً سهمٌ غارَ في بدنه ، فنزف منهُ دمٌ كثير حتى أشرفَ على الموت ، وحُمل إلى قلعةِ الكرَك فأقَامَ ثلاثةَ أيام لا يعقِل ، ثمّ أفَاقَ ، ومن هذهِ الرَّجفةِ حصَلَ له مرضُ للفاصل الذى تكسَّحَ منهُ بَعد سلطَنتهِ ، هكذا ذكَر المؤيدُ لبعض أصحابهِ .

وأمّا الأمير نَوْرُوز لمـّا بَلغهُ قتلُ سُودُون بُقْجة وهو يُعَارك القومَ جدّ في قِتالِهم حتى كسَرهم ، وقَتلَ منهم مقْتلةً عظيمة ، ثمّ عادَ إلى الكَرَك وقد جُرح من أصحابهِ جَماعةٌ ، وبَلغَ هذا الخبرُ السلطانَ الملكَ النّاصر فسُرَّ بقتل سُودُون بقُجة سُرُوراً عظيما ؛ لِكثْرَةِ ما كانَ أحْسَنَ إليه ورقّاه حتى وَلّاهُ نيابَةَ طرابلُس ، فتركَهُ وتوجَّه إلى الأمير شيخ ونوْرُوز من غير أمْرٍ أوْجَب تَسحّبه ، بل لأجل خاطِر أغاتِه[1] وحميِّه الأمير تمْرَاز النائب . ثمّ وَقعَ بين الأمراء وبين سُودُون الجلب بالكَرك ، فنزَل سودُون الجلب من الكرَك وتركها لهم ، ومضى حتى عدّى الفُرات .

وأما السُّلْطَان الملك النّاصر ، فإنه سارَ من مَدينَة دِمشق حتى نزَلَ عَلَى مَدِينة الكرَك فى يوم الجمعة رابع عشرين ذى القعدة ، وأحاطَ بهـا ونَصَبَ عليها الآلات ، وجدَّ فى قِتالها ، وحَصرَها وبها شيخٌ ونَوْرُوزٌ وأصحابُهما ، واشتَدّ الحصارُ عليهم بالكرك ، وأخـذَ الملكُ النّاصِر يلازمُ قتالهم حتى أشْرفوا على الهلاك والتّسليم ، ثمّ أخـذَ شيخٌ ونَوْرُوز والأمراء يكاتِبونَ

(١) أغا : كلمة تركية معناها السيد أو الأخ الأكبر .

الوالدَ ويتضرَّعُون إليهِ ، وهو يَتبرّم من أمرْهم والـكلام فى حقهم ، ويوبخهم بمـا فَعلهُ الأميرُ شيخٌ مع بَـكْتَمُر جِلِّق بَعد حَلْفهِ فى وَاقعة صَرْخد ، فأخذ شَيْخ يعتذِرُ ويحْلِفُ بالأيمـان المغـلظة أن بَكْتَمُر جِلِّق كان البَاغىَ عليهِ والبادِئَ بالشرّ ، وأنه هو دَفع عن نَفسه لاَ غير ، وأنّهُ ماقَصْدُهُ فى الدّنيا سِوَى طاعة السُّلْطَان ، وأنتَ الأميرُ الـكبيرُ ، وأ كبر خُشدا شيتنا ، إنْ لم تتـكلمْ بينَنَا فىِ الصلح [1] فمنْ يتكلم ؟ ثمّ كاتبوا أيضاً جماعة من الأمراءِ فى طَلَب العَفو والصّلح ، ولا زَالُوا حتى تَـكلم الوالدُ مع السُّلْطان فى أمرهم ، فأبى السُّلْطان إلاّ قتالهم وأخذَهم ، والوالدُ يمعن فى ذلكَ حتى آبترم الصّلحُ غير مرّة والسلْطانُ يرجعُ عن ذلك .

ثمّ تردّدَت الرسل بينهم وبَين السُّلْطَان أياما حتى انْعقدَ الصلحُ ، على أن يكونَ الوالدُ نائبَ الشام ، وأن يكونَ الأمير شيخٌ نائب حلب ، وأنْ يكون الأميرُ نَوْرُوز نائبَ طرابُلُس ، وكانَ ذلك بإرادةِ شيخٍ وَنوْرُوز ؛ فإنهماَ قالاَ : لا نرْضَى أن يكُونَ بَـكْتَمُر جِلِّق أعْلَى مِنا رُتبةً بأن يكونَ نائبَ الشّام — وَنحنُ أقدَمُ مِنه عند السّاطان — فإنْ كانَ ولا بُدّ ، فيكون الأميرُ الـكبيرُ تَغْرى بَرْدى فى نيابة الشّـام ، وَنـكون نحن تحت أوامره ، ونسيرُ فى المهمّات السُّلْطَانية تحت سَنْجقه ، وأمّا بَكْتَمُر وَدَمُرْداش فَلا ، وإن فَعلَ السّلطانُ ذلكَ لا يقَع منّا بَعْدَها مُخالفةٌ أبداً .

ولَمّـا بلغَ الأمراء وَالعساكر هذا القولُ أعجَبهم غاية الإعجاب ، وَقدْ ضجرَ القوْمُ من الحصار ، وَملّوا من القتال ، فلاَ زَالوا بالسلطان حتى أذْعنَ وَمال إلى تَوْلية الوَالدِ نيابة الشّـام ، وَكلّم الوالدَ فى ذلك ، فأبى وامتنع غايةَ الامتناع ، وكان السّلطانُ قد شرَط على الأمراء شُرُوطاً كثيرةً فقبلُوها — عَلَى أنْ يكون الوالد نائبَ دمشق — وأخـذ الملك الناصرُ يُـكلم الوالدَ فى ذلك

(١) العبارة فى الأصول « إن لم تتكلم بيننا فى الصلح وإلا فمن يتكلم » .

وَالوالد مُصممٌ على عدم القبول ، وَأرمَى سيفَهُ غَيرَ مَرّةٍ بحضرةِ السّلطان ، وأرَادَ التوجّــه إلى القُدْس بطّالا .

وَصارَ الوالدُ كُلّما آمتنع مِنَ الاستقرارِ وَحنق يَكفّ عَنْهُ السلْطانُ ، فإذا رَضِيَ كلّمهُ ، ثُمَّ سَلطَ عليه الأمراء فكلّموه من كلّ جِهةٍ [حتى قبل](١) ، ثمّ قام إليهِ السلْطانَ وآعتَنقهُ ، وَطلَبَ الخلعة فجىء بها فى الحال ، وألْبسَها للوالدِ باستقرارِهِ فى نيابةِ دمشق عوضاً عنْ بَكْتَمُر جِلّق ، واستقرّ الأمير شيخٌ فِى نيابة حلب عوضاً عن قَرْقماس سيّدى الكبير ، وَالأميرُ نَوْرُوزُ فى نيابة طرابُلُس عوضاً عن جَانَم منْ حسن شاه ، واستقرّ جَانَم المذكورُ أميرَ مجلس بإمرةِ مائةٍ وَتقدِمة ألف بالدّيار المصرية ، واستقرّ تَغرى برْدى سيّدى الصّغير فى نيابة حماة عَلى عادته ، ورسم للأمير سودُون من عبد الرحمن نائِب صَفَد أنْ ينتقل مِن نيابة صَفَد إلى تقدِمة ألف بالدّيار المصرية ، وأنْ يكُونَ الأميرُ يَشْبُك بن أزْدَمُر أتابكَ دمشق عِندَ الوَالدِ ، فإنهُ كانَ مِنَ ألزامهِ ، وعقَدَ عقْدَهُ بعدَ ذلك عَلى إحدَى بنَاته — ولها من العمر نحو ثلاث سنين — وَيكُون قَانى بَاى المحمّدِى أميراً بحَلب عند الأمير شيخ ، ثُمّ شَرطَ السلْطَان على شَيْخ ونَوْروز ألا يُخرجا إقطاعاً ، ولا إمْرةً ، ولا وظيفة لأحدٍ مِنَ النّاس إلا بمرْسوم السّلطان ، وأنْ يُسلّما قلعةَ الكرَك إلى السلْطان ، ويُسلِّم شيخٌ قلعَةَ صهيون(٢) وصَرخد أيضاً ، فرَضُوا بذلك جميعه ، وَحلفُوا على طاعة السلْطان ، وخَلع السلطان عليهم خلَعاً جليلةً ، ومَدّ لهم سماطاً أكلوا منه .

ثُمّ رحل السلْطان من الكرك بعساكرهِ يُريدُ القُدْس ، فوَصله وأقام به خمسة أيّام ، ثمّ خرَج منهُ وسار يُريدُ القاهرة .

(١) الإضافة يقتضيها السياق .

(٢) قلعة صهيون : وتضبط بفتح الصاد وسكون الهاء وضم الياء وسكون الواو ثم نون فى الآخر ، وكذلك بكسر الصاد وسكون الهاء وفتح الياء وسكون الواو ونون فى الآخر — وهى قلعة من جند قنسرين فوق جبل شرقى اللاذقية وبينهما مرحلة . (القلقشندى — صبح الأعشى ٤ : ١٤٥) .

وأمّا الوالدُ فإنه سار من الكَرَك إلى نحو دمشق حتى دخلها فى يوم سادس المحرّم من سنة أربع عشرة وثمانمائة ، ونَزَل بدار السّعادة وقد خمدت الفتنة ، وسكن هرْجُ النّاس ، ثمّ خرجَ الأميرُ شيْخٌ والأمير نَوْرُوزٌ من الكَرَك إلى محلّ كفالتهما ، وقدما إلى دمشق بمن معهما من الأمراء والمماليك لعمل مصالحهما بدمشق ، فلمّا بلغ الوالدَ قدومُهما خرج لتلقّيهما بقُماش جلوسه فى خواصّه لا غير ، فلمّا وقع بصرُهما على الوالد نزلا عن خيولهما ، فأقسم عليهما الوالدُ فى عدم النزول ، فنزلوا قبل أن يسمعوا القسَم ، فعند ذلك نزل لهم الوالدُ أيضاً عن فرسه وسلّموا عليه ، فحلف عليهم الوالدُ بالنزول فى دار السّعادة ، فامتنعوا من ذلك ، فأنزلهم بالمزّة ، ثمّ ركبَ إليهم الوالدُ وأخذهم من وطاقهم غصْباً .

وأنزل الأمير شيْخاً بالقرمانيّة ، ونَوْرُوزاً بدار الأمير فرج بن منجك ، ونزل كلٌّ واحد من أصحابهما بمكان حتى عُملت مصالحهم ، وكثُر ترْدادُهم إلى الوالد بدار السّعادة فى تلك الأيام ؛ فسُرّ أهل الشّام بذلك غاية السّرور ، وصار الأمير شيْخٌ يتنزّه بدمشق ، ويتوجّه إلى الأماكن ومعه قليلٌ من مماليكه . حدّثنى بعضُ مماليك الوالد : أن الأمير شيخاً كان يجىء فى تلك المدّة إلى الوالد فى دار السعادة ومعه شخصٌ واحدٌ من مماليكه ، وينزل ويقيلُ بالبحرة[1] ، وينام بها نومةً كبيرةً إلى أن يُطبخ له ما اقترحه من المآكل .

ثمّ خرج الأميرُ شيخٌ والأمير نَوْرُوزٌ كلٌّ منهما إلى محلّ كفالته

(١) البحرة : ويراد بها بحيرة دمشق ، وتقع شرق الغوطة بميلة يسيرة إلى الشمال ، يصب إليها فضلة نهر بردى وغيره — وتتسع فى أيام الشتاء وتضيق فى أيام الصيف . وبها غابات قصب وأماكن تخفى من العدو . (القلقشندى — صبح الأعشى ٣ : ٨٤) .

بعد أن أنعم الوالدُ فى يوم سفرهما على كلّ واحدٍ بألفِ دينار، وقيّدله فرساً بسرجٍ ذهب وكُنْبُوش(١) زركش، وأشياء غير ذلك كثيرة.

وأمّا أمرُ السّلطان الملك النّاصر، فإنّهُ سار من القُدس حتّى نزل بتُرْبة والدِه بالصّحراء خارج القاهرة فى يوم الأربعاء ثانى عشر المحرّم من سنة أربع عشرة وثمانمائة، وخلع على الخليفة المستعين بالله العبّاس، وعلى القُضاةِ والأمراء، وسائر أرْباب الدّولة، وخلعَ علىَ الأمير دَمُرْدَاش المحمدىّ باستقرارهِ أتابَك العساكر بالدّيار المصرية، عوضاً عن الوالد؛ بحكم انتقاله إلى نيابة دمشق حسبما تقدّمَ ذكرُه، ثمَّ ركبَ السّلْطَانُ من التربة المذكورة وطلَع إلى القَلْعة بعد ما خرَج الناسُ للفرجة عليه، فكانَ لطلوعهِ يوماً مشهوداً، وزُيّنت القاهرة أيّاما لقدُومه، ثمَّ بعد قدُوم السّلْطان باثنى عشر يومًا قدِم الأمير بكْتَمُر جِلّق المعْزُول عنْ نيابة دِمشق، فركِب السّلطان وتلقّاهُ وألبَسَه تشريفاً، وخلَع على الأمير الكبير دَمُرْدَاش بنظر البيمارِسْتان المنْصورىّ(٢)، ودَخل السُّلْطَان من باب النصر وشقَّ القاهِرَة، ونزل بمدرَستهِ التى أنشأها جمالُ الدين الأستادار له برحبة بابِ العيدِ المعروفة بالجمَالية، وقد أثبتَ القضاةُ أنهاَ لهُ وسُمِّيت بالنّاصرية، ثمّ ركبَ السُّلطانُ من المدرسة المذكورة، ونزل بمدرسة والدهِ المعروفة بالبَرْقُوقيّة(٣) ببين القَصرين، ثمَّ ركب منهـا وأمر الأتابك دَمُرداش بعبُور البيمارِستان المنصورىّ، وتوجّه السّلطانُ إلى جهة القلعة.

---

(١) الكنبوش: هو البرذعة تجعل تحت سرج الفرس. عن (هامش الدكتور زيادة على السلوك للمقريزى ١ : ٤٥٢).

(٢) البيمارستان المنصورى: بناه المنصور قلاوون من أنقاض قلعة الروضة التى كان بناها الصالح نجم الدين أيوب، كما بنى منها مدرسة بجواره، ولا يزال البيمارستان موجوداً بشارع المعزلدين الله الفاطمى (ج ٧ : ١٩٢ من هذا الكتاب ط دار الكتب).

(٣) البرقوقية: نسبة للظاهر برقوق، وانظر (ج ١١ : ٢٣٩ — ٢٤٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب).

ثُمَّ فى ثانى عشر صَفَر من سنة أربع عشرة وثمانمائة عيَّنَ السلطانُ اثنين وعشرين أميراً من الأمراء البطّالين ليتوجّهوا إلى الشّام على إقطاعات عيَّنها السّلطان لهم، منهم: الأميرُ حزْمان الحسنى، وتَمان تمُرالنّاصرىّ، وسَونْجبُغا، وشادِى خَجا، وألْطُنْبُغا، وقانى بَاى الأشقر، ومعهم مائتا مملوك؛ ليكونوا أعواناً للوالد بدمشق، وفى خدمته، وكان الوالدُ شفعَ فى هؤلاء المذكورين حتى أطلقهم السلطانُ — على عادتهم — من السجن، ثم أمر السّلْطان بقتل جاَنِبَك القرمىّ، وأسَنْدَمُر الحاجب، وسُودُون البجاسىّ، وقانى بَاى أخى بلاط، والجميع كانوا بسجن الإسكندرية.

ثمّ فى حادى عشرين صفر خَلَع السلطانُ على تقىّ الدين عبد الوهّاب ابن الوزير فخر الدين مَاجد بن أبى شاكر باستقراره فى وَظيفة نَظَر الخاصّ — وكانت شاغرةً مُنذ توفّى مجدُ الدين عبد الغنى بن الهيصم فى ليلة الأربعاء العشرين من شعبان من سنة ثلاث عشرة وثمانمائة — ثمّ أمسكَ السّلطانُ بثلاثة أُمراء من أُمراء الألوف، وهم: قانى باى المحمّدى، ويَشْبُك الموساوى الأفقم، وكَمَشْبُغا الفيسىّ، وقبَضَ على جماعة أُخر من الطبلخانات والعَشرات، وهم: الأميرُ مَنْجك، والأمير قانى بَاى الصّغير العمرى ابن بنت أُخت الملك الظاهر بَرْقُوق — وقانى بَاى هذا جد خوند بنت جرَباش الكريمىّ وزوجة السلْطان الملك الظاهر جَقْمَق لأمّها — وكان أميرَ عشرة، وعلى الأمير شاهين، وخير بَك، ومأمور، وخُشْكَلْدى، وحُملوا الجميع إلى سِجن الإسكندريّة فسُجنوا بها.

ثمّ رَسَمَ السّلطانُ للأمير تِمرْاز الناصرىّ أنْ يكونَ طَرخانا[1] لا يَمشِى

(١) الطرخان: هو الأمير المتقاعد دون أن يكون مغضوباً عليه، و له أن يقيم حيث يشاء (المقريزى — السلوك ١ : ٣٧).

فى الخدمة ، و يقيم بداره أو يتوجه إلى دمياط ، وتمراز هذا هو الذى كان فر من السلطان وصحبته الأمراء من بيسان إلى الأمير شيخ .

ثم خلع السلطان على الأمير سنقر الرومى باستقراره رأس نوبة النوب عوضا عن قانى باى المحمدى المقبوض عليه قبل تاريخه .

ثم أرسل الوالد إلى السلطان يعلمه برفع الطاعون من دمشق وغيرها ، وأنه أحصى من مات من أهل دمشق فقط فكانوا خمسين ألفا سوى من لم يعرف .

وفى أول شهر ربيع الأول ، قدم الأمير إينال المحمدى الساقى المعروف بضضع من سجن الإسكندرية — بطلب من السلطان — ورسم له أن يكون بطالا بالقاهرة .

ثم أخرج السلطان إقطاع الأمير جرباش كباشة ، ورسم له بأن يتوجه إلى دمياط بطالا .

ثم بعده توجه تمراز الناصرى المقدم ذكره إلى دمياط أيضا بطالا .

ثم قبض السلطان على جماعة من كبار المماليك الظاهرية — برقوق — وحبسهم بالبرج من القلعة .

ثم قدم الخبر على السلطان بأن شيخا ونوروزا لم يمضيا حكم المناشير السلطانية ، وأنهما أخرجا إقطاعات حلب وطرابلس لجماعتهما ، وأن الأمير شيخا سير يشبك العثمانى لمحاصرة قلعة البيرة وقلعة الروم ، وأن عزمهما العود لما كانا عليه من الخروج عن الطاعة .

فعلم السلطان عند ذلك أن الذى يحرك هؤلاء على الخروج عن الطاعة والعصيان إنما هم المماليك الظاهرية الذين هم فى خدمة السلطان ، ووافقه على ذلك أكابر أمرائه ، وحسنوا له القبض عليهم ، وكان الوالد ينهاه عن مسكهم ، ويحذره من الوقوع فى ذلك ، فلما استقر الوالد فى نيابة دمشق خلا له الجو ، وفعل ما حدثته نفسه مما كان فيه ذهاب روحه ، فقبض الملك الناصر على

جماعةٍ كبيرةٍ منهم ، وحَبَسَهم بالبُرْجِ مِنَ القَلْعَة ، ثمّ قَتَلَهم بعْدَ شهر ، وكانوا جَمْعاً كبيرا .

ثمّ أمسَكَ السّلطانُ الأميرَ خيربَك نائب غزّة ، وهو يومئذ من أُمَرَاء الأُلوف بالدّيار المِصْريّة .

ثمّ ورد الخبر على السّلطان بحصار عسكر نَوْرُوز لِحِصْنِ الأكراد(١) ، فاختَبَطَ السّلطانُ وكَتَبَ إلى شيخٍ ونَوْرُوز بالتّهديد والوَعيد .

ثمّ في أوّل شهر ربيع الآخر خَلَعَ السّلطانُ على الأميرِ أسنْبُغا الزَّردكاش — أحَدِ أُمَرَاء الألوف وزَوْجِ أُختِهِ خَوَنْد بَيْرَم بنتِ الملك الظّاهر بَرْقُوق — باسْتِقْرَارِهِ شاد الشّراب خاناة عوضاً عن الأمير سُودُون الأشْقَر .

ثمّ في ثالث عشرِهِ خَلَعَ السّلطانُ على فخر الدين عبد الغنيّ بن أبي الفرج كاشف الوجه البحريّ باسْتِقْرَارِهِ أستادارا عوضاً عن تاج الدين عبد الرزّاق بن الهيصم ؛ بحكم القَبْضِ عليه ، وتَسْلِيمه وحَوَاشِيه إلى فخر الدين المذكور .

ثمّ في أوّل جمادى الأُولى رَسَمَ السّلطانُ بِهَدْمِ مدرسةِ الملكِ الأشْرَف شَعْبَان ابنِ حُسين ، التي كانت بالصّوّة تجاه الطبلخاناة السّلطانيّة ، ومكانها اليوم بيمارستان(٢) الملك المؤيّد شيخ ، فوَقَع الهَدْمُ فيها ، وكانت مِن مَحَاسِنِ الدّنيا ، ضاهَى بها الملكُ الأشْرَفُ مدرسةَ عمّه السّلطان الملك الناصر حَسَن التي بالرُّمَيْلَة تجاه قلعة الجَبَل .

ثمّ رَسَمَ السّلطانُ بِهَدْم البيوت التي هي مُلاصِقة للمَيْدَانِ من مصلاّة المؤمنيّ(٣) إلى باب القَرَافة ، فهُدِمَت بأجْمَعِها وصارت خَرَاباً .

(١) حصن الأكراد : أو الكرك كما يسميها فرسان الصليبيين (ج ١٢ : ٢٩٨ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) كان هذا البيمارستان يقع فوق الصوة تجاه طبلخاناة السلطان بقلعة الجبل حيث كانت المدرسة الأشرفية (شعبان) وقد هدمها الناصر فرج بن برقوق . وجاء المؤيد شيخ وبنى مكانها هذا البيمارستان (ج ١٢ : ١٨٦ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) مصلاة المؤمنى : نسبة إلى الأمير سيف الدين بكتمر بن عبدالله المؤمنى المتوفى سنة ٧٧١ هـ، وتقع بميدان الرميلة وبجوارها سبيل المؤمنى (ج ١١ : ٥٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

ثمّ أمرَ السُّلطانُ بالقَبضِ على أقارِب جمال الدين يوسف الأستادار وعقوبتهم، فأُمسِكُوا وعُوقِبوُا عُقوبَاتٍ كثيرة .

ثمّ خَنَقَ أحمدَ ابنه ، وأحمدَ ابن أختِهِ ، وحمزةَ أخاه فى ليلة الآحد سادس عشر جُمادَى الأُولى .

ثمّ كَتَب السّلطانُ ثانياً إلى الأميرِ شَيخ يُخَوّفُهُ ويُحَذِّرُه، ويأمره أنْ يُجَهِّزَ إليه الأميرَ يَشْبُكَ العثمانىّ ، وبُرْدبَك ، وقانِى بَاى الخازِنْدار ، ويُرسِلَ سُودُون الجَلَب إلى دِمَشق ؛ ليكونَ مِن جُملة أُمرائها .

ثمّ بعد إرسال الكِتاب تَوَاتَرَت الأخبارُ باتِّفاق شَيخٍ ونَوْروز على الخُروجِ عَنِ الطّاعَة ، وعَزَمَا عَلَى أخْذِ حَماة ، فوَقَعَ الشُّرُوعُ والاهتمام لِسَفَرِ السّلطانِ إلى البلاد الشّامية ، وكتب إليها بتجهيز الإقامات .

ثمّ تَكَلَّم الأستادارُ فخر الدين بن أبى الفرج مع السّلطانِ وَحسّنَ له القَبْضَ على الوزير ابن البشيرىّ[(١)] ، وعلى ناظر الخاصّ ابن أبى شاكر[(٢)] ، فلمّا بَلَغَهُما ذلك بادَرَا واتّفقا مع السّلطانِ عَلَى مَالٍ يقُومانِ به للسّلطاَن إنْ قَبَضَ على فخر الدين ابن أبى الفرَج المذكور ، فمالَ السُّلطَانُ إلى كلامهما وأمْسَكَ فخرَ الدين المذكورَ فى سلخ جمادى الآخرة ، وسَلَّمَه للوزيرِ ابن البَشِيرىّ ، فلم يَدَع ابنُ البَشِيرىّ نوعاً من العقوبات حتى عاقَبَ ابنَ أبى الفرج المذكور بها ، فلم يَعْتَرِف بشىء غيرَ أنّه وُجِدَ له سِتّةُ آلاف دينار ، وجِرَارٌ كثيرةٌ قدْ مُلِئَت خمرا ، واستَمَرّ ابنُ أبى الفرج فى العقوبة أيّاماً كثيرة .

ثمّ فى شهر رجب نَزَلَ السّلطانُ من القلعة إلى الصَّيد ، فباتَ ليلةً وعَزَمَ على مَبِيتِ ليلةٍ أُخرى بسِرْيَاقُوس ، فبَلَغَهُ أنّ طائفةً مِنَ الأُمراء والمماليكِ اتّفقُوا

(١) هو سعد الدين إبراهيم بن بركة المعروف بابن البشيرى . توفى رابع عشر صفر سنة ٨١٨ هـ له ترجمة فى وفيات تلك السنة (ج ٦ من هذا الكتاب ط كاليفورنيا) .

(٢) هو الوزير تقى الدين عبد الوهاب ابن الوزير فخر الدين عبد الله ابن الوزير تاج الدين أحمد ابن شرف الدولة إبراهيم ابن الشيخ سعيد الدولة . توفى فى حادى عشر ذى القعدة سنة ٨١٩ هـ المرجع السابق ٦ : ٤٥٦ .

على قَتْلِهِ ، فعادَ إلى القاهرةِ مُسْرِعا ، وأخَذَ يَتَتَبَّعُ ما قِيلَ حَتَّى ظَفِرَ بمَمْلُوكَيْن عندهما الخَبَر ، فعاقَبَهُما فى ثامن عشر شهر رَجَب المذكور ، فأظهرا وَرَقَةً فيها خُطُوط جماعةٍ كبيرة ، كبيرهم الأمير جَانَم من حسن شاه نائب طرابُلُس — كان — وهو يوم ذاك أميرُ مجلس .

وكان جَانَم المذكورُ قَدْ سافَرَ قبلَ تاريخه إلى مُنْيَةِ ابن سَلْسِيل[1] ، وهى مِنْ جملة إقطاعه ، فَنَدَبَ السّلطانُ الأميرَ بَكْتَمُر جِلِّق ، والأميرَ طُوغَان الحسنىّ الدّوادار ، لإحضار جَانَم المذكور ، وخرَجا فى يوم السّبت عشرين شهر رَجَب ، على أنّ بَكْتَمُر جِلِّق يَسِيرُ فى البَرّ ويُمْسِكُ عليه الطّريقَ ، وطُوغَان يَتَوَجَّهُ إليه فى البحر ، ويُمْسِكُهُ ويُحضِرُه إلى السّلطَانِ ، فَسَارُوا .

وَمَسَكَ السّلطانُ بعدَ خروجِهِما جماعةً كبيرةً من الأُمراء والمماليك الظّاهريّة ، منهم : الأميرُ عاقِلُ ، والأميرُ سُودُون الأبو يَزِيدِىّ .

وأمّا طُوغَان الدّوادار فإنّه سارَ فى البَحْرِ حتى وافَى الأمير جَانَم ، واقتتلا فى البَرّ ، ثمّ فى المراكب حتى تعيّن[2] طُوغَانُ على جَانَم ، فألْقَى جَانَمُ نفسَه فى الماء لِيَنْجُوَ فَرَمَاهُ أصحابُ طُوغان بالنّشّاب حتى هَلَكَ ، وأُخِذَ وقُطِعَ رأْسُهُ فى ثانى عشرينه ، وقَدِمَ طُوغانُ على السّلطانِ فى رابع عشرينه .

وكَانَ السّلْطانُ قد مَسَكَ فى يوم ثانى عشرينه فى القاهرة الأميرَ إينَال الصّصلانىّ الحاجب ، والأميرَ أرْغَز ، والأميرَ سُودُون الظّريف ، وجماعةً من المماليك الظّاهريّة .

ثمّ قَبَضَ السّلطانُ فى يوم ثالث عشرينه أيضاً على الأمير سُودُون الأَسَنْدَمُرِىّ أحدِ أُمراء الألوف وأمير آخور ثانى ، وعلى الأمير جَرَبَاش العُمَرِىّ رأس نوبة ، وأحدِ أُمراء الألوف أيضا .

(١) منية ابن سلسيل : هى منية بدر بن سلسيل وقد وردت فى المشترك لياقوت ، وهى من أعمال الدقهلية (محمد رمزى — القاموس الجغرافى ١ : ٤٣٧) .
(٢) كذا فى الأصول . ولعلها تحريف « تغلب » .

ثمّ فى خامس عشرينه قَبَضَ السّلطانُ على جماعةٍ من أكابرِ المماليك الظاهريّة ، ووسّط منهم خمسة ؛ فنَفَرَت القُلوبُ منه ، ووَجَدَ شيخٌ و نَوْرُوز للوثوبِ عليه سَبيلاً لِكَمِينٍ كان فى نفسهما منه .

ثمّ خلَعَ السّلطانُ على مَنْكَلِى أستادار الخليلىّ باستِقْرَارِه أستاداراً عوضاً عن فخر الدين بن أبى الفرج .

ثمّ كَتَبَ السّلطانُ للوالد بالقَبْضِ على الأمير يَشْبُك بن أزْدَمُر أتابَك دِمَشْق ، وعلى إينَال الخازِندار ، وعلى بُرْدبَك الخازِندار ، وعلى بُرْدبَك أخى طُولُو ، وعلى سُودُون من إخوة الأتابَك يَشْبُك ، وعلى تَنبَك من إخوة يَشْبُك أيضا ، والفحصِ عن نُكْبَاى الحاجِب ؛ فإن وَجدَه من جُملةِ المُنافِقين فليقبض عليه ، ويعتقلهم ، وسارَ البَرِيدُ للوالد بذلك ، وبعد خُرُوجِ البريد بذلك ، ذَبَحَ السلطانُ فى ليلةِ الأربعاء — مستهل شعبان — عشرينَ مملوكاً ممّن قَبَضَ عليهم .

ثمّ وسَّطَ مِنَ الأمراء فى يوم الأربعاء ثامِنِه عشرةً أُخَر تحْتَ القلعة ، منهم : الأمير حزْمَان نائب القُدْس ، والأمير عَاقِل ، وأرْغَز أحدُ أُمراء الألوف بدِمَشْق ، والأمير سُودُون الظّريف ، والأميرُ مُغُلْبَاى ، والأميرُ محمّد بن قَجْمَاس .

وفى ليلة الأربعاء المذكورة قَتل السّلطانُ أيضاً بالقلعةِ مِنَ المماليكِ الظّاهريّة زيادةً على مائة مملوكٍ من الجَرَاكسة من مماليكِ أبيه .

ثمّ رَكِبَ سحَرَ يوم الخميس إلى الصَّيْدِ بناحِيَةِ بَهْتِيت( ) — من ضواحى القاهرة — وأمَرَ وَالىَ القاهرة أن يقْتُلَ عشرةً من المماليكِ الظّاهريّة لتخلّفهم عن الرّكُوبِ معه ، فقُتِلُوا .

وعادَ السّلطانُ من الصَّيْد بِثِياب جُلُوسِهِ ، وشَقّ القاهرةَ وهو سَكْرَان لا يكاد

---

(١) بهتيت : قرية من ضواحى القاهرة ، وحرفت إلى بهتين ثم إلى بهتيم — حالياً — (على مبارك — الخطط ٩ : ٩٨ — ٩٩) .

يَثْبُت على فرسِهِ من شِدّة سُكْره ، ومَرّ فى أقلّ من مائة فارِس ، وسارَ على ذلك حتى طَلَعَ القَلْعَةَ نِصفَ النّهار .

وفى شعبان هذا ، ابتدأ بالوالدِ مرضُ موته ، ولَزِمَ الفراش بدار السّعادة ، وقد لهجت الناسُ أنّ الملك النّاصر قد اغتاله بالسّمّ ؛ فإن كان ما قيل حقيقة فقد التَقيا بين يَدَى حاكم لا يَحْتَاج إلى بَيِّنَة ، وسَبَبُ ذلك — عَلَى ما قيل — عدمُ مَسْكِ الوالدِ للأمير شيخ ونَوْرُوز لمّا دَخَلاَ عليه بِدَارِ السّعادة بدِمشق ، وأيضاً أنّه لمّا أمره بمَسْكِ مَنْ تقدّم ذكرهم فأمسكَ منهم جماعةً ، وأعلم يَشْبُك بن أَزْدَمُر بالخبرِ ففَرّ إلى جهةِ شَيْخٍ ونَوْرُوز ، وأشْياء غير ذلك .

ولكن حدّثتنى كَرِيمتى خَوَنْد فاطمةُ زوجةُ الملك الناصر المذكور بخلاف ذلك ، وهو أنّه لمّا قدمَ عليه الخبرُ بمَرَضِهِ صارَ يتأسّفُ ويَقُولُ : إنْ ماتَ أبوك تَخْرَبت مملكتى ، وبَقِيَ كُلّما وردَ عليه الخبرُ بعافيته يُظْهر السّرور ، وكُلّما بلغه أنّه انتكس يُظْهِرُ الكآبة ، وأنّه ما أخَذَهاَ صحبته فى التجريدة إلى الشّام إلاّ حتى تعوده فى مَرَضِهِ ، وأشياء من ذلك .

ثمّ إنّ السّلطان نادَى فى أوّل شهر رمضان من سنة أربع عشرة وثمانمائة بالقلعة بالأمان ، وأنّهُم عتقاء شهر رمضان .

ثمّ تَتَبّعَهم[1] بعد الأمان وأمْسَكَ منهم جماعةً كبيرة ؛ حتى إنّه لم يخرج شهر رمضان حتى أمْسَكَ منهم أزْيَد من أربعمائة نَفَر وسجَنَهم بالبُرْجِ من القلعة .

وفى رابع شهر رمضان المذكور أفَاق الوالدُ من مَرَضِهِ ، وزُيّنَت دِمَشْق ودُقّت البَشائِر بسائر البلاد الشّامية حتى حَلَب وطرابُلُس ، وأرْسل الأميرُ شيخُ ونَوْرُوزُ إليه بالتّهنئة ، فَعَظُمَ ذلك أيضاً على الملكِ الناصرِ .

وفى هذا الشهر تأكّد عند السّلطانِ خروجُ شيخٍ ونَوْرُوزٍ عن طاعته ، وَبلَغَه أنّ نَوْرُوزاً قتل آق سُنقُر الحاجب ، فتحقّق السّلطانُ عِصْيانَ المذكورَيْن .

(١) أى المماليك الظاهرية — برقوق — لما سيجىء بعد بصدد من ذبحهم السلطان فرج .

ثمّ ذَبَح السّلطانُ فى ليلة ثالث شوّال أزْيَدَ من مائةِ نَفْسٍ من المماليك السّلطانية الظّاهريّة المحبُوسِين بالبُرج ، ثمّ أُلقُوا من سُورِ القلعةِ إلى الأَرْض ، ورُمُوا فى جُبّ ممّا يلى القَرَافة ، واستمَرّ الذبحُ فيهم .

ثمّ فى يوم الإثنين عاشر شوّال عدّى السلطانُ النيلَ إلى ناحية وَسيم(١) للرّبيع(٢) وَباتَ به ، ورَحل فى السّحَر بعساكرِه يُريد مدينةَ إسكندريّة ، بعد ما نُودِى فى القاهرة بألّا يَتأخّر أحَدٌ من المماليكِ السلطانيّة بالقاهرة ، وأن يمدّوا إلى بَرّ الجيزة فمدّوا بأجمعهم ، فمنهم من أمرَهُ السلطانُ بالسّفر ، ومنهم من أمرَهُ بالإقامةِ .

ثمّ بَعَثَ السلطانُ الأميرَ طُوغان الحَسَنىّ الدّوادار ، والأميرَ جَانِبَك الصّوفىّ ، وسودُون الأشْقَر ، وَيلبُغا النّاصرىّ ، وجماعةً من المماليك إلى عدّةِ جِهاتٍ من أراضى مِصْرَ ؛ لأخذِ الأغنام والخيول والجمال حيثُ وُجِدتْ لِسكائنٍ مَنْ كان ، فسارَ الأمراء وشَنُّوا الغارات فما عَفَوا ولا كَفُّوا .

ثمّ سارَ السلطانُ ببقيّةِ أُمرائه وعساكرِه إلى الإسكندريّة ، فدَخلها فى يوم الثلاثاء ثامن عشر شوّال من سنة أربع عشرة المذكورة ، فقَدِمَ بها على السلطان مشايخُ البُحَيرة بتقَادمهم ، فخلعَ عليهم ثمّ أمسكهم وساقَهُم فى الحديد ، واحتَاط على أموالهم ، ففرّ باقِيهم إلى جهةِ بَرْقاء ، ثم قدمَ الأمراء وقد ساقُوا أُلوفاً من الأغنام التى انتهبُوها مِن النواحى ، وقد مَاتَ أكثرها ، فسِيقَتْ إلى القاهرة مع الأموال والجاموسِ وَالخيول .

ثمّ رسَم السلطانُ أنْ يُؤخذَ من تجار المغاربةِ العُشْرُ ، وكان يُؤخذُ منهم قبلَ ذلكَ الثُّلث ، فشكرَ النّاسُ له ذلكَ .

ثمّ خَرَجَ من الإسكندرية عائداً إلى القاهرةِ ، وسارَ حتى نزلَ على وَسيم فى يوم السبتِ تاسع عشرينه .

(١) وسيم : قرية من قرى محافظة الجيزة غربى إمبابة ، ويقال لها أوسيم (ياقوت – معجم البلدان) .
(٢) الربيع : مكان الرعى (المقريزى – السلوك – ١ : ٣٧٣) .

وقد مات بسجن الإسكندرية الأمير خيربك نائب غزة، فاتهم السلطان أنه اغتاله بالسم، والصحيح أنه مات حتف أنفه.

ثم قدم كتاب الأمير نوروز الحافظى على السلطان على يد فقيه يقال له سعد الدين، ومملوك آخر، ومعهما محضر شهد فيه ثلاثة وثلاثون رجلاً من أهل طرابلس — ما بين قاض وفقيه وتاجر — بأنه لم يظهر منه بطرابلس منذ قدم إليها إلا الإحسان للرعية، والتمسك بطاعة السلطان، وامتثال مراسيمه، وأن أهل طرابلس كانوا قد خرجوا منها فى أيام جانم لما نزل بهم من الضرر والظلم، فعادوا إليها أيام نوروز المذكور، وأنه كلما ورد عليه مثال سلطانى يتكرر منه تقبيل الأرض، وأنه حلف — بحضرة من وضع خطه — بالأيمان المغلظة الجامعة لمعانى الحلف أنه مقيم على طاعة السلطان، متمسك بالعهد واليمين، فلم يغتر السلطان بالمحضر ولا التفت إليه؛ لما ثبت عنده من عصيانهما(١).

قلت: ولهذه الأيمان الحانثة ذهب الجميع على السيف فى أسرع مدة، حتى إنى لا أعلم أن أحداً من هؤلاء(٢) الأمراء مات على فراشه، بل غالبهم تفانوا قتلاً على أنواع مختلفة لتجرئهم على الله تعالى، وكان يمكنهم الخروج على الملك الناصر المذكور لسوء سيرته فيهم ثم يعودون إلى طاعته من غير أن يتعرضوا للأيمان والعهود، والتلاعب بذلك فى كل قليل، وصار ذلك دأباً لهم إلى أن سلط الله بعضهم على بعض، فذهبوا كأنهم لم يكونوا — مع قوتهم، وشدة بأسهم، وفرط شجاعتهم — وملك بعدهم من لم يكن فى رتبتهم ولا يدانيهم فى معنى من المعانى، ودانت له البلاد، وأطاعته العباد، وصفا له الوقت من غير معاند ولا مدافع.

(١) أى عصيان شيخ ونوروز.

(٢) فى الأصول «من هذه».

« وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »[١].

ثمّ إنّ السّلطانَ الملكَ الناصرَ بعدَ حضور هذا المحضَر أخذ فى الاهتمامِ للسَّفر .

ثمّ نَزَلَ منَ القلعة وعدّى النيل فى يوم الإثنين ثانى ذى القعدة ، وتوجّه إلى الربيع ، وعادَ منْ يَوْمِهِ إلى القلعة وهو فى أناس قليلة ، ثمّ بعد عَوْدِه رَسَم بقَتْلِ الأمير جَرَبَاش العُمَرىّ ، والأمير خُشْكَلدِى بثغر الإسكندريّة ، فقُتلا بها ودُفنا بالثّغر المذكور .

ثمّ فى رابعِ عشر مِن ذى القعدة ، أنْفقَ السُّلطانُ على المماليك السُّلطانية نفقةَ السفر ؛ فأعطى لكلّ نفر سبعين ديناراً ناصريًّا ، وبعثَ للأمير الكبير دَمُرْدَاش المحمّدىّ ثلاثة آلاف دينار ، ولكلّ مِنْ أمراء الألوف بألفَىْ دِينار ، وَلأمراء الطَّبلخاَنات مَا بَين سبعمائة دِينارٍ إلى خمسمائة دِينار .

ثم فى ليلة الخميس رابع عشرين ذى القعدة ، طلبَ السُّلطانُ الأميرَ شهابَ الدين أحمد بن محمد بن الطَّبلاَوىّ ؛ فلما حَضر إلى عنده ضَرَبَ عنقه بيده ، بعدَ أن قتل مُطلَّقَتَهُ بنتَ صُرُق بِيدِه تَهْبيراً بالسَّيف عند كريمتى بقاعة العواميد[٢] ، فإنها كانت يوم ذاك صاحبة القاعة .

وخَبَرُ ذلك : أن السّلطانَ الملك الناصر كان قَدْ طلّقَ خَوندَ بنْتَ صُرُق المذكورة ، وَنزَلت إلى دَارها ، وكان له إليها مَيْل ، فَوُشِى بها أنّ

---

(١) آية ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(٢) قاعة العواميد : إحدى قاعات القلعة ، وتعرف بالقاعة الكبرى ، وكانت مخصصة لحاجات السلطان المنزلية . (ج ١٢ : ١٤٥ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

ابنَ الطّـبلاوىّ المذكورَ وَقعَ بينهُ وبينهاَ اجتماعٌ ، وظهرَ له قرائنُ تدُلُّ على ذلك ، منها أنّه وُجدَ لها خاتمٌ عندهُ .

فأرْسلَ السُّـلطانُ خلفها ، فلبستْ أفخرَ ثيابها ظنًّا منها أنّ السُّلطانَ يريدُ يعيدها لعصمته . قالَتْ أُختى خوْندُ فاطمة : وَكان السّـلطانُ جالساً عندى بالقَاعة ، فلمّا قيلَ له جاءتْ خَـونْدُ بنْتُ صُرُق نهضَ مِنْ وَقتهِ وخرَج إلى الدّهليز ، وجلس به على مسطبة .

قالتِ : فخرجْتُ خلفه ولا عِلم لى بقصْدهِ ، فجـاءت بنُت صُرُق وقبّلتْ يدَه ، فقال لهـا : يا قحبة ، مَراكيبُ الملوكِ تركبها البلاّصية ؟ !

وقبل أن تتكلم ضَربها بالنِّمْجاة[١] قطع أصابعها — وكانَت مقمعة بالحناء — فصاحَتْ وهربَت ، فقَام خلفها وضربهَا ضرْبةً ثانيةً قطعَ منْ كتفها قِطعةً ، وصارَت تجرى وهو خلفها — وَقد اجتمعَ جميع الخوندَات عندى بالقاعة للسّـلام على بنت صُرُق المذكورة — وَلازَال يضربها بِالنِّمْجاة وهى تجرى إلى أن دخلت المستراح ، فتمّمَ قتلها فى صَحْن المستراح ، ثمّ قطعَ رأسها وأخذها بِدَبُّوقتها[٢] — وفى آذانها الحلق البلخش[٣] الهائلة — وَخرَج إلى قاعة الدّهيشة[٤] ، وَوَضعها بَين يديهِ وغطّاها بفوطة ، ثمّ طلبَ ابنَ الطبلاوىّ المقدّم ذكره وَأجلسهُ وكَشفَ له عن الفوطةِ ، وقال له : تعرف هذه الرأس ؟ فأطرق .

(١) النمجاة : خنجر مقوس شبه السيف القصير ، وهو معرب اللفظ الفارسى نمجه ويقال نمجاه ونمجه ونمشاه ونمشه — عن هامش الدكتور زيادة على (السلوك للمقريزى ١ : ٨٥٧) .

(٢) الدبوقة : الشعر المضفور (تعليق د . بوبر على ص ٢٥٤ من ج ٦ من هذا الكتاب ط كاليفورنيا) .

(٣) البلخش : أو البدخش وهو نوع من الياقوت ينسب إلى جهات بدخشان فى أقصى شرق أفغانستان (عن تعليق الدكتور زيادة على السلوك للمقريزى ١ : ٥٠) .

(٤) الدهيشة : قاعة كبيرة مرتفعة البناء تدهش الناظر فيها ، عمرها الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد ابن قلاوون ، وكانت تقع فى الجهة الشرقية من جامع القلعة (ج ١٠ : ٨٩ — ٩٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

فضرَبهُ بالنِّمْجاة طيَّر رَقبتَه . ولفهما معاً فى لحافٍ وأمرَ بدفنهما فى قبرٍ واحد . قالتْ أختى [خوند فاطمة] [١] : وصارَ دمُ بنت صُرُق فى حِيطانِ القاعةِ ودَهليزها .

وقالت : فوالله لمَّا دَخل الفِداويَّة[٢] بقلعة دِمشق على الملكِ الناصر ليقتلوهُ — وكان استصحبنى معهُ لأعود الوالدَ فى مرضه — فصارت الفِداويّة تضربُه بالسكاكين ، وَهو يَفرّ مِن بين أيديهم كما كانت تَفرُّ بنتُ صُرُق أمامه وهو يضربها بالنِّمْجاة . وبَقى دُمه بحيطانِ البرْج شِبه دم بنت صُرق بحيطانِ القاعة . قلْتُ : فانظروا إلى هذا الجزاء الذى من جنس العمل — انتهى .

ثمّ أصبح السلطانُ أمرَ بخروج الجاليش من الأمراء إلى البلاد الشّامية ، فخرجُوا بتجمُّلٍ عظيمٍ — وعليهم آلةُ الحرْب هم ومَمَاليكهم — وعرُضوا على السُّلطانِ وهم مَارُّون مِنْ تحتِ القلعةِ والسُّلطان ينظرُ إليهم مِنْ أعلى القصر السلطانىّ . وساروا حتى نزلوا بالرَّيْدَانيّة خارج القاهرة فى يوم الخميس رابع عشرين ذى القعدة من سنة أربع عشرة وثمانمائة .

وهم : الأمير بَكْتَمُر جِلِّق رأس نوبة الأمراء وصهر السلطان زوج ابنته ، وَشاهين الأفْرَم أمير سلاح ، وطُوغان الحَسَنىّ الدّوادار الكبير ، وشاهين الزّردكاش ، بمُضافيهم .

وكان السّلطان قبل خروج الأُمَرَاءِ المذكورين — منْ عِظَم غضبه وحنقه على الأمير نَوْرُوز الحافظىّ — جمعَ القضاَة ، وَطلّقَ أُخْتَه خَوَنْد سارة بنتَ الملكِ الظاهر

(١) الإضافة للتوضيح .

(٢) الفداوية : طائفة من الشيعة الإسماعيلية ، وسموا بذلك لأنهم يفادون بالمال على من يقتلونه ، ويسمون فى بلاد العجم بالباطنية لأنهم يبطنون مذهبهم ، وهم يسمون أنفسهم بأصحاب الدعوة الهادية . (القلقشندى — صبح الأعشى ١ : ١١٩ وما بعدها) .

بَرْقوق من زوجها الأمير نَوْرُوز ، وَزَوَّجها للأمير مُقبل الرُّومىّ — عَلَى كُرْهٍ منها ، بعد أن هدّدها بالقتل — بعقدٍ مُلفق مِنْ قضاة الجاه والشوكة .

فعظُمَ ذلك عَلَى الأميرِ نَوْرُوز إلى الغاية ، وَلم يَحْسُن ذلك ببالِ أحد — انتهى .

وَدامَ الأمراء بالرَّيدانيّةِ إلى يوم السَّبتِ خامس ذى الحجّة فرحلوا منها يُريدُون الشَّام .

ثمّ ركبَ السلطانُ فى يوم الثلاثاء ثامن ذى الحجّة وَنَزَل مِنْ قلعة الجبل ببقيَّة أمرائه وَعساكره — والجميع عليهم آلة السّلاح — بزىّ لم يُرَ أحسن منهُ ، بطُلْبٍ هائلٍ جُرَّ فيه ثلاثمائة جَنيب من خواصّ الخَيْل بالسّروج الذّهب التى بعضُها مرصّع بالفصوص المجْوهرة المُشمَّنة[١] ، وميا ثرُها[٢] المخمل المطرَّز بالزركش ، وعلى أكفالِهاَ العبي[٣] الحرير المثمنة ، وفيهاَ العبي المزركشة بالذهب ، وفيها بالكَنابيش[٤] الزَّركش ، والكَنابيش المثلَّثة بالزَّركش والرّيش واللؤلؤ ، وكلّها باللُّجُم المسقَّطة[٥] بالذّهب والفضّة ، والبَذْلات المينة[٦] ، والبَذْلات الذّهب الثقَّيلة ، ومن وراء الجنائب المذكورة ثلاثة آلاف

(١) المثمنة : المراد الغالية الثمن . يؤيد هذا ما جاء فى ج ١١ : ٢٨٢ من هذا الكتاب « أن السلطان — برقوق — أعطى الأمير قراد مرداش خاتماً مثمناً قيمته آلاف عديدة الخ » وماجاء فى كتاب الملابس المملوكية لماير ص ٧٤ فى حديثه عن الأخفاف المثمنة الخاصة بالنساء .

(٢) ميائرها : جمع ميثرة . وهى كهيئة المرفقة تتخذ للسرج كالصفة (معجم الوسيط ٢ : ١٠٢٢) يعنى غطاء السرج .

(٣) العبى : جمع عباءة أوعباية بلغة العامة .

(٤) الكنابيش : انظر التعليق ص ١٢٠

(٥) وهى المعشقة بالذهب وتسمى المكفتة أيضاً .

(٦) البذلات المينة . هى المحلاة بالمينة . وهىجوهر الزجاج الملون ، أوالطلاء بذائب الرصاص والأكاسيد المعدنية الملونة كالأخضر من أكسيد النحاس ، والأحمر من أكسيد الحديد ، والأصفر منحامض الأنتيمون ، والأبيض من أكسيد القصدير ، والأزرق من مسحوق اللازورد مع زجاج لا لون له .

(م . س . ديماند — الفنون الإسلامية — ترجمة أحمد عيسى ٢٣٩ ط دار المعارف) .

فَرَس سَاقها جُشاراً[١] ثمّ عددٌ كبير من العَجل التى تجرّها الأبقار وعليها آلاتُ الحصار ؛ مِنْ مكاحل النّفط الكبار ومدافع النّفط المهولة ، والمناجيق[٢] العظيمة ونحو ذلك ، ثُمَّ خرجت خِزَانةُ السِّلاح – أعنى الزّردخاناة – على أكثر مِنْ ألفِ جَمَل تحمل القَرْقلات[٣] ، والخُوَذ ، والزّرديَّات ، والجواشن[٤] ، والنُّشّاب ، والرِّماح ، والسّيوف وغير ذلك .

ثمّ خَرَجَتْ خزَانةُ المـال فى الصّناديق المغطّاة بالحرير الملوّن ، وفيها زيادة على أربعمائة ألف دينار ، وجميع الطُّبَّال والزُّمَّار – مماليكه مشترواته – بالكلفتَات ، وعليهم طَطريّات[٥] صفر ، وغالبهم قد ناهز الحلم ، بأشكالٍ بديعة من الحسن ، وقد تعلّموا صِناعةَ ضربِ الطبل والزّمر وأتقنوه إلى الغاية ، وهذا شىء لم يفعله ملك قبله .

ثمّ خرج حَريمُ السّلطان فى سبع محَفّات[٦] قَدْ غُشِّيَت بالحرير المخمّل الملوّن ، ما خلا محفّة الأخت فإنها غُشِّيت بالزّركش ؛ كونها كانت خوند الكُبرَى صاحبة القاعة ، ومِنْ ورائهم نحو الثلاثين حملا من المحاير[٧] المغشّاة بالحرير والجوخ .

ثمّ خَرَج المطبخُ السّلطانىّ ، وقد ساق الرّعيان برسمه ثمانيةً وعشرين

---

(١) جشارا : أى سيقت مباشرة – على حالها – من مرعاها (لسان العرب ج ٥) .

(٢) المناجيق : جمع منجانيق .

(٣) القرقلات : انظر التعليق ص ٥٩ .

(٤) الجواشن : جمع جوشن وهو الدرع (محيط المحيط) .

(٥) الططريات : جمع ططرية ، ويقال تترية . وهى لباس مثل القفطان يخالف القفطان التركى فى كون جانب صدره اليسار يلف فوق الجانب اليمين بعكس التركى (ماير – الملابس المملوكية ٢١) .

(٦) محفات : جمع محفة وهى هودج مغطى بالقماش يحمل على ظهر الجمل أو نحوه ويجلس فيه المسافر . (ج ٧ : ١١ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٧) المحاير : جمع محارة . وهى تشبه الهودج . وفى اصطلاح العامة صندوقان يشدان إلى جانب الرحل (عن هامش الدكتور زيادة على السلوك للمقريزى ٢ : ٢٣٣) .

ألف رأس من الغنمِ الضّأن ، وكثيراً مِنَ البقرَ والجامُوس لحلْبِ ألبانها ، فبلغَتْ عدَّةُ الجمال التى صحبة السّلطان إلى ثلاثةٍ وعشرين ألف جَمَل ، وهذا شيء كثيرٌ إلى الغاية .

ثمّ سارَ السلطانُ من القاهرة حتى نَزَل بمخيّمه من الرَّيدانيّة تجاه مسجد التّبن(١) وهذه تجْريدَةُ السلطانِ الملكِ النّاصر السّابعةُ إلى البلاد الشّاميّة ، وهى التى قُتل فيها حسبما يأتى ذكره ، وهذه التّجاريد خلاف تجْريدة السَّعيديّة التى انكسرَ فيها الملكُ النّاصرُ من الأمراء وعاد إلى الدّيار المصرية ، ولم يصل إلى قَطيا ، عَلَى أنّه تكلّف فيها إلى جُمَل مستكثرة ، وذَهبَ لهُ من الأثقال والقُماش والسّلاح أضعاف مَا تكلّفه فى النَّفقَةِ وغيرها . وكانَتْ تجريدتُه الأولى إلى قتال الأميرِ تَنم الحسنىّ الظّاهرىّ نائب الشّام فى سنة اثنتينِ وثمانمائة .

وتجريدتُه الثانيةُ لِقتال تيمُورلنك فى سنة ثلاث وثمانمائة .

والثالثةُ لِقتال جَكَم مِنْ عوض فى سَنة تِسْع وثمانمائة بعد واقعة السَّعيدية .

والرابعة فى سنة عشر وثمانمائة ، التى مَسكَ فيها الأمير شيْخاً المحُمودىَّ نائبَ الشّام والأتابَك يَشْبُك الشَّعبَانىّ ، وحبسَهُما بقلعة دِمشق ، وأطلقهُما مَنطُوق نَائبُ قلعة دِمَشْق .

والخامسة فى محرّم سنة اثنتىْ عشرة وثمانمائة ، وهى التى حَصر فيها شيخاً ونَوْرُوزاً بصَرْخد .

والسادسة سنة ثلاث عَشرَة وثمانمائة ، وهى التى حَصرَ فِيها أيضاً شيخاً ونَوْروزاً بقلعة الكَرك .

والتجريدة السابعة هذه .

فجملةُ تجاريده ثمانى سَفرات بواقعة السعيدية ـ انتهى .

---

(١) مسجد التبن : بنى سنة ١٤٥ ه ، وعرف بمسجد البئر ومسجد الجميزة ، وفى الدولة الإخشيدية عمره الأمير تبر فعرف به ، وحرفته العامة إلى تبن ، ولايزال موجوداً قائماً شمالى غربى محطة حمامات القبة ، ويعرف بزاوية الشيخ التبرى (ج ٧ : ١٩٦ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

ثمّ خرَجَ الخليفةُ المستعينُ بالله أبو الفضل العبَّاس ، والقضاةُ الأربعةُ ، وهم : قاضى القضاة جلالُ الدين عبد الرحمن البُلْقِينىّ الشّافعىّ ، وقاضى القضاة ناصرُ الدين محمّد بن العَدِيم الحنفىّ ، وقاضى القضاة المالكىّ[1] ، وقاضى القضاة الحنبلىّ[2] ، ونزل الجميعُ بالرّيْدَانيّة ، وتَرَدَّدَ السّلطانُ فى مُدَّة إقَامَتِهِ بالرّيْدَانيّة إلى التُّربة التى أنشأها عَلَى قَبْر أبيه بالصَّحْراء خَارِجَ بَابِ النّصر ، وباتَ بها ليالِىَ ، ونَحَرَ بها ضحاياه ، وجعَلَ الأميرَ يَلْبغُاَ الناصرىّ نائبَ الغَيْبة بالقاهرة ، وجعَلَ فى باب السّلسلة الأميرَ أَلْطُنْبُغَاَ العثمانىّ ، وبقلعة الجبل الأميرَ أَسَنْبُغَاَ الزَّردكاَش شادّ الشّراب خاناة ، وزوجَ أخته خوَنْد بَيْرَم ، ووَلّى نيابةَ القلعة للأمير شاهين الرّومىّ عوضاً عن كَمُشْبُغَاَ الجَاَلىّ ، وبعث كَمُشْبُغَاَ الجمالىّ صحبة حريمه ، وقدَّمَهم بين يديه بمرْحَلة .

ثمّ رحلَ السّلطانُ من تُربة أبيه قُبَيْل الغُرُوب من يوم الجمعة ثانى عشر ذى الحجّة من سنة أربع عشرة وثمانمائة ، لطالع اختارَهُ لهُ الشيخ بُرْهَانُ الدين إبراهيم بن زُقاعة ، وقد حَزَرَا ابن زُقاعة وقت ركوبه ، وعوّقَ السّلطانَ عن الركوب — والعساكرُ واقفة — حتى دَخَلَ الوقتُ الذى اختارهُ له ، فأمَرَه فيه بالرّكوب ، فرَكِبَ السّلطانُ وسارَ يريدُ البلادَ الشّاميّة ، ونَزلَ بمخيّمه من الرّيْدَانِيّة ، وفى ظَنّهُ أنّه منصورٌ على أعدائه ؛ لِعِظَمِ عساكره ، ولطاَلِع اختارَه له ابن زُقاعة ، فكانت عليه أَيْشَمَ[3] السّفرات ، فلَعَمْرِى هَلْ رَجَعَ الشيخ بُرهان الدين بن زُقاعة المذكور بعد ذلك عَنْ مَعْرِفَةِ هذا العِلْم أم استمرّ على دَعْوَاه ؟! .

وأنا أتعجّبُ منْ وَقَاحَة أرْبَاب هذا الشّأن حيثُ يَقَعُ لهم مثلُ هذا الغَلَطِ الفاحِشِ وأمثاله ، ثم يعودون إلى الكلام فيه والعمل به — انتهى .

---

(١) هو قاضى القضاة شمس الدين محمد بن على بن معبد القدسى . المعروف بالمدنى . المالكى . توفى فى عاشر ربيع الأول سنة ٨١٩ ﻫ (البدر العينى — السيف المهند ٣١٢) ، (السخاوى — الضوء اللامع ٦ : ٤٥٧)

(٢) هو قاضى القضاة مجد الدين سالم بن أحمد ، وقد تولى قضاء الحنابلة من سنة ثلاث وثمانمائة إلى سنة ست عشرة وثمانمائة (ج ٧ : ١٣٦ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) أى أشأم .

ثمّ استَقَلَّ السّلطانُ بالمَسِير في سَحَرِ يوم السبت ثالث عشر ذى الحجّة.

وفى هذا الشّهر انتَكَسَ الوالدُ ثالث مرّة، وَلَزِمَ الفراشَ إلى أن مات[1] حَسْبَماَ يأتى ذكرُه.

وأمّا السّلطانُ الملكُ الناصرُ فإنّه قَبْلَ المسير حذّرَ عسكرَه من الرّحيل قَبْلَ النّفير، فبلَغَهُ وهو بالرّيدانيّة أنّ طائفةً رَحلَت، فرَكِبَ بنفسه وقبض على واحدٍ ووسّطَه، ونَصَبَ مَشْنَقَةً، فما وصلَ إلى غزّة حتى قَتَل عدّةً من الغِلْمان؛ من أجل الرّحيل قبْل النّفير، فتشاءم الناسُ بهذه السَّفْرة.

ثمّ سارَ حتى نزَلَ مدينةَ غزَّة، فوسّط بها تسعةَ عشر نَفَراً من المماليك الظاهريّة وهو لا يعْقِلُ من شِدَّةِ السُّكْر، وعَقِيبَ ذلك بَلَغَهُ أنَّ الأُمراء الذين بالجاليشِ تَوَجَّهُوا بأجْمَعِهِم إلى شيخٍ ونَوْرُوزٍ، وكان من خبرِهم أنّهم لَمَّا وَصلُوا إلى دِمَشْق دَخلُوا إلى الوالِدِ وَقدْ ثقُل فى الضّعف وسلَّمُوا عليه، وأخبرَهُ بَكْتَمُر جِلَّق وطُوغان أنهما بِمَنْ معهُما يُريدُون التوجّهَ إلى شيخٍ ونَوْرُوزٍ، فرَجَّعَهُم الوالدُ عن ذلك، فذَكَرُوا لهُ أعذاراً فسكَتَ عنهم، فقامُوا عنه وخَرَجُوا بأجْمعهم وتَوَجَّهُوا إلى شيخٍ ونَوْرُوزٍ — ما خلاَ شاهِين الزَّردكاش — فإنّه لم يُوافِقْهُم على الذّهابِ، فمَسَكُوه وذَهبُوا به إلى شَيْخٍ ونَوْرُوز.

ولمّا بلَغَ الملكَ الناصرَ ذلك، رَكِبَ وسارَ من غزَّة مُجِدًّا فى طَلَبِهِم، وقدْ نفَرَتْ منهُ القلوبُ، حتى نَزَلَ بالكُسْوة فى يوم الثلاثاء سَلْخَ ذى الحجّة، فألْبَسَ مَنْ معه منَ العساكر السّلاحَ ورتّبَهُم بنفْسِه.

ثمّ سارَ بهم قاصِداً دِمشْقَ حتى دَخلَها من يَوْمِهِ وقتَ الزّوال، وقد خرَجَ أعيانُ دِمَشْقَ وعوَامُّها لتلقّيه وللفُرْجة عليه، وزُيِّنَت لِقدُومِهِ دِمَشْقُ، ونَزَلَ بالقلعة

(١) زادت نسخة باريس بعد هذا اللفظ «رحمه الله وعفا عنه»

بعد أن نزَل عند الوالدِ بدارِ السّعادة وسَلَّمَ عليه ، وأمرَ زَوْجتَه خَوْند [فاطمة(١)] بالإقامة عند الوالدِ .

ثمّ أصبحَ يوم الأربعاء أوّل محرّم سنة خمس عشرة وثمانمائة خَلَعَ على القاضِى شهاب الدين أحمد بن الكُشك وأعادَهُ إلى قضاء الحَنفيّة بدِمَشق .

ثمّ شَفَعَ الوالدُ فى القاضِى ناصرِ الدين محمّد بن البَارِزِىّ ، فَطَلَبه السّلطانُ بدَارِ السّعادَةِ وأطْلَقَه منْ سِجْنِه بقلعة دِمَشق .

ثمّ أفرَجَ السّلطانُ أيضاً عن الأمير نُكْبِاى الحاجب ، وكان الوالدُ قبضَ عليه وحَبَسَه .

ثمّ دَخلَ السّلطانُ للوالدِ واستشاره فى الملأْ من النّاسِ فيما يَفعلُ مع هؤلاء الأمراء العُصاة ، فقال له الوالدُ : يا خَوَنْد تذبح فى سنتِك خمسمائة نفس ، وتتجرّدُ فى سَنَتِك ؟ ! فرسُك الذى تحتَكَ عاصٍ عليك ، فقال له الملكُ الناصِرُ : الكلام فى الفائت فائتٌ ، أيْش تُشيرُ علَىَّ الآن ؟ فقالَ : عِندِى رَأْىٌ أقولُه ، إنْ فعَلهُ السّلطانُ انْصلَحَ بِهِ حالُهُ ، قالَ : وما هو ؟ قال : تَرْجِعُ منْ هُنا إلى مِصْر ، فَمنْ كانَ لَهُ إليكَ مَيلٌ عادَ صُحْبتَكَ ، ومَنْ كانَ قَدْ دَاخَلَهُ الرُّعْبُ مِنْكَ فهو يُفارِقُكَ منْ هُنا ويَتَوَجّهُ إلى القوْم ، فإذَا دَخَلْتَ إلى مِصْرَ نَادِ بالأمان ، وكُفّ عن قَتْلِ مَماليكِ أبيكَ وغيرِهم ، وأَغْدِق عليهم بالإحسان ، وأَكْثِر إليهم مِنَ الاعتِذارِ فيما وَقعَ منكَ فى حقّ غَيْرِهم ، واسْلُك مَعَهُم قَرائِنَ تَدُلُّ على صَفوِ النّيّة ، فبهذا تَطْمَئِنُّ قلوبُ رَعيّتِك ، ويعودون لِطاعَتِك ، فإذا صارَ مَعك منهم ألفُ مَمْلُوكٍ قَهَرْتَ بهم جميعَ أعدائِكَ ؛ لِما شاعَ منْ إقدامِكَ وشَجاعَتِك ، ولِعِظَمِ ما فى قلبِ أعدائك من الرُّعبِ مِنك ، وأيضاً فإنّ هؤلاء الأمراء العُصاة قد كَثُروا إلَى الغاية ، فالبلادُ الشّاميّة لا تقومُ بأمْرِهم ، فإمّا أن يَقعَ بينهم الخُلْفُ على البِلاد فيَفْترِقُوا ، وإمّا أن يتّفِقُوا ويَجْتمِعوا على قِتالِك ويَأْتُوك إلى مِصْر ، فاخرُجْ إليهم

(١) الإضافة للتوضيح .

وَالقَهُم برَأْسِ الرَّمْل، فإنْ انتصَرْتَ عليهم فافعلْ ما بَدَا لَك، وإنْ كانت الأُخرى فاخرُجْ إلى البلاد ؛ فمِنْ قرَا يُوسف صاحب العِرَاق إلى والى قَطْياً فى طاعَتِك، فما عندِى غيرُ هذا . فاستَحْسن جميعُ عسكرِه هذا الرأْىَ إلاّ هُوَ ؛ فإنّهُ لم يُعْجِبه، وسَكَت طَوِيلاً، ثمّ رَفَعَ رأْسَهُ وقال : يا أَطَا(١)، أنَا قَتلْتُ هذهِ الخلائق لِتُعظَّمَ حُرْمَتى، فإذا رَجعْتُ منْ هُنا أَيْش يُبقى لِى حُرْمَةً، وأنَا أعْرَفُ بحال هؤلاء مِنْ غَيْرِى، واللهِ ما صِفَتُهم قُدَّامى إلاّ كالصَّيْد المجْرُوح، واللهِ إذَا بَقِىَ معى عشرةُ مماليك قاتلْتُهم بهم، ولا أَطْلُبُ إلاّ أنْ يَثْبتُوا ويقِفوا، ويقاتلونى حتى أَنتصف منهم، فقال له الوالدُ : اعلَمْ أنّهم الآن يُقاَتِلونَك .

ثمّ طلَبَنا الملكُ النّاصرُ [أنا وإخوتى] (٢) فأحضرُونا بين يدَيْه، وكُنّا ستّةَ ذُكُورٍ، فقبّلْنا يدَه — وأنا أصغرُ الجميع — فسألَ عَنْ أسمائِنا، فَقِيلَ له ذلك، ثمّ تَكَلّمَ الأتابَك دَمُرْدَاش المحمّدىّ عَنْ لِسانِ الوالِدِ بالوصِيّة عَلينا، فقال [السّلطان] (٣) : هؤلاء أولادِى وأصهارِى وإخوَتِى، ما هذه الوَصِيّة فى حَقّهم؟ كلّ ذلك والوالدُ ساكِتٌ قد أسْنَدَهُ مما لِيكُهُ لا يَتكَلّم، فلمّا قامَ الملكُ النّاصرُ قالَ الوالدُ : أَوْدَعْتُ أَوْلادِى إلى اللهِ تعالى، واستَأمَنْتُ بِهِ فى أمْرِهم، فنَفَعَنا ذلك غاية النّفْع — ولله الحمْد — مع ما أُخِذَ لنا منَ الأمْوَال التى لا تَدْخُلُ تحتَ حَصْر عند هَزِيمَةِ الملك النّاصرِ منَ الأُمراء، ودُخُولِهِ إلى دِمَشْق .

ثمّ خرَجَ السّلطانُ الملكُ الناصرُ مِنْ دِمَشْقَ بعساكِرِه فى يوم الإثنين سادس المحرّم، ونزل برْزَة، ثمّ رحل منها يريد محاربة الأُمراء، ونزل حِسْيَا بالقرب من حِمْص، فبلغه رحيلُ القوم من قارَا إلى جهة بَعْلَبَك، فتَرَكَ أثقالَه بحِسْيَا وساقَ فى أثرهم إلى بَعْلَبَك، فوجَدَهم قد توَجّهوا إلى البقاع(٤) فقَصَدَهم، فمضَوْا نحوَ الصُّبَيْبَة

(١) أطا : تعنى أب، وتطلق على كل واحد من الأباء والأجداد (قاموس تركى – تورك جى ص ٤٠). وأنظر ص ٨٣ من هذا الجزء .

(٢ ، ٣) إضافة يقتضيها السياق .

(٤) البقاع : أرض واسعة بين دمشق وبعلبك وحمص، فيها قرى كثيرة (هامش الدكتور زيادة على السلوك لمقريزى ١ : ٦٣) .

فتبعهم حتى نزلوا باللجون، فساق خلفهم وهو سكران لا يعقل، فما وصل إلى اللجون حتى تقطعت عساكره عنه من شدة السوق، ولم يبق معه غير من ثبت على سوقه، وهم أقل ممن تأخر.

وكان قد وصل وقت العصر من يوم الإثنين ثالث عشر المحرم من سنة خمس عشرة وثمانمائة، فوجد الأمراء قد نزلوا باللجون وأراحوا، وفى ظنهم أنه يتمهل ليلته ويلقاهم من الغد، فإذا جنهم الليل ساروا بأجمعهم من وادى عارة[1] إلى جهة الرملة، وسلكوا البرية عائدين إلى حلب، وليس فى عزمهم أن يقاتلوه أبداً، لا سيما الأمير شيخ فإنه لا يريد ملاقاته بوجه من الوجوه، فحال وصول الملك الناصر إلى اللجون أشار عليه الأتابك دمرداش المحمدى أن يريح خيله وعساكره تلك الليلة، ويقاتلهم من الغد، فأجابه السلطان بأنهم يفرون الليلة، فقال له دمرداش المذكور: إلى أين «بقوا» يتوجهوا يا مولانا السلطان بعد وقوع العين فى العين؟ يا مولانا السلطان مماليكك فى جهد وتعب من السوق، والخيول كلت، والعساكر منقطعة، فلم يلتفت إلى كلامه، وحرك فرسه ودق بزخمته على طبله، وسار نحو القوم، وحمل عليهم بنفسه من فوره حال وصوله، فارتضمت[2] طائفة من مماليكه فى وحل كان هناك.

ثم قبل اللقاء خرج الأمير قجق أحد أمراء الألوف بطلبه من مماليكه وعسكره، وذهب إلى الأمراء، وتداول ذلك من المماليك الظاهرية واحداً بعد واحد، والملك الناصر لا يلتفت إليهم، ويشجع من بقى معه حتى التقاهم وصدمهم صدمة هائلة، قتل فيها من عسكره الأمير مقبل الرومى أحد أمراء الألوف، الذى زوجه الملك الناصر بأخته ـ زوجة الأمير نوروز ـ

---

(١) وادى عارة: ويقال عرعرة، يطلق على عدة مواضع غير محددة، وقد ورد فى شعر الأخطل، ويقال هو جبل، وقيل هو من نعمان فى هزيل، وقيل قرب عرفة — (ياقوت معجم البلدان ٤ : ١٠٤) — وليس كل ذلك مراداً؛ لأن هذا الوادى قرب اللجون وفى الطريق منه إلى الرملة — المحقق.

(٢) أى ارتطمت، من ارتطم بالوحل أى سقط فيه (محيط المحيط).

ثمّ قُتِل أحدُ خواصّه مِنَ الأمراء [وهو] الأمير أَلْطُنْبُغَا شقَل ، وَتَقَهْقَر عسكَرُه مع قِلّتهم ، فانهزَمَ السّلطانُ عندَ ذلك ، بعد أَنْ قاتلَ بنفسِه ، وساقَ يُريدُ دِمَشْق — وكَان الرّأيُ توجُّهُ إلى مِصْر — وتبعهُ سُودُون الجلَب ، وقَرْقَماس ابن أخي دَمُرْدَاش ، ففاتَهُما الملكُ النّاصرُ ومضَى إلى دِمَشْق ، وأحاطَ القَوْمُ بالخليفة المستَعين بالله ، وَفتح الدّين فتح الله كاتب السّر ، وناظر الجيش بَدْر الدين حسن بن نصر الله ، وناظر الخاصّ ابن أبي شاكر ، وَاستوْلوا عَلى جَميع أثقَال الملك النّاصر وأُمرائِه .

وَامتدّتْ أيدِي أصحاب الأمراء إلى النهبِ والأسْر في أصحاب الملك النّاصر ، وما غربت الشمسُ حَتى انتصرَ الأمراء وَقوِى أمرُهم ، وأذّن المغربُ فتَقَدّم إمَامُ الأمير شَيْخ ، شهابُ الدين أحمد الأذرعيّ ، وصلى بهم المغربَ ، وقرأ في الرّكعةِ الأولى بعد الفاتحة :

« وَاذْكرُوا إذْ أنْتُم قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(١) .

فوَقعَت هذه الآيةُ الموْقعَ الحسَنَ ، كَوْنَهم كانُوا في خَوْفٍ وَجزَعٍ وَصارُوا إلى الأمْنِ والتّحكم ، وَباتُوا تِلْكَ اللّيلة بخيمّاتهم — وهي ليلة الثلاثاء — وأصبحَ الأمراء وَليس فيهم مَنْ يُرجَعُ إليه ، بلْ كلُّ وَاحِدٍ منهم يقولُ : أنا رئيسُ القَوْم وكبيرُهم ، فنَادَى شيخٌ بأنّه الأميرُ الكبيرُ ، ورسَم بما شاَء ، ونَادى نوْرُوز أيضاً بأنه الأميرُ الكَبيرُ ، ورَسَم بما أراد ، وَنادى سُودُون المحَّمدىّ بأنهُ الأميرُ الكبيرُ ، وقد اسْتَوْلى على الإسطَبل السُلطَانيّ بما فيه لنفسه ، ونَادى بَكْتَمُر جِلّق بأنهُ الأمير الكَبيرُ .

(١) آية ٢٦ من سورة الأنفال .

قال الشيخُ تقىّ الدين المقريزىّ - رحمه الله : حدّثنى فتحُ الله كاتب السرّ قال : بَعث إلىّ الأمير شيخٌ ونوروزٌ ، قالا لى : أُكتُب بما جرى إلى الدّيار المصريّة ، وأعلِم الأمراء به ، فقال لهما : مَن السُّلْطان الذى أكتب عنهُ ؟ . . . فأطْرَقَ كلٌّ منهما ساعةً ثم قالا : ابن أُسْتَاذِنا ماهو هنَا حتى نسلطنه - يُريدانِ الأمير فَرَج ابن الملك النّاصر فرَج .

فلمَّا رأى انقطاعهما قال : الرأى أن يَتقدَّم كلٌّ مِنْكما إلى موقعه بأنْ يكتب عنهُ إلى الأمرَاء بمصر كِتاباً بصورة الحال ، ويأمرهم بحفظ القَلعةِ والمدينَة ، ويعِدهم بالخير ، ثمّ يكتب الخليفةُ كذلك . فوَقع هذا منْهما الموقِعَ الحسَن ، وكتب كلٌّ منهما كتاباً ، ونُدب قُجقارُ القَرْدمىّ لحمل الكُتب ، وَجُهّز إلى مصر ، فمضَى مِنْ يَوْمهِ ، ونُودِى بالرَّحيل فى يوم الأربعاء خامس عشرهِ ، وَلَيْس عِندهم خَبرٌ عن الملك النَّاصر وَلا أينَ ذَهب - انتهى .

قلتُ : وأما الملكُ النَّاصرُ ، فإنهُ لمَّا انكَسر سَار نحو دِمَشق حتى دَخلَها ليلة الأربعاء فى ثلاثة نَفر ، وَنزَل بالقلعَة وسأل عَن الوالِد فقيل له مُحتَضرٌ .

وَماتَ الوالدَ فى يوم الخميس سادِس عشر المحرّم ، وَدفن مِن يوْمه بتُرْبة الأمير تَنَم الحسنىّ نائب الشّام ، خارج دِمشق بميدان الحصى[1] .

وَأمَّا الملكُ الناصرُ فإنهُ أصبح يومَ الأربعاء استدعى القضاة والأعيانَ وَوَعدهم بكلّ خير ، وَحثّهم على نُصرته والقيام مَعهُ ، فانْقادُوا لهُ ، فأخذَ فى تدبير أُموره ، وتلاحَقت به عساكرُه شيئاً بعد شىء .

---

(١) ميدان الحصى : ويقع قبلى دمشق ، وهو أصغر من الميدان الأخضر الذى يقع غربيها ، ويمتد على أرض حصباء ولهذا سمى بميدان الحصى ، وهو إلى جانب أغراضه العسكرية فهو متنزه لأهل دمشق ، ويتوسط الطريق بين محلة قصر حجاج والقبيبات .

(جان جوسيه - دمشق الشام ٣٥ والرسم رقم ١٢٠ ترجمة البستانى) و (ابن شداد - الاعلاق الخطيرة ١٨٤).

ثمَّ قدِمَ عليه الأتابك دَمُرداش ، فأصبحَ خَلَعَ عليهِ فى عصْرِ يوم الخميس سادس عشر المحرّم بولايته نيابة دِمشْق — بعدَ موت الوالدِ — رحمه الله .

وأخذَ السلْطَان فى الاستعداد ، وأخرجَ الأموال ، ثمَّ استولى على جميع ما للوالد من خَيْل وَجمال وقُماش وَزَرَدْخاناة وَمالٍ ؛ من كونه وَصيًّا ، وأيضاً وكيلَ زوْجته ، فكانَ من جملة ما أخذه نحو الألف فرَس ما بينَ مَراكيب وجُشار[1] ، واستخدم جميع مماليك الوالد المشتروات ومماليك الخدمه ، وكانوا أيضاً نحو الألف مملوك ، وخلعَ على طُوغان دَوادار الوالد باستقرارِه على تقدمة ألف بدِمشق على عادَتهِ ، وعلى أرْغُون شاه شادّ شرَاب خاناته باستِقراره على إمْرة طبلَخاناة وكذلك رأس نوبة ، فكلّموه فيما أخذَ للوالد من الخيُول والقماش ، فوعدهم برد ما أخذ وأضعافه .

ثمَّ أحضر السّلطانُ الأموالَ وَصبَّها بين يديْهِ ، فأشارَ عليه دَمُرْداش بالخروج إلى حَلَب فلم يوافقه ، وأبى إلا الإقامة فى دمشق ، فأشار عليهِ ثانياً بالعَوْد إلى الديار المصرية فلم يرض ، وَأقام بدِمشْق ، وكان رأى دَمُرْداش فيه غايةُ الجودة ، فإنَّ جميع أمراء التركمان كانت مع الملك الناصر مثل قَرايُلك ، وابن قرَمان ، وَبنى دُلْغادِر وغيرهم ، فحُبِّبَ إليه الإقامةُ بدمشق لأمرٍ سَبق فى القدم ، وَلمّا أخرج السلْطَانُ الأموال أتاه الناس مِنْ كلِّ فجّ من التُّركمان والعُرْبان والعَشير[2] وغيرهم ، فكتبَ أسماءهم وأنفقَ عليهم وقوَّاهُم بالسلاح ، وأنزل كلَّ طائفةٍ منهم بموضعٍ يحفظه ، فكان عدّة مَنْ استخدَمَهُ من المشاةِ زيادةٌ على ألف رجل ، وَحصَّن القلعة بالمناجيق

(١) يستفاد من هذا التعبير أن الجشار هى الأفراس التى لم تدرب ولم تركب بعد — وانظر ص ١٣٤ تعليق ١

(٢) يراد بالعشير الجند المرتزقة (ج ١٢ : ٢٠١ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

والمدافع الكبار ؛ وَجعَل بين كلّ شَرَفَتَيْن من شُرَفات[١] سور المدينة جَنَوِيّة[٢] ؛ ومِنْ وَرائها الرّماة بالسّهام الخلَنْج[٣] ، والأسهم الخطائية ، ونصب على كلّ بُرْج مِن أبْراج السور شيطانياً[٤] يُرْمى به الحجارة .

وَأتقن تحصين القلعة بحيث إنه لم يبْقَ سَبيلٌ للتوصّل إليها بوجهٍ من الوُجوه .

ثُمّ خلَع عَلى نُكْباى الحاجب بِنيابةِ حَماة ، ثمّ ركِب قاضِى القضَاة جَلالُ الدين البُلْقينى ، ومعهُ بقيّةُ قضاة مصْر ودمشْق ؛ وجماعةٌ مِنْ أرْباب الدوْلة ، ونُودى بين أيديهم عَنْ لِسانِ السلطان أنه قَدْ أبطلَ المكُوسَ ، وأزالَ المظَالم فادْعوا له ؛ فعَظُم مَيْلُ الشّاميّين إليه وتعصبُوا له ، وصارَ غالبهم مِنْ حِزبه ، وغنّوا عَنْ لسانه :

أنا سُلطانُ ابنُ سُلطان وَأنْتَ يا شيخُ أميرُ

وَأكْثرُوا من الدّعاء له وَالوقيعة فى شَيخٍ ونَوْرُوزٍ ، ووَعدُوه القتالَ معه حتى المات .

واسْتمرّ ذلك إلى بُكرةِ يوم السَّبت ثامن عَشر المحرّم ، فنزل الأمراء عَلى قُبة يَلْبُغا خارج دمشق ، فنَدب السُّلطان عسكرًا فتوجّهوا إلى القُبَيْبات[٥]

---

(١) فى الأصول : شرافتين من شرافات . والشرفات هى مربعات أو مثلثات تبنى متقاربة فى أعلى سور أو قصر (المنجد – ٣٨٣) .

(٢) الجنوية . هى النقالة أو المركب التى تنقل الجرحى (المقريزى – السلوك ١ : ٧٥٧ ، ٨٤٠ ، ١١٦٤) ولعل المراد هنا فرقة من الجنود الجنوية ، أو ما يتدرع به ويتترس من الدرقات والمتاريس المنسوبة إلى جنوه ــ المحقق .

(٣) لعلها المصنوعة من خشب الخلنج ، وهو شجر معرب عن الفارسية ، وتتخذ أخشابه فى صنع الأوانى ، وله طرائق وأساريع موشاة .
(لسان العرب ٢ : ٢٦١ ط بيروت) ، (هامش الأغانى ١ : ٣٢٩ ط دار الكتب) .

(٤) أى منجانيقا شيطانيا .

(٥) القبيبات : محلة جليلة بظاهر دمشق (ج ٩ : ٢٧٢ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

فبرز لهم سُودُون المحمّدى ، وسُودُون الجلب ، واقتتلوا حتّى تقهقر السّلطانيّة منهم مرّتين ، ثمّ انصرف الفريقان .

وفى يوم الأحد تاسع عشر المحرّم ارتحل الأمراء عن قبّة يَلْبُغا ، ونزلوا غربىّ دمشق من جهة الميدان ، ووقفوا من جهة القلعة إلى خارج البلد ، فتراموا بالنّشّاب نهارهم وبالنّفط ، فاحترق ما عندَ باب الفراديس من الأسواق ، فلمّا كان الغدُ من يوم الإثنين عشرين المحرّم اجتمعَ الأمراء للحصار ، فوقفوا شرقىّ البلدِ وقبليّه ، ثمّ كرّوا راجعين ونزلوا ناحية القنوات[1] إلى يوم الأربعاء ثانى عشرينه ، ووقع القتالُ من شرقىّ البلد ، ونزل الأمير نَوْرُوز بدار الطعم[2] ، وامتدّت أصحابُه إلى العُقَيْبة[3] ، ونزل طائفةٌ بالصالحيّة والمِزّة ، ونزل شيخٌ بدار غرس الدين خليل أستادار الوالد تجاه جامع كريم الدّين الذى بطرف القُبَيْبات ومعه الخليفةُ وكاتبُ السرّ فتح الله ، ونزل بَكْتَمُر جِلّق وقَرْقَماس — سيّدى الكبير — فى جماعة من جهة بَساتين مُعين الدّين[4] ومنعوا الميرةَ عن الملك النّاصر ، وقطعوا نهر دمشق ، ففقدَ الماء من البلد ، وتعطّلت الحمّامات وغُلّقت الأسواق .

واشتدّ الأمر على أهل دمشق ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وتراموا بالسّهام والنُّفُوط ، فاحترق عدّةُ حوانيت بدمشق . وكثرت الجراحاتُ فى أصحاب

(١) القنوات : أحد الأنهار السبعة المتفرعة من نهر بردى ، وهو ونهر بانياس يشقان دمشق ومسلطان على دورها ، والقنوات ينقسم فى المدينة ويجرى فى قنوات مدفونة فى الأرض (القلقشندى — صبح الأعشى ٤ : ٩٥) وأيضاً حى على جبل حوران به قصور وأبنية وعمائر (كرد على — خطط الشام ٥ : ٢٩٧) .

(٢) دار الطعم : وكانت بمثابة الوكالة بالديار المصرية ، ولها مشد يوليه نائب دمشق من بين أمراء العشرات ، أو بمقدمى الحلقة والأجناد (القلقشندى — صبح الأعشى ٤ : ١٨٧) .

(٣) العقيبة : قرية من ضواحى دمشق (ياقوت — معجم البلدان ١ : ٥٥٧) .

(٤) بساتين معين الدين : وتنسب إلى معين الدين أنر بن عبد الله الطغتكى صاحب دمشق (ابن شداد — الأعلاق الخطيرة ١١٩ ، ١٥٩) .

الأمراء من الشاميّين ، وأنكام السلطانية بالرّمى من أعلى السُّور ، وعظُم الأمر ، وكَلّوا من القِتال .

ثمّ إن الأمير شيخا أرسلَ إلى شِهاب الدّين الحسبانىّ(١) ، والبَاعونى(٢) ، وقاضى القضاة ناصر الدين بن العـديم الحنفىّ قاضى قضـاة الدّيار المصرية — وكان قد انقطع بالشُّبلية(٣) لمرضٍ به — فأحضر شيخُ الثلاثة وأنزلهم عندَه ، ثم لحق ناصرُ الدّين بن البارزِىّ ، وصدرُ الدِّين الأدمىّ الحنفى قاضى قضاة دمشق بالأمير شـيخ .

وَلَمّا بَلَغ الملكَ الناصِر توجُّه ابن العَديم إلى شيخ أرْسَل خَلْفَ مُحبّ الدِّين ابن الشِّحْنة قاضى حَلَب وَوَلّاه قضاء الحنفيّة بالدّيار المصرية عِوَضه .

ثُمّ فى يوم الجمعة رابع عشرينه أحْضَر الأمير شَيْخُ الأميرَ بلاط الأعرج شادّ الشّراب خَاناة — وكانَ مِمّن قُبضَ علَيه بعد انهزام الملك النّاصر — ووَسّطه ، ثُمّ أحضرَ أيضاً الأمير بَلاط أمير عَلم — وكان ممّنْ قُبض علَيه أيضاً يوم الوَاقعة ؛ مِنْ أجل أنّه كان يتولّى ذَبح خُشداشيّته مِنَ المماليك الظّاهريّة — فلما حُمل للتّوسيط صاح : ياظاهرِيّة الجيرَةَ ، أنا خُشداشُكم ، قالوا له : الآن أنْتَ خُشْدَاشنا ، وأيّام الذبح كُنْتَ عدُوّنا !! فلم يَقم إليه أحدٌ .

وفى يومِ السّبت خامس عشرين المحرّم ، خَلع الخليفةُ المستَعين بالله الملكَ النّاصر فرجَ مِن السّلطنة ، واتّفق الأمراء على إقامة الخليفة المستَعين بالله المذكور فى

---

(١) هوشهاب الدين أبو العباس أحمد بن إسماعيل بن خليفة الدمشق الشافعى المعروف بابن الحسبانى ، قاضى قضاة دمشق ، توفى عاشر ربيع الأول سنة ٨١٥ هـ (ج ٦ : ٤٣١ من هذا الكتاب ط كاليفورنيا) .

(٢) هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ناصر بن فرج بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن الناصرى الباعونى، توفى سنة ٨١٦ هـ (٧ : ١٢٦ من هذا الكتاب ط دار الكتب) . وينسب إلى باعون ؛ قرية صغيرة من قرى حوران بالقرب من عجلون (السخاوى — الضوء اللامع ١ : ٢٦) .

(٣) الشبلية : أقدم مدارس الحنفية بدمشق بسفح جبل قاسيون ، أنشأها شبل الدولة كافور الحسامى الرومى طواشى حسام الدين لاجين ابن ست الشام (ج ٤ : ٢٥٤ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

السَّلْطَنةِ لتَستقيمَ بِسلطَنتهِ الأَحوالُ، وتنفذ الكلمةُ، وتجتمع النَّاسُ على سلطان، وثَبت خلعُ الملكِ النَّاصر عَلى القضاة، وأَجمعوا على إقامَة الخليفة سلطاناً، فامتنَع الخليفةُ مِنْ ذلك غايةَ الامتناع، وخَاف أَلَّا يتمّ لهُ ذلك فيهلك، وصمّم على الامتناع، وخَاف من الملك النَّاصر خوفاً شديدًا، فلمّا عجز عنه الأمراء دَبَّرُوا عليه حيلةً، وطلبُوا الأمير ناصر الدّين محمّد بن مبارك شاه الطَّازىّ — وهو أخو الخليفةِ المستعين بالله لأمه — ونَدبوه بأن يركب ومعه وَرَقةٌ تتَضمّن مَثالبَ الملك النَّاصِر ومَعايبه، وأَن الخليفة قَدْ خلَعه مِن الملكِ وعزَله مِن السّلطنةِ، ولا يَحلّ لأَحد مُعاونته ولا مُساعدته.

فلمّا بلغ الخليفةَ ذلكَ لامَ أَخاه ناصِر الدين بن مبارك شاه المذكور على ذلكَ، وأَيس الخليفةُ عِنْدَ ذلك من انصِلاح الملك النّاصِر له، فأَذْعن لهم حينئذٍ بأَنْ يَتسلطَن، فبايعوه بأَجمعِهم، وحلفُوا له بالأَيمان المغلّظة والعُهود عَلى الوفاء له وعَلى القيام بنُصْرته ولزُوم طاعته.

وتمّ أمرُه على ما يأتى ذكرُه فى أوائل ترجمته مِنْ هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وأمّا الملكُ النّاصِر، فإنّه لمّا تسلطن الخليفةُ، وخُلع هو مِن الملك، نفرَ النّاس عنه، وصاروا حزبين: حزْباً يرى أَنّ مخالفة الخليفة كفرٌ، والنّاصر قَدْ عزل من الملك، فمنْ قاتلَ معه فقد عصى الله ورسُوله، وحزْباً يرى أنّ القتال مع الملك الناصِر وَاجبٌ، وأَنه باقٍ على سلطنته، ومن قاتله إنما هو بَاغٍ عليه وخَارجٌ عَنْ طَاعته.

ومن حينئذٍ أَخذَ أمرُ الملك النّاصر فى إدْبار، إلى أَن قُتِل فى ليلةِ السبت سادس عشر صفر من سنة خمس عشرة وثمانمائة بالبرج منْ قلعةِ دمشق بَعد ما حوصِر أياماً، كما سيأتى ذكره مفصلا فى ترجمة المستعين بالله، إلى أن حُبس بقلعة دمشق.

وخبرُه: أَنه لمّا حبس بقلعة دِمَشْق — بعدَ أُمورٍ يأتى ذكرُها فى سلطنة المستعين

وأقام محبوساً بالبرج إلى ليلة السبت سادس عشر صفَر المذكور — دخل عليه ثلاثة نفرٍ [هم](١) الأمير ناصِرُ الدين محمد بن مبارك شاه الطازى أخو الخليفة المستعين بالله لأمّه ، وآخرُ من ثقات شيخ ، وآخر من أصحاب نَوْرُوز ، ومعهم رجلان من المشاعِليّة(٢) ، فعند ما رآهم الملكُ النّاصِر فرج قام إليهم فزعاً ، وعرف فيما جاءوا ودافع عن نَفسه ، وضرب أحد الرّجلين بالمدوّرة صرعه ، ثمّ قام الرُجل هو ورفيقه ومشوا عليه وبأيديهم السكاكين ، ولا زالوا يضربونه بالسكاكين المذكورة وهو يعاركهم بيديه وليس عنده ما يدفع عن نفسه به حتى صرعاه بعد ما أثخنا جراَحه فى خمس مواضع من بدنه ، وتقدّم إليه بعض صبيان المشاعلية فخنقه وقام عنه ، فتحرّك الملك الناصر ، فعاد إليه وخنقه ثانياً حتى قوى عنده أنه مات ، فتحرّك ، فعاد إليه ثالثاً وخَنقه ، وفرى أوداجه بخنجرٍ كان معه ، وسلبه ما عليه من الثياب ، ثمّ سُحب برجليه حَتى أُلقى على مزبلةٍ مُرتفعةٍ من الأرض تحت السّماء ، وهو عارى البدن ، يسترُ عورته وبعضَ فخذيه سراويلُه ، وعيناه مفتوحتان ، والنّاسُ تمرّ به ما بين أميرٍ وفقيرٍ ومملوكٍ وحرٍّ . قد صرَف الله قلوبهم عن دفنه ومواراته . وبَقيت الغلمانُ والعبيدُ والأوْباشُ تعبثُ بلحيته وبدنه .

واستمرّ على المزبلة المذكورة طول نهار السبت المذكور ، فلما كان الليلُ من ليلةِ الأحد حمله بعضُ أهل دِمَشْق وغسّلهُ وكفّنه . ودفنه بمقبرة باب الفراديس(٣) احتساباً لله تعالى . بموضعٍ يُعرفُ بمرج الدحداح ، ولم تكن جنازته مشهودة ، ولا عُرف من تولّى غسله ومُواراته .

---

(١) إضافة على الأصول .

(٢) المشاعلية : انظر (التعليق ١ ص ٤٠ من هذا الجزء) .

(٣) باب الفراديس : شمالى دمشق ، وانظر (هامش٣ ج ٦ : ١٤٨ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

قلتُ : وما وَقعَ للملك النّاصر من قتله وإلقائه على المزبلة ممّا يدلّ على قلةِ مروءة القوم ، وعدم حِفظهم ومُراعاتهم لسَوابق نِعمه عليهم ، ولحُقوق تربية والده الملكِ الظاهر برْقوق عليهم ، ونفرضُ أنّه أساء لهم وأراد قتلهم ، وكان مُجازاته عن ذلك بالقتل ، وهو غايةُ المجَاراة ، فكان الألْيق بعد قتْله إخفاء أمْره ومُوارَاته ، كما فعل غيرُهم بمن تَقدّم من الملوك ، فإنّه قد حَصل مقصودُهم بقَتله وزيادةٌ . حَتّى إنّ الذى — والعياذُ بالله تعالى — يَقعُ فى الكفر تُضرب عنقُه ثمّ يؤخذُ ويُدفن ، وأيضاً فمراعاةُ السّلطنة وناموسِ الملك مَطلوبٌ من كلّ واحد ، والملوكُ لهم غيرةٌ على الملوك ولو كان بينهم العَداوةُ والخصومة ، وقد رأيْتُ فى تاريخ الإسلام فى ترْجمة الخليفة محمد المهدىّ بن الرّشيد هارون العبّاسىّ أنه سأل بعضَ جُلسائه عن أحوال الخليفة الوليد بنِ يزيد بن عبد الملك بن مروان الأموىّ ، فقال له بعضُ من حضَر :

وما السُّؤال عنه يا أمير المؤمنين ؟! كانَ رجُلاً فاسقاً زنديقاً .

فلمّا سمعَ الخليفةُ المهدىّ كلامه نهره وقال له : صه ، خلافةُ الله أجلّ أن يجعلها فى زنديق ، وأقامه من مجلسه .

وكانَ الوليدُ كما قال الرّجل ، غير أنّ المهدىّ غار على منصب الخلافة فقال ذلك مع عِلمه بحال الوليد ، فلعمرى أيْن فِعلُ هؤلاء من قول المهدىّ ؟!... مع أنّ خلفاء بنى العبّاس كانوا أشدّ بُغضاً لخلفاء بنى أُميّة من بُغْض هؤلاء للملك النّاصر ، غير أنّ العُقول تتَفاوت وتتفاضل ، والأفعال تدلّ على شِيَم الفاعل — انتهى .

ومات الملكُ الناصرُ وله من العُمر أرْبعٌ وعشرون سنة وثمانية أشهر وأيام ،

فكانت مدّةُ ملكه مِنْ يوم ماتَ أبوه الملكُ الظاهر بَرْقوق إلى أن خُلعَ بأخيه الملك المنصور عبد العزيز — حسبما تقدم ذكره — ستَّ سنين وخمسة أشهرٍ وأحد عشر يَوْماً ، وخُلع مِن السّلطنة بأخيه المذكور سبعين يَوْماً ، ومِنْ يوم أُعيد إلى السَّلطنةِ بعد خلع أخيه المذكور فى يوم السَّبت خَامس جمادى الآخرة مِنْ سنة ثمان وثمانمائة إلى يوم خلَعه المستعينُ بالله من السلطنةِ فى يوم السبت خامس عشرين المحرّم من سنة خمس عشرة وثمانمائة سِتَّ سنين وعشرة أشهر سواء .

فجميع مُدة سلْطنتهِ الأولى والثانية — سوى أيّام خَلْعه — ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً .

وكان الملكُ النّاصر مِنْ أشجع الملوك وأفرسها وأكرمها ، وأكثرها احتمالا وأصبرها عَلى العُصاة من أُمرائه .

حدّثنى بعْضُ أعيان المماليك الظاهريَّة : أنه ماقتلَ أحداً من الظاهريَّة ولا غيرهم حتى ركبَ عليه وآذاه غيرَ مرّة وهو يعفو عنه ، وتصديقُ ذلك أنّه لمّا قبَض على الأمير شيخ ، والأتابك يَشْبُك الشَّعبانىّ بدِمَشق فى سنة عشر [وثمانمائة][1] وحبسهما بقلعةِ دِمَشْق كان يمكنه قتلهما ؛ فإنَّ ذلك كانَ بعد ما حارباه فى واقعةِ السَّعيدية وكسَراهُ أقبح كسْرة ، وأمّا شيخ فإنه كان تكرَّر عصيانه عليه قبلَ ذلك غيرَ مرَّة . وقد رأينا من جاء بعده من الملوك إذا ركب عليه أحدٌ مرَّةً واحدةً وظفر به لم يُبقه ، والكلامُ فى بيان ذلك من وُجوه عديدة يَطولُ الشَّرْح فيه وليسَ تحت ذلك فائدة .

ولم أُرِدْ بما قلتهُ التعصّبَ للملك الناصر المذكور ؛ فإنه أخذَ مالنا وجميع موْجودِ الوالد وتركنا فُقراء — يعْلمُ ذلك كلُّ أحد — غير أن الحقّ يُقال على أى وجه كان .

(١) إضافة للتوضيح .

وكان صفتُه شابًا معتدل القامةِ ، أشْقر ، لهُ لثغةٌ فى لسانه بالسِّين ، غير أنَّه كان أفْرس ملوكِ التُّرك بعد الملك الأشرف خليل بن قلاون بِلا مُدافعة .

قُلتُ : ولنذكر هنا من مقالةِ الشيخ تقىّ الدين المقريزى فى حقِّه من المساوئ نبذةً برمتها ، وللنَّاظر فيها التَّأمل قال :

« وكانَ النَّاصر أشأم ملوكِ الإسلام ؛ فإنّه خرّب بسوءِ تدبيره جميعَ أراضى مصرَ وبلاد الشّام مِنْ حيث يَصُبّ النِّيل إلى مجرى الفرات ، وطَرق الطاغيةُ تَيْمُور بلادَ الشَّام فى سنة ثلاثٍ وثمانمائة ، وخَرّب حلَب وحمَاة وبَعْلَبكّ ودمشق ، حتىّ صارت دمشق كوْماً ليس بها دار .

وقَتل من أهل الشام مالا يُحصى عدده ، وطرقَ ديار مِصر الغلاء مِنْ سنة ست وثمانمائة ، فبَذل أُمراء دولته جُهدهم فى ارتفاع الأسعار ؛ بخَزْنِهم الغلالَ وبيعهم لها بالسِّعر الكثير ، ثُم زيادة أطيَان أراضى مصر حتى عظُمت كلفتهُ ، وأفسَدوا مع ذلك النُّقود بإبطال السكّة الإسلامِية من الذّهب ، والمعاملة بالدّنانير المشخَّصة التى هى ضرْب النّصارى ، ورفعوا سعرَ الذّهب حتى بلغ إلى مائتين وأربعين [درهماً][(١)] كلّ مِثقال ، بعد ما كان بعشرين دِرْهماً ، ومَكَّسوا كل شىء ، وأُهمل عملُ الجسور بأراضى مصر ، وأُلزم النّاس أن يقوموا عنها بالأموال التى تجبى منْهم ، وأكثرَ وزراؤه مِنْ رمى البضائع على التجَّار ونحوهم بأغلى الأثمان ، وكلّ ذلك من سَعدِ الدين بن غراب ، وجمال الدين يوسف الأستادار وغيرهما ؛ فكانا يأخذان الحقّ والباطل ويأتيان له به لئلا يعزلهم من وظائفهم ، ثمَّ ماتوا ، فتمّ هو على ذلك يطلب المال من المباشرين فيسدون بالظلم ، فخربَت البلادُ لذلك ، وفشا أخْذ أموال النَّاس . هذا مع

(١) إضافة يقتضيها السياق .

تواتُر الفتنِ واستمرارها بالشَّام ومصر ، وتكرار سَفره إلى البلاد الشَّامية ، فما منْ سَفرةٍ سافر إليها إلّا ويُنفقُ فيها أموالا عظيمة ؛ زيادةً على ألف ألف دينار ، يجبيها مِنْ دماء أهل مصر ومُهجهم(١) ، ثمَّ يتقدَّم إلى الشام فيخرِّب الدّيار ويستأصل الأموال ويُدمِّر القرى .

ثمَّ يعود وقد تأكَّدت أسبابُ الفتنة ، وعادت أعظم ما كانت ، فخرِبَت الإسكندرية ، وبلادُ البُحيرة ، وأكثرُ الشرقيَّة ، ومعظم الغربية ، وتدمَّرت بلادُ الفيُّوم ، وعمّ الخرابُ بلاد الصعيد بحيثُ بطل منها زيادةٌ على أربعين خطبة(٢) ، ودثر ثغرُ أُسْوان وكان من أعظم ثغُور المسلمِين ، وَخرب من القاهرة وأملاكها وظواهرها زيادةٌ عن نصفها ، ومَات من أهل مصر فى الغلاء والوَباء نحو ثلثى النّاس ، وقتل فى الفتن بمصر مدّة أيَّامه خلائقُ لا تدخل تحت حصر . مع مُجاهرته بالفسوق ، من شرب الخمر ، وإتْيان الفواحش ، والتجرُّؤ العظيم على الله جلت قُدْرته .

ومن العجيب أنَّه لمَّا وُلد كان قد أقبلَ يَلْبُغا الناصرىّ بعساكر الشّام لينزع أباه الملكَ الظاهر برْقُوق من الملك — وهو فى غاية الاضطراب من ذلك — فعندَ ما بشر به قيل له : ما تسميه ؟ .... قال : بُلْغاق(٣) — يعنى فتنة — وهى كلمة تُركيَّة ، فقُبِض على أبيه الملك الظّاهر وسجن بالكرك — كما تقدّم ذكره .

فلمّا عاد إلى الملك عرُض عليه فسمَّاه فرجاً ، ولم يُسمّه أحدٌ لذلك اليوم إلاّ بُلْغاق ، وهو فى الحقيقة ما كان إلّا فتنة ، أقامه اللهُ — سبحانه وتعالى — نقمةً على النَّاس ليُذيقهم بعض الذى عملوا .

(١) فى نسخة استنبول « يجبيها من رؤساء أهل مصر ومهجتهم » والمثبت عن ط كاليفورنيا .
(٢) كذا فى الأصول : وعليه فالمعنى خراب المساجد التى تقام بها الجمع ، ولعلها خطة بمعنى حى أو قرية .
(٣) الرسم فى ج ١٢ : ١٦٨ من هذا الكتاب ط دار الكتب « بلغاك » بالكاف .

ومن عجيب الاتّفـاق أنَّ حُروف اسمِه « ف ر ج » عددُها ثلاثة وثمانون ومائتين وهي عددُ جركس[١] ، وكان فناء طائفة الجركس على يديه . فإن حُروفها تفنى إذا أُسقطت بحروف اسمه » .

قلتُ[٢] : كيف كان فنـاء الجركس على يديه ، وهم إلى الآن ملوكُ زماننا وسلاطينها ؟ ! . فهذا هو الخباط[٣] بعينه ! . وإن كان يعنى الذين قتلهم ، فهو قتل من كلِّ طائفةٍ — انتهى .

قال[٤] : وكانت وفاتُه عن أربعٍ وعشرين سنة وثمانية أشهر وأيّام ، وكل هذه الأمور من سُوء تدْبير مماليك أبيه معه والفتنة في بعضهم البعض ، وهم الذين جَسّرُوه على المظالم ، وعلى قتل بعضهم ، فاستمرّ على الظلم والقتل إلى أن كان من أمره ما كان — انتهى كلام المقريزى بتمامه وكماله .

قلتُ : وكان يمكنني أنْ أُجيب عن كلّ ما ذكره المقريزيّ — غير إسرافه على نفسه — غير أني أضربت عن ذلك خشية الإطالة والملل ، على أني موافِقهُ على أنَّ الزّمان يصْلحُ ويفسدُ بسلطانه وأرباب دولته ، ولـكن البلاء قديم وحديث — انتهى .

وخلَّف الملكُ الناصر عشرة أولادٍ — فيما أظنّ — ثلاثة ذكور وسبع إناث ، فالذكور : فرج ، ومحمد ، وخليل ، والإناث : سُتيتّه التى زَوّجها لبكْتَمُر جلّق ، وعائشة ، وآسية ، وزينب ، وشقراء ، وهاجر ، ورحب ، والجميع أمّهاتهم أمّ أولادٍ مُولّداتٌ . ما عَدَا عائشة وشقراء — والله أعلم .

---

(١) وذلك لأن التقدير فى حساب الجمل كما يلى :

ف ر ج = ٨٠ + ٢٠٠ + ٣ = ٢٨٣

ج ر ك س = ٣ + ٢٠٠ + ٢٠ + ٦٠ = ٢٨٣

(٢) أى المؤلف .

(٣) الخباط : داء كالجنون (لسان العرب ٩ : ١٥٢).

(٤) أى المقريزى .

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق

الثانية على مصر

وهى سنة ثمان وثمانمائة ، على أنّ أخاه الملكَ المنصورَ عبدَ العزيز حكم منها سبعين يوماً .

فيها أمسك السلطانُ الملك الناصر الأتابك بِيبَرس ابن عمّته ، والأمير سُودُون المارْدانىّ الدّوادار الكبير بعد عوْدِه إلى الملك — حسبما تقدّم ذكره .

وفيها تُوُفِّىَ الشيخ علاء الدين علىّ بن محمد بن علىّ بن عصفور[١] المالكى ، شيخ الكتّاب بالدّيار المصرية فى يوم الإثنين رابع عشرين شهر رجب ، كان أحد موقّعى الدّست بالقاهرة ، وكانَ يُجيد الخطّ المنسوب[٢] بسائر الأقلام ، وكان ابن عصفورٍ هذا هو الذى كتب عهد الملك المنصور عبد العزيز بالسلطنة ، ومات بعد مُدّةٍ يسيرة ، فقال فيه بعض الأدباء . [السريع]

قدْ نسخ الكتاب مِنْ بعده عُصفورُ لما طَار للخلدِ
مذْ كتبَ العهد قضَى نحبهُ وَكان منْه آخر العهْد

وتُوُفِّىَ الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عبد الله محمّد ابن الخليفة المعتصم بالله أبى بكر ابن الخليفة المستكفى بالله سليمان ابن الحاكم بأمر الله أحمد ابن الحسن بن أبى بكر بن علىّ بن الحسين ابن الخليفة الرّاشد بالله منصور ابن المسترشد بالله الفضل ابن المستظهر بالله أحمد ابن المقتدى بالله عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله ابن القادر بالله أحمد ابن المقتفى بالله إبراهيم ابن المقتدر بالله جعفر ابن المعتضد بالله أحمد ابن الأمير

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٤٤٠) .

(٢) لم نعثر على تعريف بالخط المنسوب فى المراجع الميسرة ، ويرجح الدكتور زيادة أنه الخط بعامة (المقريزى — السلوك ١ : ٧١٨) .

الموفّق طلحة ابن الخليفة المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم بالله محمد ابن الرشيد بالله هارون ابن المهدى محمد ابن الخليفة أبى جعفر عبد الله المنصور بن محمّد ابن علىّ بن عبد ُالله بن عباس الهاشمىّ العباسىّ المصرىّ ، يوم الثلاثاء ثامن شهر رجب ، ودُفن بالمشهد النّفيسى خارج القاهرة .

بويع المتوكل بالخلافة بعد موت أبيه بعهدٍ منه إليه ، فى يوم سابع جمادى الآخرة سنة ثلاثٍ وستّين وسبعمائة ، وتمّ أمره ، إلى أنْ خلعه أيْنَبَك البدرى[1] فى ثالث صفر سنة تسع وسبعين وسبعمائة بزكريّاء بن إبراهيم .

ثمّ أعيد فى عشرين شهر ربيع الأول منها ، فاستمرّ إلى أن خلعه الملكُ الظاهر برْقوق فى أوّل شهر رجب سنة خمس وثمانين وسبعمائة بعمر ابن إبراهيم ، ولقِّب بالواثق .

ثم أعاده فى عشرين شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وتسعين وسبعمائة .

فاستمَرّ فى الخلافة إلى أن مات ، وتولىّ الخلافة بعده ابنه المستعين بالله العبّاس .

قلتُ : ولا نعلم خليفةً ، تخلّفَ مِنْ أولاده لصلبهِ خمسةٌ غير المتوكل هذا ، وهم : المستعين العبّاس ، ثمّ المعتضد داود ، ثمّ المستكفى سليمان — وهما أشقّاء — ثمّ القائم بأمر الله حمزة — وهو شقيق المستعين بالله المتقدم ذكره — ثمّ المستنجد بالله يوسف ، خليفة زمَاننا هذا ، عامله الله باللطف .

وتُوُفِّىَ قاضى القضاة ولىّ الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد ابن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن خلدون[2] الحضرمىّ الإشْبيلىّ المالكىّ قاضى قضاة الدّيار المصرية بها ،

---

(١) انظر قصة ذلك فى (ج ١١ : ١٥٥ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٣٠٠)

فى يوم الأربعاء خامس عشرين شهر رمضان فجاءةً ، وقد ولىَ القضاء غير مرّة ، ومولده فى يوم الأربعاء أوّل شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، بمدينة تونس ، وكان إماماً عالماً بارعاً فى فنون من العلوم ، وله نظمٌ ونثرٌ ، وقد استوعبنا ترجمته فى « المنهل الصّافى » ، وذكرنا قدومه إلى القاهرة ، ومشايخه وغيرَ ذلك ، ومن شعره من قصيدة [الكامل] .

أسرَفْنَ فى هجرى وتعذيبى وَأطلْنَ(١) موقفَ عَبْرتى ونحيبى
وَأبينَ يومَ البين وَقفة ساعةٍ لِوداع مشغوف الفؤادِ كئيبِ

وتُوُفّى القاضى الأمير سعدُ الدين إبراهيم بن عبد الرزّاق بن غراب(٢) فى ليلةِ الخميس تاسع عشر شهر رمضان — ولم يبلغ من العمر ثلاثين سنة — بعد مرضٍ طويل ، وَكان وَلىَ نظَرَ الخاصّ فى دولةِ الملك الظاهر بَرْقوق ، ثمّ الوزَر ، وَنظَر الجيْشِ ، وَكتابةَ السّر ، والاستَادارِيّة فى دولة الملكِ النّاصر فرَج الأولى .

ثمّ صار فى سَلْطنته الثّانية أمير مائة ومقدّم ألْف بالدّيار المصريّة ، وأمير مجلس ، ولبس الكَلَفْتاة وَتقَلد بالسيْف ، وحضرَ الخدمة السّلْطانيّة مرّة واحدةً ، ونزل إلى داره فلزم الفراشَ إلى أنْ مات ، و كان له مكارم وأفضالٌ وهمّة عاليةٌ ، لم يُسمع بمثْلها فى عَصره ، مع عدم ظلمهِ بالنّسبة إلى غيْره مِنْ أبْناء جنسه .

وَأمّا سَفك الدّماء فلم يدْخلْ فيه البتّة ، وقد اقْتدى جمالُ الدين يوسف البيرىّ طريقَه فى المكارم والتّحشّم ، غير أنّه أمعَن فى سَفْك الدماء حتى تجاوَز الحدّ

(١) فى الأصول « وأطلقن » وهو خطأ . وما أثبته عن (الضوء اللامع للسخاوى ٥ : ١٤٨) .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٢٣) .

— عليه مِنَ الله ما يستحقُّه — وكانَ أصلُ سعد الدين هذا مِنْ أولاد الكَتَبة الأقباط بالإسكندرية ، ثمّ اتصل بخدْمة الأمير محمود بن عليّ الأستادار(١) ، واختصّ به حتى صارَ عارفاً بجميع أحواله ، ثمّ بسِفارته ولى نظر الخاص عوضاً عَن سعد الدِّين بن أبي الفَرَج ابن تاج الدِّين موسى ، في يوم الخميس تاسع عشر ذى الحجة سَنَة ثمانٍ وتسعين وسبعمائة ، وعمره إذ ذاك دون العشرين سنة ، ولما اسْتفحل أمره أخذ في المرافعة في أُستاذهِ محمود المذكور في الباطن ، ولا زَال يسعى في ذلك حتى كان زوال نعمة محمود المذكور على يدَيْه .

ثمّ ترقّى بعد ذلك حتى كان من أمره ما كان ، فلم يُعدّ له من المساوىء غير مرافعته في محمود المذكور لاغير .

وتُوُفِّىَ الشيخُ الإمَام الأديب زينُ الدين طاهر بن الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب(٢) الحلبيّ الموقِّع الكاتب ، في ليلة سادس عشر ذى القعدة ، وكان أديباً شاعراً مكثراً ، ومن شعره : [دوبيت]

أفدى رشا ما مرَّ بي أو خطرا كالغصن رشيقْ
إلاّ لقيتُ(٣) في هواه خطراً باللّحظ رشيقْ
والسّالفُ والوجهُ حكى(٤) قمرا آسٌ وشقيقْ
مذْ أسفر وجهُ يحاكى قمراً للبدر شقيقْ

(١) هو الأمير جمال الدين محمود بن على بن أصفر عينه ، توفى في تاسع شهر رجب سنة ٧٩٩ هـ بخزانة شمايل بعد ما نكب وعوقب وصودر ، ودفن بمدرستة خارج باب زويلة ، وانظر قصته مع سعد الدين هذا في (ج ١٢ : ١٥٩ — ١٦٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) له ترجمة في المنهل الصافي للمؤلف (م ٢ : ٢٢٠) وقد ولد بعد الأربعين وسبعمائة بقليل .

(٣) في الأصول إلا ولقيت ...

(٤) في الأصول « والوجيه عقل ... » وما أثبته يستقيم به الوزن والمعنى .

وله أيضاً فى الملك الظاهر لمّـا أمسك مَنْطاشاً(١). [السريع]

الملكُ الظاهر فى عزّه أذلّ مَنْ ضلّ ومَنْ طاشا
وردَّ فى قبضــتهِ طائعـاً نعـيْراً العاصِى ومَنْطاشا

وتُوُفِّىَ الوزيرُ الصاحِب تاج الدين عبـدُ الله ابن الوزير الصاحب سعد الدين ابن البقرى القبْطِى المصرى تحت العُقوبة ، فى ليلة الإثنين ثامن عشرين ذى القعـدة .

وتُوُفِّى الأميرُ سيف الدين قانى باى بن عبد الله العلائى الظاهرى ، أحـد أمراء الألوف بالدّيار المصريّة بها ، فى ليلةِ الأحـد حادى عشرين شوّال ، بعـد مرضٍ طويل ، وكان يُعرف بالغَطاس لـكثرة هُروبه واختفائه ، وكان من شرار القوم ، كثير الفتن .

وهو أحدُ من كان سبباً لأخذ تَيْمُور لنك مدينة دمشق ؛ لأنه اتّفق مع جماعة من الأمراء والخاصّـكية ، وعاد الجميع إلى مصر ليُسلطنوا الشيَخ لاجين الجنـدى الجركسيَّ ، فخاف من بقى منَ الأمراء أنْ يتمَّ لهم ذلك ، وأخذوا السلطان الملك الناصر فرجا وخرجوا من دمشق على حين غفلةٍ ، وساروا فى أثرهم حتى أدركوهم بمدينَة غزة ، وتركوا دمشق مأكـلةً لتَيْمور .

قلتُ : الدّالُّ على الخير كفاعله ، فهو شريكٌ لتَيْمُور فيما اقتحمه منْ سفك الدّماء وغيره .

وتُوُفِّىَ الأمير سيفُ الدِّين بلاط بن عبـد الله السعدى ، أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية — بطالا بهـا — فى رابع عشرين جمـادى الأولى ، وكان سا كناً عاقلا .

(١) هو الأمير سيف الدين تمربغا بن عبد الله الأفضلى المعروف بمنطاش ، توفى سنة ٧٩٥ هـ (ج ٩ : ٥٢ من هذا الكتاب . ط دار الكتب) .

وتُوُفِّيَ الأمير سيفُ الدِّين جَقْمَق بن عبد الله الصفوى(١) ، حاجبُ حجابِ دمشق — قتيلا — فى حادى عشر شهر ربيع الآخر ، ضرب الأميرُ شيخٌ المحمودى عنقَه ، وكان من قدماء الأمراء ، ولى حجوبيّة حلب فى دولة الملك الظاهر برقوق ، ثمّ ولى نيابة مَلَطْية ، ثمّ تنقل فى عدة ولاياتٍ ، إلى أن ولى حجوبيّةً دمشق ، ووقعَ بينه وبين الأمير شيْخ وَحشَةٌ ، حتى كان من أمْره مَا كان .

وتُوُفِّيَ الأمير سيفُ الدين شيخ بن عبد الله السّليمانىّ الظاهرىّ المعروف بالمُسَرْطَن(٢) ، فى حادى عشر شهر ربيع الآخر خارجَ دمشق ، بعد أن صار أمير مائة ومقدّم ألفٍ بديار مصر ، ثمّ نائبَ صَفَد ، ثمّ نائبَ طرابُلُس ، وَوَقع له أمورٌ .

وشيخٌ هذا ، هو ثانى منْ سُمِّيَ بهذا الاسم واشتهر ، والأوّل شيخ الصّفوىّ الخاصكىّ المقدمُ ذكرُه ، والثالثُ هو شيخٌ المحمودىّ الملكُ المؤيدُ — انتهى .

وَتُوُفِّيَ الوزيرُ الصاحبُ تاجُ الدين عبدُ الرزّاق بن أبى الفرج بن نقولا الأرمنىّ الملكىّ فى رابع شهر ربيع الآخر ، بعد ما وَلِيَ عِدّةً وظائف . كان أوّلاً صيرَفيًّا بقَطْيا ، ثمّ صارَ كاتباً بها ، ثم ولى نظرها ، ثمّ استقرّ وزيراً بالدّيار المصرية ، ثم أستادارا ، ثمّ وَلِيَ كشف الوَجه البحرى .

قال المقْريزى :

كان أولاً يُسمى بالمعلم ، ثمّ سمّي بالقاضى ، ثمّ نُعت بالصاحب ، ثمّ

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٤٧٤) .
(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٢٠٧) .

بالأمير ، ثمَّ بملك الأمراء ، كلٌّ ذلك فى مدَّةٍ يسيرةٍ من السنين — انتهى .

وَتُوُفِّىَ الطاغيةُ تَيْمُور لَنْك كُورْكان ،وقد تقدَّم نسبه فى ترجمةِ الملك الناصر فرج الأولى[1] ، على اختلافٍ كبيرٍ فى نسبه .

ماتَ فى ليْلة الأربعاء تاسع عشر شعبان فى هذه السنة — وقيل فى الماضية — وهو نازلٌ بضواحى أُتْرار[2] بالقرب من آهنكران ، ومعنى « آهنكران » باللغة العربية « الحدَّادون » و « آهنكر » : الحداد ، و « كوركان » معناه صهر الملوك ، و « لنك » هو الأعرج باللغة العجميَّة — انتهى .

وكان سببُ موته أنَّه خرَجَ من بلاده لأخذ بلاد الصينٍ — وقد انقضى فصلُ الصيفِ ودخلَ الخريفُ ، وكتبَ إلى عساكره أنْ يأخذوا الأهبَةَ لمدةِ أرْبع سِنين ، فاستعدوا لذلك وأتوه مِنْ كلٍّ جِهة ، وصنَعَ لهُ خمسمائة عجلةٍ لحمل أثقاله .

ثمَّ خرَجَ مِنْ سَمَرْقندْ[3] فى شَهر رجب وقد اشتد البرْدُ ، ونَزَل على سَيحون وهو جامد ، فعبرهُ ومرَّ سائراً ، فأرْسل الله عليْه منْ عذابهِ جِبالاً منَ الثلج التى لم يُعهد بمثلها مع قُوَّةِ البرْدِ الشديد ، فلم يبْقَ أحد من عساكره حتى امتلأت آذانُهم وعيونُهم وخياشيمهم ، وآذانُ دوابهم وأعْينها منَ الثلج ، إلى أنْ كادت أرواحهم تذْهَب .

ثمَّ اشتدت تلك الرِّياحُ ، وملأَ الثلجُ جميعَ الأرض — مع سعَتها — فهلكت بهائمُهم . وجمد كثيرٌ مِن النَّاس ،وَتساقطوا عنْ خيولهم موْتاً .

---

(١) ولد تيمور لنك سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بقرية تسمى « خواجا أيلغار » من عمل كش إحدى مدائن ما وراء النهر ، وله ترجمة مستفيضة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٤١٤) ، وفى (ج ١٢ : ٢٥٤ — ٢٧٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) أترار : وتقع على ضفة سيحون الشرقية ، وكان اسمها باراب أو فاراب ، وإليها ينسب أبو النصر الفارابى . (لسترنج — بلدان الخلافة الشرقية ٥٢٨ ط بغداد) .

(٣) سمرقند : انظر (ج ١٢ : ٧٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

وجاء بعقب هذا الثلج والريح أمطارٌ كالبحار ، وتيمور مع ذلك لا يرقّ لأحد ، ولا يبالى بما نزلَ بالناس ، بل يجِدّ فى السَّير ، فما أن وصل تيمور إلى مدينة أُتْرار حتى هلكَ خلقٌ كثيرٌ مِن قوّة سيْره .

ثمّ أمرَ تيمُور أنْ يُستقطرَ لهُ الخمر حتى يَستعمله بأدوية حارّةٍ وأفاويه لدفع البرْد وتقوية الحرارة ، فعُمِل له ما أرَاد منْ ذلك .

فشرَعَ تيمُور يستعمله ولا يسألُ عن أخبار عساكره وما هم فيه ، إلى أن أثّرت حرارةُ ذلك وأخذت فى إحراق كبده وأمعائه ، فالتهب مزاجه حتى ضعُفَ بدنه ، وهو يتجلدُ ويسيرُ السَّيرَ السَّريع ، وأطبّاؤه يعالجونه بتدبير مِزاجه إلى أن صاروا يضعونَ الثلج على بطنه؛ لعظم ما به مِن التلهب وهو مطروحٌ مدة ثلاثة أيام ، فتلفتْ كبده ، وصار يضطرب ولونُه يحمرّ ، ونساؤه وخواصُّه فى صُراخ ، إلى أنْ هلك إلى لعْنة الله وسُخطِه ، فلبسوا عليه المسوح ، ومات ولم يكنْ معهُ أحد من أولاده سوى حَفيده سُلطان خليل ابن ميران شاه بن تيْمور وسلطان حسين ابن أُخته ، فأرادا كِتمان موته فلمْ يخف ذلك على الناس ، فتسلطنَ خليل المذكور بعد جده تيْمور ، وبذَل الأموال ، وعادَ إلى سَمَرْقَنْد برمَّة جدهِ تيْمور .

فخرَجَ النّاس إلى لِقائهِ لابسِينَ المسوح بأسرهم ، وَهم يبْكون ويصرخون ، ودَخلَ وَرِمّةُ تيْمور بين يَديهِ فى تابوت أبنوس(١) ، والملوكُ والأمراء وكافة النّاس مشاةٌ بين يدَيْهِ ، وقد كشفوا رءوسهم وعليهم المسوح ، إلى أنْ دَفنوه على حفيده محمد سلطان بمدرستِه وأُقيم عليه العزاء

(١) الأبنوس : شجر من فصيلة الأبنوسيات يعيش فى البلدان الحارة ، و خشبه أسود اللون صلب العود للغاية غالى الثمن — و الكلمة يونانية (المنجد ٢) .

أيّاما ، وقُرئت عنده الختمات ، وفُرِّقت الصّـدقات ، ومُدّت الحـلاوات والأسمِطة بتلك الهِمَم العظيمةِ ، ونُشرت أقمِشته على قبرِه ، وعلّقوا سلاحه وأمتِعته على الحيطانِ حوالَى قبْره ، وكلّها ما بينَ مُرصع ومكللٍ ومُزَرْكشٍ ، فى تلك القُبّة العظيمة ، وعلِّقتْ بالقُبّة المذكورة قناديلُ الذّهب والفِضّة ، منْ جملتها قنديلٌ منْ ذهبٍ زِنَتـه أرْبعةُ آلافِ مثقالٍ — وهو رطـلٌ بالسَّمَرْقنْدىّ ، وعشرةُ أرطالٍ بالدِّمشقىُّ ، وأرْبعونَ رِطـلاً بالمصرىّ — وفُرِشت المدْرسة بالبسط الحرير والدِّيباج .

ثمَّ نقلتْ رِمَّتهُ إلى تابوتٍ منْ فولاذٍ عُملَ بشيراز[1] ، وهو على قبْرِه إلى الآن ، وتُحمَلُ إليه النُّـذورة[2] منْ الأعمال البعيدة ، ويقْصُدُ قبره للزِّيارة والتّبرّك به ، ويأتى قبرَه منْ له حاجةُ ويدعو عنده .

وإذا مرَّ على هذه المدْرسة أميرٌ أوْ جليلٌ خضعَ ونزل عن فرسه إجلالاً لقبره ، لمَا له فى صدورهم من الهيْبة .

وكان تَيْمور طويل القامـة ، كبير الجبهة ، عظيم الهـامة ، شَديد القوّة أبيض اللّوْن مُشْرباً بحمرة ، عريض الأكتاف ، غليظَ الأصابع ، مسترسل اللِّحية ، أشلَّ اليدِ ، أعرج اليمنى ، تتوقّد عيْناه ، جهير الصّوت ، لا يهابُ الموت ، قد بلغَ الثمانين ، وهو مُتمتِّعٌ بحواسهِ وقوّته .

(١) شيراز : قصبة فارس ، مصرها العرب واتخذها المسلمون معسكراً لهم وقت الفتوح أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، وتولى عمارتها سنة ٦٤ ﻫ القائد محمد الثقفى ، ثم اتسعت وصارت مدينة كبيرة جداً اتخذها بنو الصفار عاصمة لدولتهم .
(لسترنج — بلدان الخلافة الشرقية ٢٨٤ — ٢٨٧) .

(٢) كذا فى الأصول . والمراد النذور جمع نذر

وكان يكره المزاح ويبغض الكذاب ، قليل الميل إلى اللهو ، على أنه كان يعجبه الصوت الحسن ، وكان نَقْش خاتمه « رستى . رستى » ومعناه : صدقت نجوت ، وكان له فراساتٌ عجيبةٌ ، وسعدٌ عظيمٌ ، وحظٌ زائدٌ في رعيته ، وكان له عزمٌ ثابتٌ ، وفهمٌ دقيقٌ ، محجاجاً سريع الإدْراك ، متيقِّظاً يفهمُ الرَّمز ويُدْرك اللَّمحة ، ولا يخفى عليه تلبيس ملبِّسٍ ، وكان إذا عزم على شيءٍ لاينثنى عنه ؛ لئلّا ينسب إلى قلة الثبات ، وكان يقال له صاحبُ قِران الأقاليم السبعة ، وقهْرمان(١) الماء والطين ، وقاهر الملوك والسّلاطين ، وكان مُغرما بسماع التّاريخ وقصص الأنبياء عليهم السّلام ليْلاً ونهاراً ، حتى صار — لكثرة سماعه للتّاريخ — يردُّ على القارئ إذا غلط فيها ، وكان يحبُّ العلم والعلماء ، ويقرِّب السّادة الأشراف ، ويدنى أرْباب الفنون والصّنائع .

وكانَ انبساطه بهيْبة ووقار ، وكانَ يباحث أهلَ العلم ويُنصف في بحثه ، ويبغضُ الشُّعراء والمضحكين ، ويَعتمدُ على أقْوال الأطبَّاء والمنجمين ، حتى إنَّه كان لايتحرَّك بحركةٍ إلا باخْتيار فلكيٍّ .

وكان يُلازم لَعِبَ الشَّطرنج — وقد خرجنا عن المقصودِ في التَّطويل في ترجمة تيْمور المذكور ، استطراداً لِكثرةِ الفائدة ، وقد استوعبنا أحواله مُستوْفاةً في « المنهل الصَّافي » فلينظر هنَاك — انتهى .

أمْر النِّيل في هذه السَّنة : الماء القديم ذراعان سواء ، مبلغُ الزِّيادة ثمانية عشر ذراعاً وثلاثة وعشرون إصبعاً .

---

(١) قهرمان : فارسي معرب وهو أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه (معجم الوسيط ٢ : ٧٧٠) .

السنة الثانية من ولاية الملك الناصر فرج بن برقوق

الثانية على مصر

وهى سنة تسع وثمانمائة .

فيها تُوُفِّىَ الشّريف بدرُ الدِّين حسن بن محمد بن حسن الحسنىُّ العلوىُّ[1] النَّسابة شيخُ خانقاة بِيبرس ، فى ليلة السّبت سادس عشر شوال عن سبع وثمانين سنة .

وتُوُفِّىَ الشيْخُ الإمام العالم بدرُ الدِّين أحمد بن محمد الطُّنبُذىُّ[2] الشافعىُّ ، فى حادى عشرين شهر رَبيع الأول ، وكانَ من أعيان الفقهاء الشافعية ، معْدُوداً من العلماء الأذكياء ، غيْر أنّه كان مُسرفاً على نفسه ، يميلُ إلى اللذّات التى تهواها النفوس ، والتّهتّكات .

قلت : وهو من النوادر على قوْل الحافظ الذهبىّ : فإنه قال : النوادرُ ثلاثةٌ :

شريفٌ سُنى ، ومُحدِّث صُوفىٌّ ، وعالم مُتهتِّك .

وتُوُفِّىَ الشيخُ الإمامُ العالِمُ العَلامةُ زادة الُخرزبانىُّ[3] العَجمىُّ الحنفىّ ، شيخُ الشيوخِ بخَانقاة شيْخون فى يوم الأحد آخر ذى القِعدَة ، ودُفن مِنْ يومه بخانقاة شيخون ، وكان من أعيانِ السّادة الحَنفيّة ، ولهُ اليدُ الطولى فى العلوم العَقليةِ والأدبيّات ، علاّمة زَمانه فى ذلك ، اَستَدْعاه الملكُ الظّاهر برْقوق مِنْ بغداد إلى الدّيار المصْرية لعظم صيته ،

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٣٨) .

(٢) الضبط عن شذرات الذهب (٧ : ٨٣) و النسبة إلى قرية طنبذة من قرى مصر ، و طنبذة قريتان إحداهما بالصعيد و إليها ينسب أكثر العلماء و الثانية بإقليم المنوفية .

(٣) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ١٠١) وذكره شذرات الذهب (٧ : ٧٤) فى وفيات سنة ٨٠٨ ه ، واضطربت الأصول فى هذه النسبة ، وما أثبته عن المرجع الأخير ص ٢٢٧

وقَدِم القاهرةَ وتصدّى للإقراء والتّدريس سنينَ عديدة ، وانتفع به عامّة الطلبة من كلّ مذهب — رحمه اللهُ تعالى — وهو غيرُ زادة والد الشيخ مُحبّ الدين الإمام ابن مولانا زادة ، وقد تقدّم ذِكْر ذلكَ فى حدود سنَة تسعين وسبعمائة ، واسمه أحمد ، وشُهرته زادة ، أمّا زادة هذا فإنّ اسمه زادة لاغير .

وتُوُفِّيَ الأمير ركنُ الدين عمرُ بن قايماز(١) الأستادار ، فى يوم الإثنين أوّل شهر رجب ، وقد تنقّل فى عدّة وظائف [هى] :

شَدُّ الدّواوين ، والوَزر ، والأستادارية — غيرَ مرّة — وهو صاحبُ السَّبيل خارجَ الُحسيْنيَّة ، الذى جدّده زين الدين يحيى الأستادار فى زماننا هذا .

وتُوُفِّيَ ملكُ العَرب سيفُ الدِّين نُعير بن حيّار بن(٢) مُهنّا ، قتلهُ الأميرُ جَكم منْ عوض نائبُ حلَب بقلْعة حلَب ، بعْد أنْ أمسكه وسجنَهُ ، وكان منْ أجلِّ ملوكِ العَرب ، وقد تقدّم ذكْرُه فى عِدّة مواضعَ منْ هذا التَاريخ .

وتُوُفِّي الأمير ناصرُ الدِّين محمد بنُ سُنقر البكجرىّ أستادار السُّلطان فى جمادى الآخرة بحلَب ، وبيْتُ ابن سُنقر بيْتٌ معروفٌ بالرياسة والتَّحشم .

وتُوُفِّيَ قاضى القضاة علاء الدِّين عَلى ابن قاضى القُضاة بهاء الدِّين أبى البَقاء محمد بنُ عبد البَر السبكى(٣) الشافعىّ ، قاضى قضاة دِمشق ، فى ليلةِ الأحدِ ثانى عشر شهر ربيع الآخر بدمشق .

(١) هو عمر بن قايماز . الأمير ركن الدين أبو حفص ابن الأمير سيف الدين ، ولد بالقاهرة ، وله ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٤٨٣) .

(٢) واسمه محمد بن حيار بن مهنا بن مانع بن حديثة ، وله ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٣٨٦)

(٣) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٤٣٩) . وقد ولد بدمشق سنة ٧٥٧ هـ .

وتُوُفِّىَ الشيخُ شهابُ الدين أبو العبَّاس أحمد بنُ محمد بن الجواشنىّ[(١)]، الحنفىّ بدمشق، فى ليلة الأحد سَادس عشر جُمادى الآخرة.

وتُوُفِّىَ الشـيخُ محمد بن أحمد بن محمد المعروفُ بابن فُهَيْد[(٢)] المغربىّ، فى يوم الإثنين رابع عشرين جمادى الآخرة، وكان للناس فيه اعتقاد، وكان له تنسّكٌ وعِبادة، وصحبَ الشيخَ عبد الله اليأفعىّ[(٣)] وخدمهُ مدّةً بمكة، ثمّ قدمَ القَاهرةَ، وصحِبَ الأميرَ طَشْتَمُرُ العلائىّ الدّوادار فى أيّام الأشرفِ شعبان، فنوّه طَشْتَمُر بذكرهِ حتى صار يُعدّ منَ الأعيان الأغنياء إلى أن مات.

وتُوُفِّىَ قاضى القضـاة زيْنُ الدين أبو هريرة عبدُ الرحمن بن يوسف بن أحمد بن الحسن بن سليمان بن فَزارة بن بدْر بن محمد بن يوسُف الـكُفرى[(٤)] — بِفَتح الـكاف — الحنفىّ قاضى قُضاة دِمشق ثمَّ الدّيار المصْريَّة، فى ثالث شهر ربيع الآخر، ومولِدُه فى سَـنة خمسين وسَبعمائة، وأُحضر عَلَى محمد بن إسْمَاعيل بن الخباز، وسمع على بِشْر بن إبراهيم بن محمود البعلبكىّ. وتَفقّه بعلماء عَصْره حتى برَع فى الفقْه والأُصلَيْن والعربية وشاركَ فى عدّة فُنون، وأفتى ودَرَّس، وتولّى قضاء دِمشق هو وأبوه وأخوه وجدّه، ثم قدِم القاهرة فى سنة ثلاث وثمانمائة أو بعدها بيسير، وَولى قضاء الدّيار المصرية، وحُمدتْ سيرته إلى أنْ مات — رحمه الله تعالى.

أمرُ النِّيل فى هذه السَّنة: المـاء القديمُ ذراعان ونصف، مبلغُ الزيادة تسعة عشر ذراعاً ونصف.

(١) ترجم له السخاوى فى الضوء اللامع ٢ : ٢١٦ .
(٢) ترجم له السخاوى فى الضوء اللامع ٧ : ١٠٦ ، وفهيد بضم الفاء وفتح الهاء وسكون الياء ثم دال.
(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله بن أسعد العفيف بن الجمال بن التاج بن العفيف، اليافعى المكى، ولد بمكة فى شوال سنة ٧٢٥ هـ. (السخاوى – الضوء اللامع ٥ : ٥٧ ت ٢١٢)
(٤) له ترجمة فى شذرات الذهب (٧ : ٩١)، وقد ذكر فى وفيات سنة ٨١١ هـ.

السنة الثالثة من ولاية الملك الناصر فرج بن برقوق

الثانية على مصر

وهى سنة عشر وثمانمائة .

فيها تجرّد السلطان إلى البلاد الشامية سفرته الرّابعة التى أمسَك فيها الأمير شيْخاً المحمودىّ ، والأتابك يَشْبُك الشّعبانىّ ، ثم فرّا من سجن قلعة دمشق حسبمَا تقدم .

وفيها تُوُفِّىَ الأميرُ سيفُ الدين سُودُون بن عبد الله الظاهرىّ[1] المعروف بالطيّار ، أميرُ سلاح ، فى ليلة الثلاثاء ثامن عشرين شوّال ، وحضَر السّلطانُ الملكُ النّاصرُ الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى ، وكانَ مشكُورَ السيرة ، شجاعاً ، يُندبُ للمهمّات ، ولهُ محبةٌ فى أهل العلم والصلاح ، وسُمِّى بالطيّـار لأنه خرَج مِنْ دِيار مِصر فى ليـلة مَوكبٍ ووَصَـل إلى دمشق ، ثمّ عاد إلى مِصر فى ليلة موكب آخر على خَيْل البريد ، ومعهُ دواداره الأميرُ أسَنْبُغَا الطيّارى ، وهذا السّيرُ لم يُسمع بمثله فيما مضى من الأعْصار منْ أنه يَقْطع ثمانين بريداً فى نحو أربعة أيّام .

وهذا الخبر مُستفاضٌ بين النّاس يعرفُه كل أحد ، غير أننى لم أسْـأل عنْ ذلكَ من الأمير أسَنْبُغَا الطيّارىّ المذكور تهاوُناً حتى مات ، غير أنّ وَلدهُ الشهابى أحمد أخبرنى بذلك هو وغيرُه — انتهى .

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ١٤٣) .

وتُوُفِّىَ الشيخُ الإمَامُ العـالم العلاّمة فريدُ عصْره سيفُ الدين يوسف ابن محمد بن عيسى السيرامى ّ(١) العَجمىّ الحنفىّ شيخ الشيوخ بالمدرسة الظاهرية البرْقوقيَّة ببيْن القصرين ، فى ليلة السبت حادى عشرين شهر ربيع الأوّل بالقَاهرة ، وكان مَنشْؤه بتبريز(٢) ، وأقامَ بها حتى طرقها تَيمُورلنك ، فخرَج منها وسار إلى حلَب وأقام بها إلى أن استدعاه الملك الظّاهر برْقوق ، وقرّرَه فى مشيخة مَدرسة البرقوقية ببين القصرين بعد وفاة العلّامة علاء الدين السيرَامىّ [فى جمادى الأولى](٣) فى سنة تسعين وسبعمائة ، فدام بها إلى أنْ مَات فى هذه السَّنة ، وتولى المشيخة بعده ولدُه العلّامة نظام الدين يحيى ، الآتى ذكر وفاته فى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة .

وتُوُفِّىَ الأميرُ سيفُ الدين شاهين بن عبد الله الظاهرىّ ، أحد مقدمى الألوف بالديار المصريَّة — المعروف بقصقا بن قصير — فى ليلة الجمعة ثامن ذى القِعـدة ، وكان من أشرار القوم القائمين فى الفِتن ، وفرح السلطانُ بموته .

وتُوُفِّىَ الأميرُ الطواشىّ زينُ الدين مُقبِلُ بن عبد الله [الظّاهرى المعروف](٤) بالرومىّ ، زمَام الدّارالسلطانىّ ، فى يوم السبت أوّل ذى الحجة ، وترك مَالاً كثيراً ، وهو صَاحِب المدرسة بخط البندقيِّين من القاهرة ، ويقَام بها خطبة وجُمعة .

وتُوُفِّىَ شمْسُ الدّين محمد الشّاذلىّ الإسكندرىّ مُحتسب القاهرة ومصر فى يوم الجمعة ثانى صفر .

قالَ الشـيخُ تقى الدين المقريزىّ : وكان عَاريا من العـلوم ، كان

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى . للمؤلف (م ٢ : ١٦٨) .

(٢) انظر (ج ٨ : ١١٩ ، وج ١٢ : ٤٤ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٣) إضافة عن المنهل الصافى (م ٢ : ١٦٨) .

(٤) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٣٦١) والإضافة عنه

خُرْدَفوشِيًّا(١) بالإسكندرية فترقَّى بالبذل والبَرْطيل — انتهى .

وتُوُفِّيَ الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير جمال الدين محمود الأستادار — قتيلاً — بالقَاهرة ، وكان من جُمْلة أُمرَاء الطبلخانَات في حيَاةِ والدِه ، وَولِي نِيابة الإسكندريَّة ، ثمَّ نُكِب مع والده ، وصُودر ، وأُطلقَ بَعْدَ مُدَّةٍ إلى أن اختفى بَعْدَ واقعةِ على باى لأمْرٍ أوْجب ذَلك ، وهَرب إلى الشَّام ، وأقامَ به مُدَّة ، ثمَّ قَدِمَ إلى القَاهرة مُتنكِّراً ، فَدُلَّ عليه فأُخِذَ وقُتل ، وكانَ غير مشْكور السِّيرة .

وتُوُفِّيَ الأميرُ سَيفُ الدين سُودون بنُ عبد الله الحمزاوي (٢) الظاهري الدَّوادَار الكبير بسيْفِ الشَّرْع بالقَاهرة ، وكانَ أصله من مماليك الملكِ الظَّاهر برْقُوق وخاصكيته ، ثُمَّ ترَقَّى بعد مَوْته إلى أنْ وَلىَ نيابَة صَفَد بعد أُمُورٍ وَقَعَتْ له بمصر ، فَدَام بصَفَد مُدَّة إلى أنْ طُلب إلى مصر . واستَقَرَّ خازنداراً ، ثُمَّ شَادَّ الشراب خانَاة ، ثُمَّ صَار دَوادَاراً كبيراً بعْد خُروج الملكِ النَّاصر فرج من بيْته وعوْدِه إلى الملك ، عوضاً عن سُودُون الماردَاني ، ودَامَ على ذلك إلى أن خرَجَ الملكُ الناصر إلى البلادِ الشَّامية وعاد ، فتخلف عنه سودون الحمزاوي هذا مُغَاضِباً له .

وَدامَ بالبلاد الشَّامِيَّة إلى أن قدِمَ غَزَّة هُو وجمَاعة من الأمراء وطرَقهم الأميرُ شيخُ المحموديُّ فوَاقعُوه فقُتلَ إينَالُ بَاى بنُ قُجْماس وغيرُه

(١) أى : تاجر خردة (و . پوپر ٦ : ٢٨٦ من هذا الكتاب ط كاليفورنيا) والخردة في لغة ذلك العصر تعني فضلات الرخام الملون المصنعة على أشكال هندسية مربعات ومثلثات ومثمنات وغير ذلك من الأشكال بقصد عمل الزخارف في المحاريب وغيرها . (من إملاء الدكتور عبد الرحمن فهمي أستاذ التاريخ بآداب القاهرة) وقد كان لها سوق وشارع بالقاهرة .

(٢) له ترجمة في المنهل الصافي (م ٢ : ١٤٥) .

من الأمراء ، وقُبض على سُودُون هَذَا بعد أنْ قُلِعتْ عينهُ ، وسَجنَهُ شيْخٌ إلى أنْ تَجرَّدَ الملكُ النَّاصِر إلى الشَّام أخَذَه وعادَ به إلى مصر ، وطلَبَ القضاةَ وأثبتَ عندهم إراقة دَمِه لِقتله إنساناً ظلماً . فقُتل فى شهر ربيع الآخر ، وقُتل معه دَواداره برْبُغا ، وسُودُون الحزاوى هذَا هو أستَاذ الأمير قانى باى الحزاوى نائب دِمشق الآن .

ثمَّ قتلَ السلطانُ جماعةً من الأمراء ممن كان قبض عليهم وهم : الأميرُ آقبردى ، والأمير جُمَق ، والأميرُ أسَنْباى التركانى ، والأمير أسَنْباى أمير آخور ، وقد تقدَّمَ ذكرُ قتل الجميع فى ترجمة الملك الناصر غير أنَّنا نذكُرُهم هنا ثانياً كَوْنَ هذا المحل مَظِنَّة الكَشْف عن ذلك .

وتُوُفِّىَ الأميرُ سَيفُ الدين مَنْطُوق نائب قلعة دِمَشْق — قتيلاً — وسَبَبُ قتلِه أنَّ الملكَ الناصرَ لمّا أمْسك شيخاً ويَشْبُك وحَبسَهُما عنده بقلعة دمشق أطلَقهما ونَزَل الجميعُ إلى مدينة دِمَشْق ، فاختفَى شيخٌ بالمدينة وخرجَ مَنطُوقُ هذا ويَشْبُك ، فندَب إليهم الملكُ الناصرُ الأميرَ بَيغوت ، فلحِق بَيغوتُ مَنطوقاً هذا لثقَلِ بَدنِه ، وفرّ يَشْبُك ، فقطع بَيغوتُ رأسه وحمله إلى الملكِ الناصر .

وفيها أيضاً قُتِلَ الأتابك يَشْبُك الشَّعبانىّ ، والأميرُ جَرْكَس القاسِمىّ المُصارع ، قتلَهما الأميرُ نَوْرُوز الحافِظىُّ عَلى بَعلَبكّ فى شهر ربيع الآخر ، وقدْ مرَّ كيفيَّةُ قتلِهما مُفصَّلاً فى ترجمة الملكِ النّاصر فلاَ حاجة للتكرار هنا ثانياً ، وكلّ منهما قدْ مرَّ ذِكْرُه فى ترجمة الملكِ النّاصر فى غيْر موْضع ، وأيْضاً فنى شُهرَتِهما ما يُغنى عن ذكرهما — انتهى .

أمْرُ النّيل فى هذه السنة : الماء القديم ثلاثة أذرع ونصف ، مَبلَغُ الزّيادة تسعة عشر ذراعاً وعشْرَةُ أصابع .

السنة الرابعة من ولاية الملك الناصر فرج بن برقوق

الثانية على مصر

وهى سنة إحدى عشرة وثمانمائة .

فيها تُوُفِّىَ قاضى القضاة كمالُ الدين أبو حفْص عُمَر بن إبراهيم بن محمد [بن عمر ابن عبدالعزيز][1] الحلبىّ الحنفى ابن أبى جَرَادة ، المعروفُ بابن العَديم ، قاضى قضاة حَلب ثمّ الدّيار المصريّة بها — وهو قاض — فى ليلة السبت ثانى عشر جمادى الآخرة ، ومولِدُه بحَلَب فى سنة إحدى[2] وسبعين وسبعمائة ، ودُفن بالحُوش المجاور لتُرْبة طَشْتَمُر حمّص أخضر بالصّحراء .

وتَوَلَّى القضاء من بعدِه ابنُه قاضى القضاة ناصرُ الدين محمد بسِفارة الوالد ؛ لكونِه كان مُتزوِّجاً بإحدى أخواتى ، وكان القاضى كمالُ الدّين المذكُورُ رئيساً عالماً فاضلاً حَشِماً ، وجيهاً عند الملوك وقُوراً ، وله مكارِم وأفْضال ، وقَدْ ثَلبَهُ الشيخ تقىُّ الدّين المَقْريزِىّ بأمورٍ هو برىء عنْها ؛ لأمرٍ كان بينَهما — عفى اللهُ عنهما .

وتُوُفِّىَ الأميرُ سيفُ[3] الدّين يَلْبغاَ بن عبد الله السَّالمىّ الظّاهرىّ الأُسْتادار — خَنقاً — بعد عصر يوم الجمعة بسجن الإسكندريّة .

قالَ المقريزىُّ : « وكان مُخَلِّطاً خلَط العَمل الصَّالح بعملٍ سَيِّئٍ » وساقَ حِكاياته فى عِدّة أسْطر ، وقدْ ذكرْنا معْنى كلامِهِ وأزْيد فى حقّ السَّالمىّ فى ترْجمة الملكِ الظّاهر برقوق ، ثمّ فى ترجمة الملك النّاصر مُفصَّلاً إلى يومِ وفاتِه ، وفى ذلك كِفايةٌ عن الإعادة .

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٤٦٥) والإضافة عنه

(٢) فى المرجع السابق « وولد بحلب فى سنة ستين أو إحدى وستين وسبعمائة » .

(٣) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٤٤٠) وسمى بالسالمى نسبة إلى خواجا سالم الذى جلبه من سمرقند إلى الديار المصرية .

وهو ممّن قتلَه جمالُ الدّين الأُستادار ، وكان يَلْبُغا المذكور له همّةٌ عالية ، ومعرفةٌ تامّة ، وعقلٌ وتدبيرٌ معَ دِينٍ وعبادةٍ هائلةٍ ، وعِفّةٍ عن المُنكَرات والفُروج ، وقدْ وَلِيَ الأُستادارية غيرَ مرّة ، ونفذ الأُمورَ على أعظم وجهٍ وأتمّ حُرمةٍ حسبمَا تقدّم ذِكره .

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدّين بَشْباى بن عبد الله من باكِى الظّاهرىّ[1] رأس نَوْبة النّوب فى ليلة الأربعاء رابع عشرين جُمادى الآخرة ، ودُفِنَ بالقَرافة ، وهو أحد أعيان المماليك الظّاهريّة الخاصّكيّة ، وترقّى مِنْ بعده إلى أن صارَ حاجباً بدِمشق ، ثمّ حاجباً ثانياً بِمِصْر ، ثمّ وَلِيَ حُجوبيّة الحُجّاب بها ، ثمّ نُقِل إلى رأس نَوْبة النُّوب ، وكان مِنْ أعيانِ الأُمراء وأكابر المماليك الظّاهرية ، غير أنّ المقريزىّ لمّا ذَكر وفاتَه قال : وكان ظالِماً غَشوماً غيرَ مشكُورِ السِّيرَة — انتهى .

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين أرِسْطاى بن عبد الله [الظاهرى][2] رأسُ نَوْبة النّوب — كان — ثمّ نائبُ إسكندريّة بها ، فى نصف شهر ربيع الآخر ، وكان جليل القَدْر ، عاقِلاً سيوساً ، طالَت أيّامُه فى السعادة إلاّ أنه كان يرتفع ثمّ ينحطُّ ، وقَع له ذلك غير مرّة .

وتُوُفِّيَ الأميرُ الكبيرُ ركنُ الدين بِيبَرْس بن عبد الله[3] ، وابن أُختِ الملكِ الظّاهر برقوق — قتيلاً — بسجن الإسكندريّة ، وقُتِل معه الأمير سُودون المارْدانِىّ الدّوَادار الكبير ، والأميرُ بَيْغوت نائب الشّامِ — كانَ — وقدْ مرَّ من ذكر هؤلاء الثّلاثة نبذةٌ كبيرة تُعرَفُ منها أحوالُهم لا سِيّما عند خلْع الملك النّاصر فرج وسَلْطنةِ أخيه المنصور عبد العزيز .

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٣٣٩) .
(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ١٧٩) والإضافة عنه .
(٣) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٣٧٢) .

وتُوُفِّىَ الشريفُ ثابت بن نُعَير بن منصور بن جَمَّاز بن شِيحة الحُسَيْنىّ(١) ، أميرُ المدينة النبويّة — عَلَى ساكنها أفضلُ الصَّلاةِ والسلام — فى صفَر ، وتولّى إمْرَة المدينة من بعده أخوه عَجْلان(٢) بنُ نُعَيْر .

وتُوُفِّىَ الوزيرُ الصّاحب فخرُ الدّين ماجد - ويُسمّى أيضاً محمد - بن عبدالرّزّاق(٣) ابن غُرَاب فى عشر ذى الحجّة — مقتولاً — بيدِ جمالِ الدين الأُستادار .

وكانَ فخرُ الدّين هذا أَسَنَّ من سَعْدِ الدين أخيه ، غيْر أنّ سعدَ الدين كان نوعاً وهذا نوعٌ آخر ، كان فيه حِدّةُ مِزاج ، وشراسةُ خُلُق ، بِضدّ ما كان فى أخيه سَعدِ الدين ، وكان يَلْثَغُ بالجيم ، يجعلُها زاياً ، فكان إذا طلَبَ أحداً يقول : « جِبُّوا » إلىّ ويُكرِّرُها ، وهو يبدّل الجيمَ بالزّاى فتضْحكُ الناس من ذلك أوْقاتاً ، وقد تنقَّلَ فى عدّة وظائف كالوَزَر ، ونظرِ الجيْشِ ، والخاصِّ فيما أظنّ .

وتُوُفِّىَ الأديب شمسُ الدين محمد بن إبراهيم بن بَرَكَة العَبْدَلىّ الدِّمَشْقىّ الشّهير بالمُزَيِّن [صنعته](٤) الشاعر المشهور ، فى شعبان ، ومَوْلدُه فى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة بدِمَشْق .

قال لى غير واحدٍ من أصحابِهِ : كان شيْخاً ظريفاً فاضلاً أديباً ، معاشراً للأكابر والأعْيان ، ورأى الشّيخ جمال الدين محمد بن نُباتة(٥) ، وابنَ الورْدى(٦) ،

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٤٤٤) وينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٣٧٥) .

(٣) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٧١) .

(٤) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٨٥) والإضافة عنه .

(٥) هو الإمام الأديب أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسين بن صالح بن على بن يحيى بن طاهر ابن الخطيب بن أبى يحيى عبد الرحيم بن نباتة الفارقى ، ولد سنة ٦٨٦ هـ وتوفى فى ثامن صفر سنة ٧٦٨ هـ (ج ١١ : ٩٥ — ٩٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٦) هو الشيخ الإمام البارع الأديب الفقيه زين الدين عمر بن المظفر بن عمر بن عمر بن محمد بن أبى الفوارس بن على المصرى — الحلبى الشافعى ، المعروف بابن الوردى ، ناظم الحاوى فى الفقه ، توفى فى سابع عشرين ذى الحجة سنة ٧٤٩ هـ (ج ١٠ : ٢٤٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

والصَّفَدِىّ(١) وغيرهم ، وكان له شعرٌ رائق ، من ذلك أنشدنا الشيخ جمالُ الدين عبد الله الدِّمَشْقِىّ قال : أنشدنى الأديب شمسُ الدين المُزَيِّن منْ لفظِه لِنَفْسِه [الوافر]

تَقُولُ مُخَدَّتِى لَمَّا اضْطَجَعْنَا وَوَسَّدَنِى حَبِيبُ القَلْبِ زَنْدَه
قَصدتُم عِنْد طِيبِ الوَصْلِ هَجْرِى خُذُونِى تَحْتَ رَأْسِكُمْ مُخَدَّه

وله فى دَوَاة : [السريع]

أَنَا دَوَاةٌ يضحكُ الجُودُ مِنْ بُكَا يَرَاعِى جَلَّ مَنْ قَدْ بَرَاهُ
دُلُّوا عَلَى جُودِىَ مَنْ مَسَّهُ دَاءٌ مِنَ الفَقْرِ فإنِّى دَوَاهُ

قلت : وهذا يشبه قولَ القائل ، ولم أَدْرِ مَن السَّابق لهذا المعنى :

هَذِى دَوَاةٌ لِلْعَطَا والسَّخَا ومَنْبَعُ الخَيْرِ وبَحْرُ الحَيَاء
قَدْ فَتَحَتْ فَاهَا وقَالَتْ لَنَا مَنْ مَسَّهُ الفَقْرُ فإنِّى دَوَاء

أمْرُ النِّيل فى هذه السنة : الماء القديم أربعةُ أذرع سواء ، مبلغ الزِّيادة سبعة عشر ذراعا وإِصْبَعٌ واحد .

---

(١) هو الشيخ الإمام البارع الأديب المفتن صلاح الدين أبو الفضائل خليل بن عز الدين أيبك بن عبد الله الألبكى الصفدى — الشاعر المشهور ، ولد سنة ٦٩٦ هـ وتوفى فى عاشر شوال سنة ٧٦٤ هـ (ج ١١ : ١٩ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

السنة الخامسة من ولاية الملك الناصر فرج بن برقوق

الثانية على مصر

وهى سنة اثنتىْ عشرة وثمانمائة .

فيها تجرَّدَ الملكُ النّاصر إلى البلاد الشامية تجريدَته الخامسة التى حصر فيها الأمير شيْخاً ورفقَته بصرْخَد .

وفيها كانت قَتْلَةُ جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن قاسم البيرىّ البَجاسى[1] الأُسْتادار ، فى ليلة الثلاثاء حادى عشر جُمادى الآخرة ، بَعدما أُخِذ منه نيِّفٌ على ألفِ ألفِ دينار فى أيَّام مصادرتِه ، وهو تحْتَ العقوبة على نقذات[2] متفرِّقة . وقد تقدم ذكر مسْكِه فى ترجمة الملك الناصر فرج عند قدومِه منَ الشّام بمدينة بُلْبَيْس ، وكان ظالماً جبَّاراً سفَّاكاً للدِّماء مِقْداما ، وكان أعورَ قصيراً دمياً كرِه المنْظر . وكان أوّلا يَتزيّا بزىّ الفقُهاء ، ثمَّ تزيَّا بزىّ الُجند ، وخدم بلاصيًّا [عند الشيخ على كاشف ، ثمَّ عند غيره][3] ولا زال يترقَّى حتى كان مِنْ أمره ما كان ، وهو أحد مَنْ كان سبباً لخراب البلاد ؛ منْ كثْرةِ ما قتل من مشايخ العربان وأرباب الأَدْراك ، واستولى على أموالهم ، وأمَّا من قتله منَ الكتَّاب والأعْيان فلا يُحْصى ذلك كثرةً ، وحسابه على الله تعالى .

وتُوُفِّىَ الشيخُ الإمامُ العالم العلّامة نصْرُ الله بن أحمد بن محمد بن عمر الشُّشْتَرىّ

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٤٤٥) .

(٢) من النقذ وهو ما أنقذته واستخلصته من يد غيرك (معجم الوسيط ٢ : ٩٥٣) .

(٣) الإضافة عن المرجع السابق .

البغدادىّ[١] الحنبلىّ مدرس المدرسة الظاهرية — بَرْقوق — بالقاهرة فى حادى عِشرين صَفر .

وكان إماماً عالماً فقيهاً مُحدِّثاً ، أفتَى ودرّس سنين ببغداد ، ثمّ بالقاهرة ، وهو والدُ قاضى القضاة عالمِ زماننا محبِّ الدين أحمد بنِ نصر الله الآتى ذكره فى محله إن شاء اللهُ تعالى .

وتُوُفِّىَ الأميرُ سيفُ الدين آقْباى بن عبد الله الطُّرُنْطائىّ الظاهرىّ رأسُ نوبةِ الأمراءِ ، المعروف بآقباى الحاجب — لِطولِ مُكْثِه فى الُحجوبيَّة — فى ليلة الأربعاء سابع عشر جُمادى الآخرة .

ونزَل السّلطانُ الملكُ النَّاصر إلى دارِه ، ثمّ تقدّم راكباً إلى مُصلّاةِ المؤْمِنىّ فصلَّى عليه ، ثمّ شَهِد دفنَه ، وترك آقْباىُ مالاً كثيراً ، أخذ الملكُ النّاصر غالبه ، وكان آقباىُ المذكور عاقلاً ، سَيوساً عفيفاً عن المنكرات إلاَّ أنَّه كان بخيلاً شَرِهاً فى جَمْع المال .

وتُوُفِّىَ الأمير سيْفُ الدين طُوخُ بنُ عبد الله [الظاهرى][٢] الخازِندار ، وهو أميرُ مجلس ، فى آخر جُمادى الآخرة بالقاهرة ، والعامَّة تُسَمِّى طوخ هذا « طُوق الخازِنْدار » وكان من أعْيانِ الأمراء ، وله الكامةُ فى الدَّوْلة .

وتُوُفِّىَ الأميرُ سيفُ الدين بَلاَط بنُ عبد الله ، أحدُ مقدّمى الألوف بالدِّيار المصريّة — مقتولاً بالإسكندرية — لَمْ أقِفْ له على ترجمة ولم أعرِف مِنْ حالهِ شيئاً غير ما ذكَرْتُ .

وتُوُفِّىَ السَّيِّدُ الشَّريفُ جمَّاز بن هبة الله بن جمَّاز بن منصور الحُسَيْنِىّ أميرُ المدينة النّبَويّة — مقتولاً — فى جُمادى الآخرة بالفلاة ، وهو فى عَشْرِ السِّتين ، وكان وَلِىَ إمْرَةَ المدينة ثلاث مِرار ، آخرها فى سنة خَمْسٍ وثمانمائة .

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٣٨١) ومولده فى بغداد فى حدود سنة ثلاثين وسبعمائة .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٢٤٠) والإضافة عنه .

وتُوُفِّيَ الشيخُ شمسُ الدين محمد بن عبد الله بن أبي بكر القَلْيوبيّ الشّافِعِيّ شيخ شيوخ خانقاة سِرْياقوس — بها — في يوم الخميس ثاني عشرين جمادى الأولى، وكان فقيهاً فاضلاً، وله مشاركةٌ في فنون.

وتُوُفِّيَ السّيِّد الشّريفُ أحمد بن ثُقْبة بن رُمَيْثَة بن أبي نُمَيّ الْحسنيّ المكِّيّ بمكة في المحرم.

وكان الشريفُ عِنان بن مُغامِس في ولايته الأولى على مكة أشركه معه، ثمّ وقع له أمورٌ حتى مات وهو مَكْحول، وكان ابنُ أخته الشريفُ محمد بنُ عَجْلان، وكُبَيْش بن عَجْلاَن قد خافا منه فأكحَلاه، وقُتِل ابن أُخته المذكور بعد ثلاثة أشهر، وكُبَيْش المذكور بعد ستة أشهر.

وتُوُفِّيَ أمير زة محمد بن أمير زة عُمر شيخ ابن الطاغية تَيمُورلَنْك في المحرَّم — مقتولا — على يَدِ بعض وُزرائه، وكان مَشكورَ السِّيرة، وقام منْ بعده بمملكةِ جغْتاى أخوه أمير زة إسكندر شاه بن عمر شيخ بن تَيْمورلنك.

ومنْ غريب الاتّفاق أنّ إسكندر شاه المذكور، لمّا مَلك بعد قتْلِ أخيه محمد الْمُقدّم ذكرُه أحضَر مَنْ كان عَمِل على قتلِه، ووَبّخَهُ في الملأ، فأجابه الرجلُ بأن قال: وما عملْتُ معكَ إلاّ خيراً، لَوْلاَ قتلْتُه مانابَكَ الْمُلْك، فأسرعَ إسكندر شاه بقتلِه خوفاً منْ أنْ يتّهِمَه أحدٌ بقتْل أخيه المذكور في الباطِن.

أمْرُ النّيل في هذه السنة: الماء القَديمُ خمسةُ أذْرُع سواء، مبلغُ الزّيادةِ عشرون ذِراعاً سوَاء.

* * *

السنة السادسة من ولاية الملك الناصر فرج بن برقوق

الثانية على مصر

وهى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة .

فيها كان الطاعون بالديار المصريّة ، ومات منه عدة كبيرة من الناس .

وفيها تجرّدَ السّلطانُ الملكُ الناصرُ إلى البلاد الشّامية تجريدتَه السادسة ، وحاصر شيخاً ونَوْرُوزاً بالكَرَك بعد أنْ وصَل فيها إلى أُبْلُمُسْتَيْن وعاد .

وفيها استقرّ الوالدُ فى نيابة الشّام ثالثَ مرّة ، واستقرّ شيخٌ فى نيابة حَلَب ، ونَوْرُوز فى نيابة طَرابُلُس .

وفيها تُوُفِّىَ الرئيسُ مَجْد الدين عبد الغنى بنُ الهَيْصَم[1] ناظر الخواصّ الشريفة بالدّيار المصرية فى ليلة الأربعاء العشرين منْ شعبان بعد قُدومه منْ دِمَشْق بأيّام ، وهو والِدُ الصّاحِب أمين الدين إبراهيم بن الهَيْصَم ، وأخو الصّاحب تاج الدّين عبد الرّزّاق الآتى ذكرهما فى محلهما .

وتُوُفِّىَ الأميرُ سيفُ الدين قُجاجُق بن عبد الله [الظاهرى][2] الدّوادار الكبير فى سادس المحرّم ، ودُفن بتُرْبته التى أنشأها بالصّحراء ، وكان من أصاغِر خاصّكيّة الملك الظاهر بَرْقوق ومماليكه ، وتَرَقَّى فى الدولة الناصرية حتى وَلِىَ الدّوادارية الكُبرى بعد الأمير سودُون الحمزاوىّ ، وكان مَليحَ الشكل ، لَمْ يُشْهر بشجاعة ولا إقدام ، ولهذا المعنى ، ولِعدم شرّه رقّاه الملك الناصرُ واختصّ به .

حَضر مرّة عند جمال الدين البِيرىّ الأستادار ، وكان بينهُما صحبة أكيدةٌ ، وكان بإحدى عيْنَىْ جمال الدين خَللٌ ، فجلس قُجاجُق بعد أن سلَّم على جمال الدين منْ

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى (م : ٣٣٥) ويقال إن الهيصم من ذرية المقوقس .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ١١) والإضافة عنه .

جهة عينه الذّاهبة ، واشتغل جمالُ الدين بمباشرته بسرعة لأجْل قُجاجُق المذكور ، وأخذ يَكتب على القِصص ويرمِيها ليُنْهِيَ أمرَه ، فأخذ قُجاجُق قصّةً منها ورمّل عليها ، فعرَف أصحابُ جمال الدين ما فعلَه قُجاجُق المذكور فقام إليه وأهْوَى علَى يدِه ليقبّلَها ثمّ قدّم له تقْدمةً هائلة .

وتكلّم الناس بهذه الحكاية ، فصار مَنْ هو أجْنبيٌّ عنِ الرياسةِ ومُداخلَة الملُوك ، وعديمُ المعرفة بُرتب أرباب الوظائف يقول : كان قُجاجُق يُرمِّلُ على جمال الدين ، وكيف ذلك والدّوادار الكبير لا يُرْمِّل على السُّلطان وإنما يُرمِّل على كتابة السلطان رأسُ نَوْبة النّوب ؟! وفى هذا كفاية .

وبالجملة فإنّ هذه الحكاية تدلّ على أنّ قُجاجُق كان ساقِط المروءة لأنّ قَرْدَم الخازِنْدار كان أنزلَ رُتبةً منْ قُجَاجُق ولم يَدخل إلى جمال الدين ولم يسأله حاجةً فى عُمْره ، وعجز جمالُ الدين فى تَرضِّيه فلم يرْض ولم يدخل إليه ، فأين هذا منْ ذاك ؟! — انتهى .

وتُوُفِّيَ قاضى القضاة تقيُّ الدين عبد الرحمن ابن تاج الرِّياسة محمد بن عبد الناصر المحلّيّ الدّميرىّ الزُّبَيْرىّ[1] الشافعىّ فى يوم الأحد أوّل شهر رمضان ، ومَوْلدُه فى سنة أرْبع وثلاثين وسبْعمائة .

وَلِىَ قضاء الديار المصرية بعد الصَّدر المُناوىّ نحو ثلاث سنين ، وحسُنت سيرتُه لمعرفتِه بالشروط والأحكام ، ولعفّته أيضاً عن كلّ قبيح .

وكان نشأ ببلده بالزّبيْريَّات منْ قُرى الغربية من أعمال القاهرة ، وسلَك النواحى ، وطلب العلم ، وسمع على أبى الفتح المَيْدُومىّ وغيره ، وقرأ على أبيه القراءات وغيره ، وتفقّه بجماعة .

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٣٠٦) ، والزبيرى نسبة إلى محلة الزبير من قرى الغربية .

ثمّ قَدِم القاهرة ، وتزوّج بابنة قاضى القضاة مُوَفّق الدين عبد الله الحنْبلِىّ ، وباشر توقيع الحُـكم مدّةً طويلة .

ثمّ ناب فى الحُـكم عنِ القضاة بالقاهرة دهراً ، وعلاَ سِنّه ، وعُرف بالديانةِ والصّيانة ، إلى أن طلَبه الملكُ الظاهر بَرْقوق فى يوم الخميس ثالث عشرين جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وسَبعمائه على حين غفْلَة ، وفوّض إليه قضاء القضاة الشافعية عوضاً عن المُناوِىّ بحكم عزْلِه .

ودام فى القضاء حتى صُرف أيضاً بالمُناوِىّ فى شهر رجب سنة إحدى وثمانمائة ، فلزم المذكور داره ، وترك ركوب البغلة وصار يمشى فى الطُّرقات ، وطرَح الاحتشام إلى أنْ مات — رحمه الله — ودفن بتربة الصُّوفيّة خارج القاهرة .

وتُوُفِّىَ ملكُ الروم سليمان بن أبى يزيد بن عثمان[١] — مقتولاً — وملكَ بعده أخوه موسى الجزيرة الرُّومية وأعمالها ، وملكَ محمد بن عثمان العزبة[٢] الخضراء وأعمالها ، ويقال لها بالرُّومية بُرْصا .

وتُوُفِّىَ الأميرُ زَيْنُ الدين قَرَاجا بن عبد الله الظاهرىّ[٣] الدوادار الـكبير بمنزلة الصالحية ـ متُوجّهاً مع السلطان الملكِ الناصر إلى دِمَشق ـ فى يوم الأربعاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر ، ودفن بها ، وكان أصلُه من خاصـكيّة الملك الظاهر بَرقوق ، ثمّ صار بجْمَقْدَارا[٤] ، وعُرف بقرَاجاً البجْمَقْدار .

ثمّ تأمَّر فى الدولة الناصرية — فرج — وترقّى حتى صار شاد الشّراب خاناة .

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ١١٤) .

(٢) فى الأصول « العربه » دون نقط ، ولم أعثر على نص يفيد فى المراجع الميسرة ، ولعلها ما أثبت .

(٣) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ١٥) .

(٤) البجمقدار : ويقال « البشمقدار » ، وهو الذى يحمل نعل السلطان أو الأمير ، والإسم مكون من لفظين أحدهما تركى وهو « بجمق » ومعناه النعل ، والثانى فارسى وهو « دار » ومعناه ممسك (القلقشندى — صبح الأعشى ٥ : ٤٥٩) .

ثمّ وَلِيَ الدوادارية الكبرى بعدموت قُجاجُق ، فلم تطُلْ مُدَّتُه فيها ، ولَزِم الفِراش إلى أن خرج صُحبة السّلطان فى مِحَفّةٍ ومات بالصالحية ، وكان أميراً عاقلاً ساكناً مشكور السيرة .

وتُوُفِّيَ شمس الدين محمد بن عبد الخالق المُناوِيّ(١) ، المعروف بِبَدَنَة وبالطَّويل أيضاً فى شهر رجب بعد ما وَلِيَ حِسبة القاهرة ، ووَكالة بيْتِ المال ، ونظر الكِسْوة ، ونظر الأوْقاف ؛ الجميع بالسَّعْي والبذل ، وكان عارياً منَ العِلْم .

وتوفِّيَ الأمير سيفُ الدين قَرَاتَنبك بن عبد الله الظاهرىّ الحاجب ، أحد أُمراء الطَّبْلَخانات بالديار المصرية — بها — فى أوّل شوّال ، وكان مِمَّنْ ترقَّى فى الدوْلة الناصرية فى أيام الفِتَن .

وَتُوُفِّيَ القَان غياثُ الدين أحمدُ ابن الشيخ أُوَيس ابن الشيخ حسن ابن الشيخ حُسين بن آقبُغا بن إيلكان(٢) ، صاحبُ بغداد والعراق — مقتولاً — فى ليلة الأحد آخر شهر ربيع الآخر .

وكان أولُ سَلطنته بعْد وفاة أبيه فى صفر سنة أربع وثمانين وسبْعمائة ، وقد نَكِبَ فى مُلكه غير مرّة ، وَقَدِم القاهرة فى دولة الملك الظّاهر برْقوق وَقدْ تقدّم ذكرُ قدُومه إلى القاهرة ، وتلقى الملكِ الظّاهر له ، وأيضاً ذكرُ خُروجِهِ وسَفر السّلطانِ معهُ إلى البلاد الشّامية ، كلّ ذلكَ فى ترْجمة الملك الظّاهر برْقُوق الثانية ، فلينْظر هُناك(٣) فإن فيه مُلحاً .

ثمّ إنّ السّلطان أحمد هذا قَدِم إلى دِمَشْق ثانياً فى الدّولة النّاصريّة — فرَج — فقَبض عليه الأميرُ شَيخُ المحموديّ نائب الشّام وحبسهُ بقلعة دِمشق مُدّة إلى أن أطلقه وعادَ إلى بلاده .

---

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ١٧٢) .
(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٥٩) .
(٣) انظر (ج ١٢ : ٤٣ — ٥٨ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

وَوقع له أُمورٌ حكيناها فى ترجمته فى تاريخنا « المنهل الصّافى والمستوفى بعد الوافى » مُفصلا إلى أنْ مات .

وكانَ القان أحمدُ هذا ملكاً جليلاً شُجاعا كريماً ، فصيحاً باللُّغات الثلاث : العربية والعجمية والتركية ، وينظِمُ فيها الشعر الحَسَن ، وكان يُحبُّ اللهو والطَّرب ، ويُحسن تأدِّى الموسيقى إلى الغاَية ، ولهُ فيه أيضاً التصانيف اللطيفة، غير أنّه كان مُسرفاً على نفْسِهِ جداً ، سفّاكاً للدِّماء ، مُنعكفاً على المعاصِى — سامَحهُ الله تعالى — ومما يُنسبُ إليْه مِن الشِّعر باللغة العربية قوله — رحمَه الله — فى محموم : [الكامل]

حُمَّاك مَا قَربت حِمَاكَ لعلّةٍ إلاّ ترُومُ وتَشتهى مَا أشتهى
لوْ لم تكُنْ مشغوفةً بكَ فى الهوَى مَا عانَقتك وقبّلتْ فاكَ الشهى

أمْرُ النيل فى هذه السنة : الماء القديمُ سبعةُ أذرع سواء ، مبلغُ الزِّيادة تسعة عشر ذراعاً وأحد وعشرون إصبعاً .

* * *

السنة السابعة من ولاية الملك الناصر فرج بن برقوق

الثانية على مصر

وهى سنة أربع عشرة وثمانمائة .

فيها تجرد السلطانُ إلى البلاد الشامية تجريدته السابعة ، وهى التى قُتل فيها فى أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة ـ حسبما تقدّم ذكره .

وفيها قُتل الأمير سيفُ الدين تِمْراز بن عبد الله النّاصرىّ[1] الظاهرىّ نائبُ السّلطنة بالدّيار المصرية بسجنه بثغر الإسكندريّة ، وكان مِنْ أجلّ الأمراء ، كانَ تركى الجنس اشتراه الملك الظاهرُ برقوق وهو أتابَك ، ورَقّاه بعد سلطنته حتى جعله أمير مائة ومقدّم ألف بالدّيار المصرية .

ثمّ حُبس بعد عزْله بثغر الإسكندرية مُدّةً ثمّ أُطلق ، وصارَ على عادته أمير مائة ومقدّم ألف ، ووَلى نيابة الغيبةِ لما خرَج السلطانُ لقتال تَيمُور .

ثمّ استقرّ بعد ذلك أميرَ مجلس ، وانضمّ على الأتابك يَشْبُك الشعبانى ، وحُبس معه ثانياً .

ثمّ أُطلق واستقر أمير سلاح ، ثُم خرَج مع يَشْبُك أيضاً إلى البلاد الشاميّة وواقَعَ السّلطان بالسعيدية ، ثمّ أُعيد إلى رُتبته أيضاً بمصر مُدّة ، ثُمّ استقرّ فى نيابة السلطنة بالديار المصرية مُدّة طويلة ، ثمّ فرّ من السّلطان فى ليلة ببيسان وتوجّه إلى الأمير شيخ ونَوْرُوز فدام عندهما مُدةً .

ثمّ عاد إلى طاعةِ الملك الناصر بعد أُمور حكيناها فى ترجمة الملك الناصر ، فأكرمه الملكُ الناصرُ وأعاده إلى رتبته مُدة ، ثُمّ قبض علَيه وَحبسه بثغر الإسكندريّة إلى أن أرادَ السلطانُ السفر إلى البلاد الشامية فأمر بقتله ،

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٤٣١) .

فقُتل بالإسكندريّة ، وكان تِمْرازُ رأساً فى لعب الرُّمح ، ونسبته بالنَّاصِرى لتاجره الذى جلبه الخواجا ناصِر الدين ، وقيل إنّ الملك المؤيد شيخاً قال يوماً : إن كانَ الملك الناصِر فرج يدخل الجنة فيدخُلها بقتْل تِمْراز ، فقِيلَ له : وكيفَ ذلك ؟ قال : لأن تِمْراز عصَى على الملك النَّاصِر غير مرَّة وهو يُقابله بالإحسان ويترضيه بكل ما يمكن حتى خلع عليه باستقراره فى نيابة السّلطنة بالدِّيار المصرية ؛ كل ذلك حتى يثبت عَلى طاعتِهِ ، فلم يثبت تِمراز بعد ذلك إلا نحْو السنة أو أكثر ، وفرّ من الملك الناصِر فى ليلة بيسان ، وقدِم علينا ووافقنَا على الخروج على السّلطان ، فقلتُ فى نفسى : وما عسى أنْ أفعل معه وقد ترَكَ نيابة السَّلطنة لأجلى ؟ فلم أجدْ بُدًّا من أن أُجلِسهُ مكانى وأكون فى خدمتِهِ ، ففعلتُ ذلكَ فأبى وأقسَم إلا أن يكون من جملة أصحابى ، ودام معنا مُدَّة طويلةً ، ثمّ تركَنا وعادَ إلى طَاعة الملِك النَّاصِر ، فتلقَّاه الملكُ الناصِر وأنعمَ عليه بإمرة مائة وتقْدمة ألف ، وقد تفكَّر فى نفسه أنَّه كان ولّاه نيابة السلْطنة فما قنع بذلك فبماذا يُرْضيه الآن ؟ فلم يجد بُدًّا من القبْض عليه وقَتْله ، فكان هذا جزاءه — انتهى .

وفيها قُتل أيضاً الأميرُ سيفُ الدِّين خيربك بن عبد الله الظّاهرى نائبُ غزَّة ، ثمَّ أحد مقدّمى الألوف بالدِّيار المصرية بثغر الإسكندرية فى تاسع شوّال ، وقد مرّ من ذكره مايعرفُ بِهِ أحواله ، على أنَّه كان من أوْساط الأمراء الظّاهريّة .

وفيها أيضاً قُتل الأميرُ سيفُ الدين جانَم [بن عبد الله](١) من حسن شاه الظاهرىّ نائب طرابُلُس ، ثمَّ أمير مجلس — على ممنود ، قتله الأمير طوغان الحسنى الدّوادار

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ١ : ٤٥٥) والإضافة عنه .

بأمر الملك الناصر حسبما تقدم ذِكْرُه مُفصلا فى ترجمة الملك الناصر ، وكان شجاعاً مِقداماً كريماً ، مَعْدُوداً من أعيان الأمراء — رحمهُ الله تعالى .

وفيها قُتل الأمير سيفُ الدين يَشْبُك بن عبد الله الموساوىّ الظاهرى ، [المعروف بـ][1] الأفقم ، أحدُ مقدّمى الألوف بالديار المصرية ، بعد أن ولى عدّة أعمال ، وكان كثير الشّرور ، مُحبًّا لإثارة الفتن ، لا يثبت على حالة مع الظلم والعسْف .

وفيها قُتِل الأمير سيفُ الدّين قَرْدَم[2] بن عبد الله الخازندار الظاهرىّ أحدُ مقدّمى الألوف بالدّيار المصرية ، والخازندار الكبير بثغر الإسكندرية ، وهو صاحب التربة بباب القَرافة .

وفيها قُتل الأمير سيف الدين قَانى بك بن عبد الله الظاهرىّ[3] ، رأس نَوْبة النّوَب بثغر الإسكندرية ، وكان مِنْ أصاغر المماليك الظّاهرية ، رقّاهُ الملك الناصِر ، فلم يسلم مِن شرّه ، فقبضَ عليه وحبسه مُدّة ثمّ قتله ، وكان منْ سَيّئات الزّمان جهلاً وظلماً وفسقاً .

وفيها قُتل أيضاً بسيف الملك الناصِر فرج بن برْقوق — صاحب الترجمة — مِن المماليك الظاهرية وَغيرهم ستمائة وثلاثون رَجلاً — قالهُ المقريزىّ .

وفيهَا تُوُفِّى الأميرُ علاء الدين آقبُغا بن عبد الله القُديدىّ دوادار الأتابَك يَشْبُك ، ثمّ دوادار السّلطان ، فى ليلة ثالث عشر شوّال ، وكانَ خصيصاً عند السّلْطان الملك الناصِر ، وتزَوّج الملك الناصِرُ بابنتِه ، وكان لديه معرفة وعقل بحسب الحال .

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٤٢٣) والإضافة عنه .

(٢) ضبطه محققو الأجزاء السابقة من الكتاب بفتح القاف وسكون الراء وفتح الدال ، وضبط فى نسخة استانبول بضم القاف وسكون الراء وضم الدال .

(٣) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٦) وقانى بك معناه شديد البأس .

وتُوُفِّى الأميرُ الشريف علاء الدين عَلِىّ محمد البغدادِىّ(١)، ثمّ الإخميمىّ ، ولى نيابة ثغر دِمياط ، ثمّ الوَزَر بالدّيار المصْريّة .

وتُوُفِّى الطَّوَاشىّ زينُ الدِّين فَيْرُوز بن عبد الله الرّومىّ(٢) فى يوم الأربعاء تاسع شهر رجب ، وكان فَيْرُوز المذكور خصيصاً عند أُستاذه الملك النّاصر .

وكان شرَع فيرُوزُ قبل موته فى بناء مدرسته بخط الغرَابليين(٣) داخِل بابى زُويلة ، ووَقف عليها عـدّة أوقاف ، فمـات قَبل فراغها ، فدفنَه السّلطانُ بحوش الترْبة الظاهرية ، وأخذَ الملكُ النّاصر ما وَقفهُ من المصارف على الفقهاء والأيتام وغيرهم ، وأقرّه على الترْبة الظاهرية المذكورة بالصحراء .

ثمّ أنعم السلطانُ بالمدْرسة المذكورة على الأمير الـكبير دَمُرْدَاش المحمدى فهدمها دَمُرْداش وشَرع فى بنائها قَيْسارِيّة ، وقَبل أن تكمل خرج دَمُرداش فى صُحبة السلطان إلى التّجريدة . فقُتل الملكُ الناصِرُ ، ثمّ قُتل دَمُرداش المذكور أيضاً بعد مُدّة ، فاستولى عبدُ البَاسط بن خليل الدِّمشقىّ ناظرُ الخزانَة على القَيْساريّة المذكورة وَكملها وجعلَ بأعلاها رَبْعاً ، وهى سُوقُ الباسطية(٤) الآن .

قلتُ : وهى إلى الآن مَدْرسة عَلَى نيّة فَيْرُوز وله أجرُها ، وقَيساريّة على زَعم مَنْ جعلها قَيسارّية وعليه وِزْرُها .

---

(١) له ترجمة فى (السخاوى — الضوء اللامع ٦ : ٣٢) .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٢ : ٢٢٣) .

(٣) خط الغرابليين : ومكانه اليوم الجزء الذى تشغله السكرية والمناخلية بشارع المعز لدين الله قبل حارة الروم من جهة باب زويلة ، وقد سمى بذلك لأنه كان به حوانيت تعمل الغرابيل والمناخل (على مبارك — الخطط ٢ : ٣٢) .

(٤) سوق الباسطية أو قيسارية الباسطية : بناها زين الدين عبد الباسط خليل بن إبراهيم ناظر الخزانة فى أيام السلطان المؤيد شيخ ووقفها على مدرسته وجامعه (المقريزى — الخطط ٢ : ٤٥٤) .

وتُوُفِّى الأديبُ الفاضلُ البارعُ المفتن أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن أبى الوفاء[1] الشـاذلىّ المالـكىّ — غريقاً ببحر النِّيل بين الروضـة ومصر — فى يوم تَاسُوعاء ، وغَرِقَ معه جَمال الدِّين [ابن قاضى القضاة ناصر الدِّين أحمد][2] ابن التَّنَسىّ المالـكىّ ، ومَات أبو الفضــل المذكور وهو فى عُنْفُوان شَبيبته ، وكان شاعراً بارعاً بَليغاً ، وهو أشعرُ بنى الوَفاء بلا مدافعة ، وله ديوان شِعر ، وشِعرُه فى غاية الحسن .

ومِنْ شــعْرِه ، وَهوَ مِنَ اختراعاته البَديعة — رحمـهُ الله تعـالى وعَفا عنه :

عَلىَ وَجْنتَيْه جَنةٌ ذَاتُ بَهْجَةٍ تَرَى لِعيُونِ النَّاس فِيهاَ تَزاحُماً
حَمَى وَرْدَ خَدَّيْه حُمَاةُ عِذَارِهِ فَيا حُسنَ رَيْحانِ الخدُودِ حَمَى حِمى

وله مضمِّناً : [الوافر]

وَخِلٍّ سُمتُه صَفْعاً بمَالٍ فقَالَ تَوازَعُوهُ ياصِحابى
إِذَا الحِمْلُ الثَّقِيلُ تَوَازَعَتْهُ أكُفُّ القَوْمِ هانَ على الرِّقَابِ

وله فى مُزَيِّن [المجتثّ]

حِبِّى المُـزَيِّنُ وَافَى بَعْدَ البعـــادِ بِنَشْطِه
وَفَشَّ دُمَّـــلَ قَلـبِى بِــكاسِ رَاحٍ وَبَطّه

وله ، وهو فى غاية الحسن والظرف [الرمل]

عَبْدُكَ الصَّبُّ المُعَنَّى عَرَفَ الـفَقْرَ وَذَاقَه
فلَـكَمْ فَاخَرَ مُحْتـا جاً شَكى فقْراً وَفاقَه

(١) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٥٠٧) .
(٢) الإضافة عن المرجع السابق .

وله أيضاً [الكامل]

فِى لَيْلِ شَعْرٍ أَوْ بِصُبْحِ جَبِينِ ... مَا زَالَ حِينَ يُضِلُّنِى يَهْدِينِى
هُوَ بِى خَبِيرٌ مِثْلَ مَا أَنِّى بِهِ ... فَسَلُوهُ عَنِّى أَوْ فَعَنْهُ سَلُونِى
لاَ تَملكُ الْعُذَّالُ مِنِّى فِى الهَوَى ... مِنْ سَلوَةٍ عَنْهُ وَلاَ تَلْوِينِى
يَا دَوْلَةَ الأَشْوَاقِ خَلِّى دِينَهم ... لَهُمْ وَفِى حُكْمِ الهَوَى لِى دِينِى
أَشْكُو فَيَشْكُو مَا شَكَاهُ حَنِينُه ... فَيَفِى حَنِينُهُمَا بِبَعْضِ حَنِينِى
لَمَّا جُنِنْتُ عَلَيْهِ سَلْسَلَنِى الهَوَى ... لا تَعْجَبُوا لِتَسَلْسُلِ المجْنُونِ
بِحوَاجِبٍ وَسَوَالِفٍ وَضَفَائِر ... كَاليَاءِ أَوْ كَالوَاوِ أَوْ كَالسِّينِ
طَالَبْتُ مِرْشَفَهُ المَلِىَّ فَقَالَ قُمْ ... وَاسْتَوْفِ ذَا المكتُوبَ فوقَ جَبِينِى
حاربتَ ياجيشَ المَحاسنِ مُهْجَتِى ... وَكَسَرْتَ قلبى عَنْوَةً بِكَمِينِ

وقد ذكرنا من مقطّعاته نبذة غير ذلك فى ترجمته فى « المنهل الصافى » — رحمه الله تعالى .

أمرُ النيل فى هذه السنة : الماء القديمُ ستّة أذرع وثمانيةُ أصابع، مبلغ الزّيادة ثمانية عشر ذراعاً واثنان وعشرون إصبعاً — والله أعلم .

* * *

ذكر سلطنة الخليفة المستعين بالله العباس على مصر

السّلْطَانُ أميرُ المؤمنين المستعين بالله أبو الفضل العباس ابن الخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد ابن الخليفة المعتصم بالله أبي بكر ابن الخليفة المستكفي بالله أبي الرّبيع سليمان ابن الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العبّاس أحمد بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسين — وهؤلاء غيرُ خلفاء — ابن الخليفة الراشد بالله منصور ابن الخليفة المسترشد بالله الفضل ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد ابن الخليفة المقتدى بالله عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله ابن الخليفة القادر بالله أحمد ابن الخليفة المقتفى بالله إبراهيم ابن الخليفة المقتدر بالله جعفر ابن الخليفة المعتضد بالله أبي العبّاس أحمد ابن الأمير الموفّق طلحة ابن الخليفة المتوكل على الله جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد بالله هارون ابن الخليفة المهدىّ بالله محمد ابن الخليفة أبي جعفر عبد الله المنصور ابن الإمام محمد ابن الإمام علىّ بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، العباسىّ الهاشمىّ المصرىّ الخليفةُ ، ثم سّلْطَانُ الدّيار المصريّة ، ولىَ الخلافة بعد مَوت أبيه في يوم الإثنين مستهلّ شعبَان سنة ثمان وثمانمائة ، وذَلك بعد وفاة أبيه المتوكل بأربعة أيام ، واستَمرّ في الخلافة إلى أن تجرّد صحبة الملك الناصر فرج إلى البلاد الشّامية في أواخر سَنة أرْبع عشرة وثمانمائة ، ووَقع المصافّ بيْنَ الملك الناصر المذكور وبين الأمراء : الأمير شَيْخ المحمودىّ ، والأمير نَوْرُوز الحافظىّ ومن معهم ، وانكسرَ الناصِر وانحاز إلى دِمَشْق ، واستوْلى الأمرَاء على الخليفةِ هذا

واستفحل أمرهم ، وقدموا إلى دمشق وحَصَرُوا الناصر بها ، بعد أمورٍ ذكرناها مُفصّلةً فى أواخر ترجمة الملك النّاصر المذكور .

ثمّ اتفق الأمراء على إقامة الخليفة هذا فى السلطنة ، عِوضاً عن الملك الناصر فرَج المذكور ؛ لتجتمع الكلمةُ فى رجل واحد ، ويجدوا بذلك سبيلا لقتال الملك الناصر وانفلال الناس عنه ، وأرسلوا إليه فتح الله كاتبَ السرّ فكلّمهُ فى ذلك وهو على ظاهر دمشق ، والملكُ الناصرُ داخلها ، فأبى الخليفة المذكور أن يَقبل ذلك ، وَصمّمَ على عدم القبول ، فألحّ عليه فتحُ الله فى ذلك وتلطّفَ به ، فلم يزْدَد إلا تمنُّعاً ، كل ذلك خوفاً من الملك الناصر ، فلما رأى فتح الله شدّةَ تمنّعه ، وعدم موافقته ، رَجعَ إلى الأمراء وأعلمهم بذلك وقال لهم : لا يمكن قبوله أبداً ممّا رأيتُ من تمنّعه ، فاعملوا عليه حيلة حتى يقبل ، فدبّروا عليه حيلة من أنهم أرسلوا خلف أخيه لأمه الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطازىّ ، وأعطوه ورقةً تتضمنُ القدح فى الملك الناصر وفى تمداد أفعاله ومساوئه ، وندبوا ناصر الدين المذكور بعد أن أوعدوه بإمرة طبلخاناة ، ودواداريّة السّلطانِ حتى ركب فرساً منْ غير عِلم الخليفة ، وَنُودى أمامه : إن الخليفة قد خلع السلطان الملك الناصر من السلطنة ، ولا يحلُّ لأحدٍ متابعته ولا القيام بنصرته ، وقُرِئتِ الورقةُ على الناس .

وبلَغَ الخليفةَ المستعينَ بالله ذلك ، فقامتْ قيامتُه ، وعظُم عليه ذلك إلى الغاية ، وتحقّق عند ذلك أنّ الملكَ الناصرَ إذا ظفِر به لا يُبقِيه ، ودخل عليه فتحُ الله بعد ذلك ثانياً وكلّمه فى السّلْطنة ، فقبِلَ على شروطٍ عديدة شرَطها على الأمراء ، فقبِلُوا جميعَ الشروط ، وفرِح الأمراء بذلك وبايعوه بأجمعهم ، وقبّلوا يده ، وحلَفُوا له — على الطّاعة والوفاء — بالأيمان المغلّظة التى لا يمكن التّوْرية فيها .

ثمّ نَصبوا له كُرْسيًا خارج باب الدار تجاه جامع كَريم الدين[١] ، وجلس فوقه وعليه خِلْعةَ سوْداء خليفتيَّة ، أخذوها منَ الجامع المذكور من ثياب الخَطيب ، ووقفوا بين يديْه على مَرَاتِبهم ، الجميع ما عدا الأمير نَوْرُوز الحافِظِىّ ، فإنّه لم يقْدِر على الحضور لاشتغاله بحفظ الجهة التى هو فيها لِحصار الملكِ النَّاصر فرج ، غير أنّه يعْلم بالخبر ، وعنده منَ السُّرور لذلك مالاَ مزيد عليه .

ثمَّ قبَّلَت الأمراء الأرضَ بين يديه عَلَى العادة ، وكان ذلك فى آخر الساعة الخامسة من نهار السبت الخامس والعشرين من مُحرّم سنة خمس عشرة وثمانمائة ، والطّالع بُرْجُ الأسد .

وفى الحال ، عند تمام أمْرِه تقدَّم الأمير بَكْتَمُر جِلِّق فخلع عليه بنيابة دِمَشْقَ عوضاً عن دَمِرْداش المحمّدىّ ، فإنه كان الملكُ الناصرُ قد ولاَّهُ نيابة دِمَشْقَ — بعد كَسْرَتِهِ — عوضاً عن الوالِدِ — رحمه الله — بحكْمِ وفاته .

وخلع على سيِّدى الكبير قَرْقَماس — ابن أخى دَمِرْداش المذكور — باستِقْراره فى نيابة حَلب ، عوضاً عن الأمير شيخ المحمودىّ .

وخلع على سُودُون الجَلَب باستِقْرَارِه فى نيابة طَرَابُلُس عوضاً عن الأمير نَوْرُوز الحافظىّ .

ثمّ ركِب أميرُ المؤمنين وهو السّلطان ، وبين يدَيه جميع الأُمراء ، ونادَى منادٍ : إن الملكَ الناصر فرج بن بَرْقوق خُلِع منَ السّلطنة بالخليفةِ أميرِ المؤمنين المستعين بالله ، ولا يحِلُّ لأحد بعد ذلك مساعدته ولا القِيام بنُصرته ، ومَنْ حضر إلى الخليفة منْ جماعته فهو آمنٌ على نفسه ومالِه ، وقَدْ أمْهَلَكُمْ أميرُ المؤمنين فى المجىء إليه إلى يوم الخميس .

(١) هوجامع كريم الدين الخلاطى ، ويقع خارج المدينة من جهة باب السلامة (ابن شداد — الأعلاق الخطيرة ١٦٥ ط المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق) .

وسارَ أميرُ المؤمنين بعساكره إلى قَريب المصلّي[١] ، ثمّ عاد ونزَل بمكانه .

ثمّ أمَرَ فنودِيَ بذلك أيضاً فى الناحية الشَّرْقية منْ دِمَشْق ، وعند سَماع هذه المُناداة انحلّت أهلُ دِمَشْق عنِ الملكِ الناصر ، وخافوا عاقبة مُخالفةِ أمير المؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ثمّ كَتَب أميرُ المؤمنين إلى أُمراء مِصر باجتماع الـكلِمة على طاعته ، وأنّه خَلَع الملكَ الناصر منَ المُلك وتَسَلْطَن عِوَضه ، وأنّه أبطل المُـكُوسَ والمظالم منْ سائر أعماله ، وبعث بذلك على يَدِ الأمير كُزُل العجمىّ .

ثمّ مات الأميرُ سُكب الدّوادار الثانى من سَهْمٍ أصابه ، وكان مِمَّن خامر على الملكِ الناصر وأتَى الأمراء فى واقعة اللجّون .

ثمّ خلَع أميرُ المؤمنين عَلَى القاضى شهاب الدين أحمد الباعونىّ ، واستَقَرَّ به قاضِىَ قُضاة الشّافعية بالدّيار المصرية عِوَضاً عنْ قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البُلْقِينىّ ؛ بحكم تَخَلُّفِه بمدينة دِمَشْق عند الملك الناصر فرج ، هذا كُلُّه والقِتالُ عَمَّالٌ فى كل يوم ، والجراحات فاشيةٌ فى عَسْكر الأُمراء منْ عِظَمِ الرَّمْى عليهم من أسْوَارِ المدينة منَ الناصريّة .

وماتَ الأميرُ يَشْبُك [بن عبد الله] العثمانىّ [الظاهرى][٢] أيضاً خارج دِمَشْق منْ سَهْمٍ أصابه فى يوم الجمعة أوّل صفر ، وصَلَّى عليه الأميرُ شيخُ المحمودىّ .

وأمّا الملكُ الناصر، فهو مع هذا كلّه يفرِّق الأموال، ويَسْتَدْعى المُقاتِلة ويستحِثُّهم على نُصْرَته .

وخلَع على فخرِ الدين ماجد بن المزوّق ناظرِ الإسْطَبل باستِقْراره فى كتابة سِرّ مصر عِوَضاً عنْ فَتْح الله .

(١) المصلى : أى جامع المصلى ، ويقع قبلى دمشق من خارج محلة ميدان الحصا ، أنشأه العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فى شهور سنة ٦٠٦ هـ . (ابن شداد — الأعلاق الخطيرة ٨٦ ، ٨٧ ط المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق) .

(٢) له ترجمة فى المنهل الصافى للمؤلف (م ٣ : ٤٢٣) والإضافة عنه .

ثم ولّى الوزيرُ سعدَ الدين إبراهيم بن البَشيرىّ نَظر الخاصّ عوَضاً عن بدر الدين حسن بن نصرالله الفُوِّىّ ، وبينما هو فى ذلك وصلت إلى الملكِ الناصر أُمراء التُّرْكمان : قَرَا يُلُك وغيره من نُوّاب القِلاَع بسبب النَّجْدَة ، فنُودِىَ بعسكر أمير المؤمنين باستمداد العَوام لِقتال المذكورين ، فإنّهم مُقَدِّمةُ تَمُرْ لَنْك وجالِيشُه .

واجتمع الأُمراء والمماليك ، وحَلفوا بأَجْمعِهم يميناً مُغَلَّظاً لأمير المؤمنين بأنّهم يَلزَمون طاعتَه ، ويأتمرون بأمره ، وأنّهم رضوا بأنّه الحاكم عليهم ، وأنّه يَستَبِدُّ بالأُمور منْ غير مراجعةِ أحد ، وأنهم لا يُسَلْطِنُون أحداً غيره طول حياته .

ثمّ قَبَّل الجميعُ الأرضَ بين يديه ، وصار الجميع طَوْعاً لأميرِ المؤمنين المستعين بالله ، فمشى بذلك حالُهم على قتال الملكِ الناصر ، ولولا الخليفة ما انْتَظَم لهم أمرٌ ؛ لعظم مَيْلِ التُّرْكمان والعامّة للمَلكِ الناصر .

ثمّ توجّه فتحُ الله للأمير نَوْرُوز بدار الطُّعْم — حَيْث هو نازلٌ — فحلّفَهُ على ذلك ، وقبَّل الأرض لأميرِ المؤمنين ، وأظهر من الفرحِ والسرور مالاَ مَزيدَ عليه باسْتِبدَادِ الخليفة بالأمْر ، وقال : حينئذ اسْتقامَ الأمرُ ، وسَأل نَوْرُوز فتحَ الله المذكور أنْ يُقبِّل الأرض بين يدَى أميرِ المؤمنين نيابةً عنه ، وسأله فى أنْ ينفَرِد بالتَّدْبير ولا يُشاركهُ فيه الأميرُ شَيْخ ، ولا هو ولا غيرُه ، يريدُ بذلك كَفَّ الأميرِ شَيْخ عن التَّحَكُّم .

هذا والقِتالُ عَمّال فى كلِّ يوم ، وقراءةُ المَحْضَر الذى أثبَتوه على الملكِ النّاصِر على الشّامِيِّين ، وفيه قَوَادِحُ فى الدين تُوجبُ إراقةَ دمِهِ ، وشهدفى المَحْضر نحوخمسمائة نَفْس ، وثبَت ذلك على قاضى القضاة ناصر الدين بن العَدِيم الحنفىّ ، وحَكمَ بإراقة دمِهِ .

ثمّ بلَغ شيْخاً أنَّ الملكَ الناصرَ عزَم على إحراق ناحِية قصر حجّاج[1] حتى يصيرَ

---

(١) قصر حجاج . ويقع بظاهر دمشق عند باب الجابية ، وهو محلة كبيرة ينسب إلى حجاج بن عبد الملك ابن مروان (ياقوت — معجم البلدان ٤ : ١١٠) .

فضاء ، ثمّ يركب بنفسِه ويُوَاقِعُ القومَ هناك بمن يأتيه من التُّركمان وبمن عنده ، فبادر شيخٌ وركب بعد صلاة الجُمْعة بأمير المؤمنين ومعه العساكر ، وسار من طريق القُبَيْبات ونزل بأرض النابتية[١] ، وقاتل الملكَ الناصرَ فى ذلك اليوم أشدّ قتال إلى أنْ مضى منَ الليل جانب ، وكَثُر منَ الشّاميِّين الرَّمى بالنَّفْط عليهم ، فاحترق سوقُ خان[٢] السّلطان وما حولَه .

وحَمَلت السّلطانيّة على الشَّيْخيّة حملةً عظيمة هزَموهم فيها ، وتفرّقوا فِرَقاً ، وثبَت شيخٌ فى جماعة قليلة بعد ما كان انْهزَم هو أيضاً إلى قريب الشُّوَيكة[٣] . ثمّ تـكاثر الشَّيْخيّةُ وانْضَمّ عليهم جماعةٌ منَ الأُمراء ، فحَمَل شيخٌ بنفسه بهم حملةً واحدةً أخذ فيها القَنَوات ، ففرَّ مَنْ كان هناك منَ التُّركمان والرُّماة وغيرهم .

وكان الأتابك دِمُرْداش المحمّدىّ نازلاً عند باب الميدان تجاه القلعة ، فلمّا بلغه ذلك ركب وتوجَّه إلى الملكِ الناصر وهو جالسٌ تحْت القُبّة فوْق باب النَّصْر[٤] ، وسأله أنْ ينْدب معه طائفةً كبيرةً منَ المماليك السّلْطانيّة ؛ ليتَوَجّه بهم إلى قتالِ شَيْخٍ فإنّه قدْ وَصل إلى طرف القَنَوَات ، وسَهّل أخذَه على السّلطان ، فنادَى الملكُ الناصر لمنْ هناك منَ المماليك وغيرهم بالتّوَجُّه مع دِمُرْداش ، فلم يُجِبه منهم أحدٌ .

ثمّ كرَّر السّلطانُ عليهم الأمرَ غير مرّة حتى أجابه بعضُهم جواباً فيه جفاء

---

(١) النابتيه : اضطربت النسخ فى رسم هذه الكلمة «النابتية» بين «القابتية – والتابتية» ولم أعثر على تعريف بها فى صورها الثلاث فى المراجع الميسرة .

(٢) سوق خان السلطان : لعل المراد «السويقة» . وكانت قرب محلة قصر حجاج بينها وبين محلة القنوات (جان جوسيه – دمشق الشام ، الرسم رقم ٢٠) وتنطبق عليها الأحداث .

(٣) الشويكة : أرض ينسب إليها الرمان الشويكى ، وهى من محاسن الشام (أبو البقاء عبدالله المصرى نزهة الأنام فى محاسن الشام ٢١٤) .

(٤) باب النصر : ويسمى باب السرايا وباب الجنان وباب السعادة ، فتحه الملك الناصر من الجهة الغربية لسور دمشق ، وقد أزيل فى سنة ١٨٦٣ م . عند فتح سوق الحميدية (ج ١٢ : ٢٤٠ من هذا الكتاب ط دار الكتب) ، (ابن شداد – الأعلاق الخطيرة ٣٦) .

وخشونةُ ألْفاظٍ ، معناه أنّهم ملّوا من طولِ القتال ، وضجروا من شِدَّة الحِصار .

وبينما هم في ذلك ، إذ اخْتَبطَ العَسكرُ السّلطانيّ وكثُر الصُّراخُ فيهم بأنَّ الأمير نَوْرُوزاً قَدْ كَبَسَهُم ، فسارعوا بأَجْمِعِهم وعَبَرُوا من باب النَّصر إلى داخل مدينة دِمَشْق ، وتفرَّقوا في خرائبها بحَيْث إنّه لم يَبق بين يدَى السّلطان أحدٌ ، فوَلّى دَمُرْداش عائداً إلى مَوْضِعِه ، وقَدْ مَلَك شيخٌ وأصحابُه الميدانَ والإسطبل .

فبَعث دَمُرْداش إلى السّلطان مع بعض ثِقاتِه بأنَّ الأمْرَ قدْ فات ، وأنَّ أمْرَ العدوّ قَوِىّ ، وأمْرَ السّلطانِ أخذَ في إدْبار ، والرأىُ أنْ يَلْحَقَ السّلطانُ بحَلَب ما دامَ في الأمر نَفَسٌ .

فلمَّا سَمِع الملكُ الناصرُ ذلك قام من مَجْلِسه وترك الشَّمْعة تَقِدُ حتى لا يَقعَ الطّمعُ فيه بأنّه وَلّى ، ويُوهِم الناسَ أنّه ثابتٌ مقيمٌ على القِتال .

ثمّ دخل إلى حرَمِه وجهَّزَ مالَه ، وأطال في تعبِئة مالِه وقُماشِه ، فلم يخْرُج حتى مَضَى أكْثَرُ الليل ، والأتابكُ دَمُرْداش واقفٌ ينْتظِرُه ، فلمّا رأى دَمُرْداشُ أنّ الملكَ الناصِرَ لا يُوَافقُه على الخروج إلى حَلَب ، خرج هو بخواصّه ونَجا بنفسه ، وسار إلى حَلَبَ وترك السُّلْطان .

ثمّ خَامَرَ الأميرُ سُنْقُر الرّوميّ عَلَى الملكِ الناصر ، وأتَى أميرَ المؤمنين وبطَّلَ طُبولَ السّلطان والرّماة .

ثمّ خرجَ الملكُ الناصر من حرَمِه بماله ، وأمر غِلْمانَه فحَملت الأموالَ على البِغال ليَسير بهم إلى حَلَب ، فعارضه الأميرُ أرْغُون منْ بَشْبُغا الأميرُ آخور الكبير وغيرُه ، ورغَّبوه في الإقامة بدِمَشْق ، وقالُوا له : الجماعةُ مَماليكُ أبيكَ لا يُوَصِّلُون إليكَ سُوءاً أبداً ، ولاَ زَالُوا به حتى طَلَع الفجر ، فعِند ذلك رِكب الملكُ الناصرُ بهم ، ودار على سورِ المدِينة فلَم يجِد أحداً ممّن كان أعَدَّهُ للرّمْي ، فعادَ ووَقف على فرسِه

ساعةً ، ثمَّ طَلَع إلى القلعة والتَجَأَ بها بمن معَه — وقد أشْحَنَها — وترك مدينة دِمَشْق ، وبَلَغ أميرَ المؤمنين والأُمراء ذلك ، فركِب شيخٌ بمنْ معه إلى باب النصر ، وركِب نَوْرُوز بمنْ معه إلى نحو باب تُوما(١) ، ونصَبَ شيخٌ السَّلَالم حتى طلَع بعضُ أصحابه ، ونزل إلى مدينة دِمَشْق وفتَح باب النصر ، وأحرَق باب الجابِيَة(٢) ، ودخل شيخٌ من باب النصر ، وأخذَ مدينةَ دِمَشْق ، ونزل بدارِ السَّعادة ، وذلك فى يوم السبت تاسع صَفَر ، بعد ما قَاتل الملك الناصر نحو العشرين يوما ، قُتل فيها من الطائفتين خَلَائقُ لا تُحْصَى ، ووقَع النَّهْبُ فى أموال السّلطان وعساكره ، وآمتَدّت أيدى الشَّيخيّة وغيرهم إلى النّهب ، فَمَا عَفُّوا وَلا كفّوا .

وركبَ أميرُ المؤمنين ونزلَ بدارٍ فى طرف ظَواهِر دِمَشْق ، وتحوّل شيخٌ إلى الإسطبل ، وأنزَل الأمير بَكْتَمُر جِلّق بدار السَّعَادة ، كونه قَدْ وُلّى نيابة دِمَشْق قبلَ تَاريخه .

هذا والسّلْطَانيّة ترْمى عليهم من أعلى القلعة بالسّهَام والنّفوط يومهم كلّه ، وباتوا ليلةَ الأحدِ على ذلك ، فلمّا كانَ يومُ الأحدِ عاشر صفر المذكور بعث الملِكُ النّاصر بالأمير أَسَنْدَمُر أمير آخور فى الصلح ، وتردّد بينهم غيرَ مَرّة حتى انعقد الصلحُ بينهم ، وحَلف الأُمراء جميعهم وكُتبت نسخة اليمين ، ووضعوا خطوطهم فى النّسخة المذكورة ، وكتب أميرُ المؤمنين أيضاً خطه فيها ، وصعدَ بها أَسَنْدَمُر المذكور إلى القلعة ومعه الأمير نَاصِرُ الدين محمد بن مبَارك شَاه

(١) باب توما : من أبواب دمشق ، وسمى باسم توما الرومى ، وكان به كنيسة باسمه ، وانظر (ج ٦ : ١٥١ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

(٢) باب الجابية : هو الباب السابع من أبواب دمشق وينسب إلى قرية الجابية وانظر (ج ٧ : ٢٨٧ من هذا الكتاب ط دار الكتب) .

الطّازىّ — أخو الخليفة المستعين بالله لأمه — ودَخلا على الملك النّاصِر وكلّماه فى ذلِك ، وطَالَ الـكلامُ بينهم فلم يُعجب الملكَ النّاصِر ذلك .

وَتردّدت الرّســلُ بينهم غير مرّة بغير طائل ، وأمرَ الملكُ النّاصِر أصحابَه بالرّمى عليهم ، فعاَد الرّمى من أعلى القلْعة بالمدَافع والسّهام ، وركب الأمَراء واحتاطوا بالقلعة ، فأرسَل الملكُ النّاصرُ يسأل بالـكفِّ عنه ، فضاَيَقُوا القَلعةَ خَشيَة أنْ يفرّ السّلطانُ منها إلى جِهة حَلب ، ومشَت الرسُل أيضاً بينهم ثانياً ، وأضرّ الملكَ النّاصرَ التّضييقُ والغَلبةُ إلى أن أذعن إلى الصلح ، وحلفوا له ألاّ يوصِّلوا إليهِ مكرُوهاً ، ويؤمِّنُوهُ على نَفســِهِ ، وأن يستمرّ الخليفةُ سُلطاناً ، وقيلَ غيرُ ذلك : إنَّه يَنزلُ إليهم ويتشاور الأمراء فيمن يكون سُلطَاناً ، فإنْ طلبَهُ المماليكُ فهو سُلطانٌ على حالهِ ، وإن لم يطلبُوه فيكونُ الخليفةُ ، ويكون هُو مخلوعاً يَسكنُ بَعض الثغور مُحتفظاً به .

ومحصولُ الحـكاية أنّه نزل إليهم فى ليلةِ الإثنين حادى عَشر صَفر ، ومعَهُ أوْلادُه يحملهم ويُحمَلون معه ، وهُو ماشٍ من باب القلعةِ إلى الإسطبل والنّاسُ تنظرُه ، وكان الأميرُ شيخٌ نازلاً بالإسطبل المذكور ، فعنْد ما عاينهُ شيْخٌ قامَ إليه وتلقّاهُ وقبل الأرض بيْنَ يديْهُ ، وأجلسه بِصدر المجلس ، وجَلس بالبُعْد عنْهُ وسكَّنَ رَوْعه ، ثمّ تركَهُ بعد ساعةٍ وانصرَفَ عنهُ ، فأقام الملكُ النّاصِرُ بمكانه إلى يوم الثلاثاء ثانى صفر .

فجُمِع الأُمراء والفقهَاء والعلماء المصريّون والشّاميّون بدار السعادة بين يدى أمير المؤمنين — وقدْ تحوّل إليها وسكنها — وتكلموا فى أمر الملك النّاصر

والمحضَر المكتَّب[١] فى حقه ، فأفتوْا بإراقة دمه شرْعاً .

فأخذَ فى ليلة الأربعَاء مِنَ الإسطبل ، وطُلع به إلى قلعة دمشق ، وحبسوهُ بِها فى موضع وحْدَه ، وقد ضُيِّق عليه وأُفردَ من خَدمه ، فأقَام على ذلك إلى ليلة السَّبت سَادس عشر صفَر ، وقُتل حسبما ذكرْناهُ فى أواخر ترْجمته مُفصلاً ، بعد اختلافٍ كبير وقَع فى أمره بين الأمراء .

فكان رأيُ شيخ إبقاءهُ محبُوساً بثغر الإسكندرية ، وإرساله إليها مع الأمير طُوغان الحسنىّ الدَّوادار ، وكان رأىُ نَوْرُوز قتله ، وقَام نَوْرُوز وبكتمر جِلِّق فى قتله قياماً بذلاً فيهِ جهدهُما .

وكان الأميرُ يَشْبُك بن أزْدَمُر أيضاً ممن امتنع من قتله ، وشنَّع ذلك على نَوْرُوز ، وأشارَ عليهِ ببقائه ، واحتجّ بالأيمان التى حُلفت له ، واختلفَ القوْمُ فى ذَلكَ ، فقَوِى أمرُ نوْروز وبَكْتَمُر بالخليفة المستعين بالله ، فإنهُ كان أيضاً اجتهد هو وفتحُ الله كاتب السرّ فى قتلهِ ، وحمَلا القضاةَ والفقهاء على الكتابة بإرَاقةِ دَمه بعد أنْ توَقّفُوا عن ذلك ، حتى تجرّد قاضى القضاة نَاصرُ الدين محمد بن العديم الحنفىّ لذلكَ ، وكافح مَنْ خَالفه من الفقَهاء بعدم قتلهِ بقوّة الخليفةِ ونَوْرُوز وبَكْتَمُر وفتح الله ، ثمَّ أشهد على نفسهِ أنه حَكم بِقتله شَرْعا ، فأمضى قوْلهُ وقتل .

وكان قصدُ شَيخ إبقَاءه يخوِّف بهِ نَوْرُوزاً إن حَصل مخالفة ، وأيْضاً وقفَ على يمينه وخَاف سوء عاقبة الأيْمَان والعهُود ، وأيضاً لمـَا سبَق لوالدِه عليهِ مِنَ الحقوق السّالفة ، وقال : هو — يعنى الملك النّاصر — قد ظَفِرَ بنا وأبقانا غير مرّة . ونحنُ مماليكه ، فكيف نحنُ نظفرُ به مرّة واحدةً نقتله فيهَا ، ويشَاع ذلك عند ملوك الأقطَار ، فيقبّحُ ذلك علينَا إلى الغَاية !

(١) يشير المؤلف بهذا التعبير إلى أن المحضر لم يكتبه الخليفة وإنما دس عليه ونسب إليه بتدبير ممن حوله .

قلتُ : ولذلكَ ملّكهُ اللهُ على المسلمين . وحكمهُ فيمن خالفهُ فى ذلك حتى أفناهم علَى السيف فى أسرعَ وقتٍ وأقلِّ مدة ﴿ وَمَا رَبُّكَ بظَلَّامٍ لِلْعبِيد ﴾[١] — انتهى .

وبعد أنْ قُتِلَ الملكُ الناصر ، مشَتِ الأحوال ، وأمِنَ الناسُ ، ونُودِىَ فيهم بالأمان .

واتَّفق الحالُ على أنَّ الأميرَ شيخاً ونَوْرُوزاً يسيران إلى مصر صُحبةَ أميرِ المؤمنين المُسْتعين بالله ، ويكونان فى خدمته ، وأنْ يكون الأميرُ شَيخٌ أميراً كبيراً أتابكَ العساكر بالديار المصرية ، ويكون نَوْرُوز أتابكَ رأس نَوْبة الأمراء ، ويكون إقطاعُهم بالسّويّة ، وأنْ يَسْكُنَ شيخٌ باب السّلْسِلَة ، ويَسكن نَوْرُوز بيتَ قَوْصون تجاه باب السّلْسِلَة بالرُّمَيْلَة .

وكَتَبَ نَوْرُوز إلى القاهرة بتَجْدِيدِ عِمارة البيْتِ المذكور ، وأنْ يُضْرَب عليه رنك[٢] نَوْرُوز .

وصارَ نَوْرُوز يَرْكبُ من دارِه إلى تحتِ قلعة دِمَشْق ، فيَرْكب شيخٌ أيضاً منَ الإسطبل حيث هو نازلٌ ويخرج إليه ، ويسيران تحت قلعةِ دِمَشْق بمَوْكِبِهما ومعهما سائر الأمراء ، ثمّ يَدْخلان إلى دارِ السّعادة إلى خِدْمة أميرِ المؤمنين ، فيجلسُ شيخٌ عن يمينه ويجلسُ نَوْرُوز عن يساره ، ويقفُ طُوغانُ الحسنىّ الدّوادار على عادته ، ويقعُدُ الأُمراء بمنازلهم يميناً وشمالاً على عادة المَوْكب السّلطانىّ ويقف [ناظر][٣]

---

(١) آية ٤٦ من سورة فصلت .

(٢) الرنك : الكلمة فارسية تعنى اللون ، واستعملت لدى المؤرخين بمعنى الشعار الذى يتخذه السلطان أو الأمير لنفسه عند تنصيبه أميراً ، ويرسم الرنك على باب بيته وعلى كافة أمتعته وآلاته الحربية . عن (صبح الأعشى — القلقشندى ٤ : ٦١ — ٦٢) .

(٣) زيادة على الأصل وتتفق مع ما جاء فى (صبح الأعشى ٤ : ٤١) . بشأن هيئة جلوس السلطان ، وما جاء فى (زبدة كشف الممالك لغرس الدين ٨٧ ط باريس) من أن ناظر الجيش يقف ويقرأ ما يتعلق بالإقطاعات على المسامع الشريفة .

الجيش ، ثمّ يَقرأُ كاتبُ السِّرّ القصصَ ويُمَدُّ السِّماطُ ، ثمّ ينفضُّ الموْكِب .

كلّ ذلك وشيخٌ ونَوْرُوز قلوبُهما متنافرةٌ بعضُها من بعض ، والناسُ يترقّبون وُقوعَ فتنةٍ بينهما ، إلى أنْ خدَعَ شيخٌ نَوْرُوزاً بأنْ قال له : أنا قصْدِى أنْ أكون بدِمَشْق ، ويضاف إلىَّ منَ العَريش إلى الفُرات ، وأنت تتوجّه مع الخليفةِ أتابَكاً بالديار المصرية ومعَك الأمير بَكْتَمُر جِلّق وغيرُه منَ الأُمراء .

ولَمْ يَكُن لقَوْلِه حقيقة ، غيْر أنّه قَصد بذلك حِيلةً على نَوْرُوز ، فيقولُ نَوْرُوز أنتَ تتوجّه إلى مِصر ، وأنا أكونُ نائب الشّام ، وكان ذلك على ما سنذْكُرُه .

فاستَشار نَوْرُوز أصْحابَه فى ذلك فقالوا له بأجمعهم : الرأىُ والمصلحةُ توَجُّهُكَ إلى الديار المصرية ولو كُنْتَ من جُملةِ مقدّمى الأُلُوف بها ، لا سِيّما تكونُ أتابَكَ العساكر ومالِكَ زِمام مصر ، فقال لهم : إنْ أقام شيخٌ بالبلاد الشّامية — مع سِعةِ تحكّمه فى البلاد — يصيرُ له شَوْكةٌ عظيمة ويتْعِبُنِى فيما بعد ، ولو كان فى مصر خيرٌ ما تركها هوَ وأرادَ نيابة الشأم ، والمصلَحةُ توجهُهُ إلى مصر وأكونُ أنا حاكِمَ البلاد الشامية من العريش إلى الفُرات ، فراجعوه فى ذلك فأبَى إلاّ ما أراد .

وأصْبح لَمّا حضر الخدمة بين يَدَى الخليفةِ على العادة فى يوم الإثنين خامس عشرين صفر من سنة خمس عشرة وثمانمائة فاتحَهُ الأميرُ شيخٌ فى ذلك ، فبادَرهُ الأميرُ نَوْرُوز : أنت تتوجّهُ إلى مِصر ، وأنا أكونُ نائباً بدِمَشْق .

فخَلَع عليه أميرُ المؤمنين فى الحالِ باستِقْرارِه فى نيابة الشام كلّه ، وأن يُوَلِّىَ بجميع البلاد مَنْ شاء من أصحابه .

وانفضَّ الموْكبُ وقد نال الأميرُ شيخٌ غَرَضَه ، وانْفرد بتدبيرِ المملكةِ وحدَه من غيرِ شريك ، وكان ظنُّ الأميرِ نَوْرُوز أنَّ شيخاً لا يَستقِيمُ له أمرٌ مع

بَكْتَمُر جِلَّق ، ويَلْبُغَا الناصرىّ نائب الغَيْبة بمصر ، وطُوغان الحسنىّ الدّوادار ، وسيِّدى الكبير قَرْقَمَاس ، وأنَّ الذى يَبقى معه منَ الأُمراء بالبلاد الشامية جميعُهم فى طاَعته ، مثل يَشْبُك بن أَزْدَمُر ، وطُوخ ، وقِمِش وغيرهم ، فجاء حسابُ الدَّهْرِ بخلافِ ما ظَنّ .

ثُمَّ فوّض أميرُ المؤمنين إلى الأمير نَوْرُوز كفاَلة الشّام جميعه : دِمَشْق، وحَلَب، وطَرَابُلُس ، وحَماَة ، وصفَد ، وغزّة ، وجعل له أنْ يُعيِّن الأمرياّت والإقطاعات لِمَنْ يُريدُه ويختارُه ، وأنْ يُوَلِّىَ نوّابَ القِلاع الشّاميّة والسّواحل وغيرها لمنْ أرادَ من غيرِ مُراجعةٍ فى ذلك ، غيرَ أنه يُطالعُ الخليفة بمنْ يَسْتقِرُّ به فى شىءٍ من ذلك ليجهِّز إليه تشريفاً .

وعَزَل بَكْتَمُر جِلَّق عن نيابة دِمَشْق بعد أنْ حَكَمَها نحو الشّهرين عن الخليفة ، ورسم له أنْ يتوجَّه أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية على أحسن الإقطاعات .

ثمّ خلَع الخليفةُ على مُوَقِّع الأمير نَوْرُوز ناصرِ الدين محمد بن محمد البَصْروِىّ باسْتِقْرارِهِ كاتب سِرّ دِمَشْق ، عِوضاً عن صدر الدين علىّ بن الأَدَمِىّ .

ثمّ خلع الخليفةُ على قاضى القضاة جلالِ الدين عبد الرحمن البُلْقينىّ بإعادته إلى قضاء الشّافعية بالديار المصرية ، عِوضاً عن الباعُونِىّ الذى كان وَلاّهُ الملكُ الناصر ، فكانت ولايةُ الباعونىّ نحو الشهرين ، ولم يدخل فيها القاهرة .

ثمّ كتَب الخليفةُ إلى البلاد الشامية وغيرِها من التركُمان والعُرْبان والعَشِير ، وجَعَل افْتِتاح الكُتُب « منْ عبد الله وَوَليِّه ، الإمام المستعين بالله ، وخليفةِ ربّ العالمين ، وابنِ عمّ سيد المرْسلين ، المفْترَض طاعتُه على الخَلْق أجمعين ، أعزّ اللهُ ببقائه الدين » .

ثمّ كتَب الخليفةُ إلى الديار المصرية بإطلاق الأُمراء المسجونين بالإسكندرية ،

وأنّ الأميرَ أَسَنْبغَا الزَّرد كاش يُسلِّم قلعة الجبل إلى الأمير يَلبُغَا الناصرىّ ، ففعل أَسَنْبغَا الزَّرد كاش ذلك ، وقدِم الأُمراء من سجن الإسكندرية إلى القاهرة وهم : إينال الصّصلانى ، وسُودون الأَسَنْدَمُرِىّ الأميرُ آخور الثانى ، وكُمُشْبغَا الفيسىّ ، وجانِبك الصّوفىّ ، وتاجُ الدين عبد الرزّاق بن الهَيْصَم الأستادار .

ثمّ تَهيَّأ أمير المؤمنين وخرج معه الأميرُ شيخٌ وجميع العساكر من دِمَشق ، فى يوم السبت ثامن شهر ربيع الأوّل ، نحو الديار المصرية .

ثمّ خرج بعدهم نَوْرُوز فى سادس عَشْره إلى حَلب لِيُمهِّد أُمورها .

ثمّ رَسَم الأمير نَوْرُوز أنْ يُضرب بدِمَشق دَراهِمُ نصفُها فضّةٌ ونصفُها نُحاسٌ ، فضربت وتعامل الناس بها .

وسار أميرُ المؤمنين بعساكره حتّى دخل إلى الدّيار المِصريّة فى يوم الثلاثاء ثانى شهر ربيع الآخر ، وطلَع إلى القلْعة بعد ما شقّ القاهرة ، وخرج من باب زويلة إلى الصليبة إلى القلعة ، وقد زُيِّنَتْ القاهِرةُ أَحْسَنَ زينة ، فنزَلَ الخليفةُ بالقصر من قلْعَة الجبل على عادةِ السّلاطين ، ونزلَ الأميرُ شيخ بباب السلسلة من الإسطَبْل السّلطانىّ ، ولم يَخْلَع الخليفةُ علَى أَحَدٍ على جَارِى العوائِد ، وكانَ الأميرَ شيخُ يظنّ أنّ الخليفةَ يتوجَّهُ إلى دارِه بالقُرْبِ مِنَ المَشْهد النَفيسىُّ على عادَتِه أوّلاً ، فلما طَلَعَ إلى القَلْعَة ، تحققَ الأميرُ شيخ منهُ أنّه يريدُ أن يسيرَ على طريق السلاطين ويترُكَ طريقَ الخلفاء ، فأخَذَ شيخٌ يكيدُه بأشياء ، منها : أنّه صارَ يبطّل المواكبَ السّلطانيّة ويعمَلُ الموكِبَ عنده ، ويعتذر عن ذلك بأنّ القَوْم عقيبَ سَفَرٍ وتعبٍ ليس لهم طاقة على لزُومِ المواكب الآن إلى أنْ يَجِدُوا فى نُفُوسِهم قوةً ونشاطا ، وصارَ تِرْدَادُ جميع أربابِ الدّولةِ إلى باب الأميرِ شَيْخٍ ، فاتّضَحَ أمْرُ الخليفة .

ثُمَّ أمسكَ الأميرُ شيخُ الأميرَ أسَنْبُغا الزَّردكَاش ، واستَفْتى فى قَتْلِهِ ، لِقَتْلِه الأميرَ قانِى باى فى غيبةِ الملكِ النَّاصر ، فأفتوا بقتلِهِ وحكمُوا به ، ثمَّ أمسكَ الأميرُ شيخُ حطط البَـكْلَمَشِى ، وصَرْغَتْمُش القَلَمْطَاوِىّ ، وهما من أُمراء العَشَرات من خَوَاصّ الملكِ الناصر ، ثمّ قبضَ على الأمير أَرْغُون من بَشْبُغَا الأمير آخور الـكبير ، وعلى الأمير سُودُون الأَسَنْدَمُرِىّ ، وعلى كُمُشْبُغَا الفِيسِىّ ، وكانا قدما مِن سجن الإسكندرية بمدّة أيام — حسبما تقدّم ذكره — ونَفَى كُمُشْبُغَا الفيسىّ إلى دمياط .

ثمّ خَلَعَ الأميرُ شيخُ على الأمير خليل التّبْرِيزِىّ الدّشارىّ باستِقْرَارِه فى نيابة الإسكندرية عوضا عن قُطْلُوبُغَا الخليلىّ بعد موته .

ثمّ فى ثامن شهر ربيع الآخر ، عمل الأمير شيخُ المَوْكِبَ عند الخليفة بالقَصْرِ السّلطانىّ على العادَة ، وحضرَ شيخُ هو وسائرُ الأُمراء الموكِب ، وخَلَع الخليفةُ على الأمير شيخ باستِقْرارِه أتَابَكَ العساكر بالدّيار المِصْرِيّة ، وكانت شَاغِرَةً منذُ قُبِض على الملكِ الناصر ، وفرَّ الأَتَابَك دَمُرْدَاش المحمّدىّ إلى حلَب ، ثمّ فَوَّض الخليفةُ إلى شيخٍ جميعَ الأُمور ، وأنهُ يُوَلِّى ويَعْزِلُ من غير مُرَاجَعَةٍ ، وأشهدَ عليهِ بذلك بعد أن تَوَقَّفَ الخليفةُ عن ذلك أياماً حتى أَذْعَن على رَغْمِهِ .

ثمّ خلعَ الخليفةُ على الأمير شاهِين الأَفْرَم على عادتِهِ أميرَ سلاح ، وعلى يَلْبُغَا الناصرىّ باستقْرَارِهِ أميرَ مجلس ، وعلى الأمير إينَال الصصلانى باستِقْرَارِهِ حاجِب الحُجَّاب عوضاً عن يَلْبُغَا الناصرىّ ، وعلى سُودُون الأشقر باستِقْرَارِهِ رأسَ نوبة النّوب عوضاً عن سُنْقُر الرُّومىّ ، وعلى الأمير أُلْطُنْبُغَا العثمانىّ بنيابة غَزَّة عوضاً عن سُودُون من عبدِ الرحمن ، ونزلَ الجميعُ فى خِدْمَةِ الأميرِ شيخ ، ثمّ توجهوا إلى دُورِهم .

ثم فى تاسعِهِ عَرَضَ الأميرُ شيخُ المَمَالِيك السّلطانيّة ، وفرَّقَ عليهم الإقْطاعَات الشّاغِرَة عن الناصرية بحَسَب ما يختارُه ، وأنعمَ على جماعةٍ من مماليكه بإمريّات : ما بين طَبْلَخَانَات وعشَرَات .

ثمّ خلعَ الأميرُ شيخٌ على دواداره جَقْمَقْ الأَرْغُون شَاوِيّ وٱستقرَّ به دوادار الخليفة ؛ حتى لا يتمكنَ الخليفةُ من شيءٍ يعملُه ، وكان دواداره قبل ذلك أخوه ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطازىّ بإمْرَة طبلخاناة ، فصار جَقْمَق كالدّوادار الثانى له ، وفى الحقيقة ترْسِيماً عليه ، فعندَ ذلك صارَ للخليفة الاسمُ فى السّلطنة لا غير ، وما عدا ذلك متعلقٌ بالأمير شيخ ، وصارَ الخليفةُ مُسْتَوْحِشاً بعيالِهِ فى تلكَ القصورِ الواسعة بقلعة الجَبَل ، وضاقَ صدرُه من عدم ترْدَادِ الناس إليه ، وندمَ على دخولِهِ فى هذا الأمر حيث لا ينفعه النّدَم ، وصار لا يمكنه الكلامُ لِعَدَمِ من يقوم بنُصْرَتِهِ من الأُمراء وغيرهم ، فسكتَ على مضَض .

ثم إنّ الأميرَ شيخاً خلعَ على الأميرِ قَانِى باى المحمّدى ، وعلى الأمير سُودُون من عبد الرحمن — المعزول عن نيابة غَزّة — خِلَعَ الرِّضى من غير وظيفة ، ثمّ خلعَ على سعدِ الدين إبراهيم بن البشيرىّ باسْتِقْرَارِهِ وزيراً على عادته ، وخَلَعَ على بدر الدين حسَن بن نصر الله الفوّى باستقرارِهِ فى نظر الجيشِ على عادَتِهِ ، وخَلَعَ على تقِيّ الدين عبد الوهاب بن أبى شاكر باسْتِقْرَارِهِ ناظرَ الخاصّ على عادته ، ثمّ خلعَ على التّاج بن سِيفَا الشّوبَكِيّ القَازَانِيّ باسْتِقْرَارِهِ والى القاهرة عوضاً عن أرْسَلَان ، فعُدّ ذلك من أول سيئات الأميرِ شيخ ، وعَظُمَ ذلك على أعيان الدّولة لعدم أهْلِيّة التّاج المذكور لذلك ، ثمّ فى ثامن شهر ربيع الآخر المذكور أخْرَجَ الأميرُ شيخ عدة بلادٍ من أوقاف الملكِ النّاصر فرج الموقوفة المحبسة ، منها قرية مُنْبَابَة بالجيزة تجاه بولاق ، وكان أوقَفَهَا الملكُ الناصرُ على التّرْبة الظّاهرِيّة ، وناحية دَنْديل[1] ، وكانت أيضاً [موقوفة[2]] على التّربة المذكورة ، وأخرجَ عدة رِزَقٍ كثيرةٍ ، [وهى][3] التى كانَ الناصرُ أخرجها وأوقفها فى سلطنته .

---

(١) دنديل : من قرى مصر فى كورة البوصيرية (ياقوت — معجم البلدان : ٤٧٨ ط بيروت) .

(٢ ، ٣) إضافة يقتضيها السياق .

ثمّ فى تاسع عَشْرِهِ خلعَ الأتابكُ شيخٌ على القضاة الأربعة باستمرارهم ، وخلعَ على بَدْرِ الدين حسن بن مُحِبّ الدين الطَّرَابُلُسِىّ أستادار الأمير شيخ باستقرارِهِ أستادار العالية ، فنزلَ ابنُ مُحِبّ الدين إلى دارهِ وجميعُ أرباب الدولة فى خدمتهِ .

ثمّ فى ثانى عشرينه استقرّ شهابُ الدين أحمدُ الصَّفَدِىُّ مُوَقِّعُ الأمير شيخ فى نظرِ البِيمَارِسْتَان المَنْصُورِىّ عوضاً عن كاتب السرّ فتح الله ، ومعها نظرُ الأَحْبَاس عوضاً عن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله ، وخَلعَ على القاضى ناصرِ الدين محمّد ابن البارِزِىّ باستقرارهِ موقّع الأمير الكبير شيخ عوضاً عن الشّهاب الصّفَدِىّ المُقدّم ذكره .

وأما الأميرُ نَوْرُوزٌ الحافظىّ ، فإنه استولى على حَلَبَ ، وهربَ منها الأميرُ دَمُرْدَاش المحمّدىّ ، وخَلعَ على يَشْبُك بن أَرْدَمُر بنيابتها ، وخلعَ على الأمير طُوخ بنيابة طَرَابُلُس ، وفرّق الإقطاعات والإمْرِيّات على أصحابه ومماليكه كيف يختارُ من غير مُعانِدْ ، غير أنه ندم على قُعَادِهِ بالبلاد الشامية غايةَ الندمِ فى الباطنِ لا سيما لمّا بلغهُ من أمرِ شيخ وعظمتهِ بمصر ما بلغَهُ .

ثم فى يوم الخميس سادس عشر جمادى الأُولى ، قُرِئ تَقْلِيدُ الأمير الكبير شيخ نظاَم المُلْك بأن الخليفةَ فَوّض إليه ما وراء سَرِير الخلافة ، فعند ذلك جلس الأتابكُ شيخٌ بالحرّاقة من الإسْطَبْل السلطانىّ وبين يديه القُضاةُ وأرْباب الدولة من أعيان الأُمراء والمباشرين وغيرهم ، وقرَأَ كاتبُ السّرِّ عليه القِصَص كما يَقْرَؤُها بين يدى السّلطان ، وتَلاشى أمْرُ الخليفة حتى صار كعادته أيام خلافته ، غير أنه فى التّرْسِيم مَحْجوب عمّا يُرِيدُه .

ثُمّ فى رابع عشرين جُمادَى الأُولى المذكورة استقرّ القاضى صدر الدين علىّ ابن الأدَمِىّ قاضى قضاة الحنفيّة بالديار المصرية بعد عزل قاضى القضاة ناصر الدين محمد ابن العديم عنها ، ثم أرسل الأتابك شيخٌ دواداره الأميرَ جَقْمَق الأرغون شاوِىّ إلى

البلاد الشّامية ومعه تقاليدُ النُّوَّاب الخليفتيّةُ باستمرارهم على عادتهم بما قرر الأمير نَوْرُوز بِرِضاه .

ثم فى يوم الخميس ثامن جُمَادَى الآخرة ، مات الأمير بَكْتَمُر جلّق من مرض تمادَى به نحو الشهرين ؛ أصله من عَقرب لَسَعَتْه وهو قادم صحبة الخليفة والعساكر إلى الدِّيار المصرية بالرَّمل ، فاشتد ألمه منها وأخذته الحُمَّى ، ثم خرج من سيّئ إلى سيّئ إلى أن مات ، فنزل الأتابكُ شيخ راكبا وجميعُ الأُمراء الخاصّكيّة مُشاة حتى صَلّى عليه بمصلّاة المؤمِنى من تحت القلعة ، وعاد إلى باب السلسلة مِنْ غير أن يشهد دَفْنَه ، وهو فى غاية السّرور ، وقد صفا له الوقتُ بموت بَكْتَمُر المذكور ، فإنّه كانَ عليه أشد من نَوْرُوز ، وصَرَّح شيخ بعد موته بما كان يَسْتَكْتِمه من الوُثُوب على الأمراء ، وخَلا له الجوّ ، ولمَّا بلغ نَوْرُوزاً موتُه كاد أن يهلك ، وعَلِم بما سيكون من أمر شيخ .

ثم استقر القاضى ناصر الدين بن البارزىّ مُوَقِّع الأتَابَك شيخ بقراءة القصص على مخدومه الأَتَابَك شيخ ، فانحطّ بذلك قدرُ فتح الدين فتح الله كاتب السر ، وصار فى وظيفته كالمعزُول عنها ، وقَلَّ تِرْدَادُ الناس إليه ، وكثر تِرْدَادُهم إلى باب القاضى ناصرالدين بن البارزىّ لقضاء حَوَائجهم .

ولما عَظُمَ أمْرُ الأَتَابَك شيخ بعد موت بَكْتَمُر ، ورأى أن الجوّ قد خَلاَ له وما ثَمَّ مانع من سَلْطنَتِه طلب الأُمراء وكَلَّمَهم فى ذلك ، فأجاب الجميع بالسَّمْع والطَّاعة ـ طَوْعاً وكَرْها ـ واتفقوا عَلى سَلْطنَته .

فلما كان يومُ الإثنين مستهل شعبان ، وعُمِل المَوْكبُ عِنده على عادته بالإسطبل السلطانىّ ، واجتمع القضاة الأربعة قام فتح الله كاتبُ السر على قَدَمَيْه فى الملأ وقال لِمَنْ حضر : إن الأحْوَال ضائقة ولم يعهد أهل نواحى مصر اسم خليفة ، ولا تستقيم الأمور إلا بأن يقوم سُلْطَانٌ على العادة ، ودعاهم إلى الأَتَابَك شيخ المحمودىّ ، فقال شيخٌ المذكور : هذا لا يَتِمّ إلا برضاء الجماعة ، فقال مَن حضر بلسان واحد : نحن راضون بالأمير الكبير ، فمَدّ قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البُلْقينيّ يده

وبايعه ، فلم يختلف عليه اثنان ، وخُلِع الخليفة المُسْتَعِين بالله العبّاس منَ السلطنة بغير رضاه .

وبعد سلطنة الملك المؤيد شيخ وجُلُوسِه على كُرْسِي المُلْكِ ـ حَسْبَمَا يَأْتى ذِكْرُه بعد أن نذكر بقية ترجمة العباس هذا — بَعَثَ إليه القُضاة ليسلّموا عليه ، ويُشْهِدوا عليه أنه فوّض إلى الأمير شيخ السلطنة على العادة ، فَدَخَلُوا إليه وكَلَّمُوه فى ذلك ، فتَوَقَّفَ فى الإشهاد عَلَيه بتفويض السلطنة تَوَقُّفاً كبيرا ، ثُمَّ اشْتَرَطَ فى أن يؤذَنَ له فى النُّزُول مِنَ القَلْعَة إلى دَاره ، وأَنْ يَحْلف له السلطانُ بأنَّه يُنَاصِحهُ سِرّا وجَهْراً ، ويكون سِلْماً لِمَنْ سالَمَه وحَرْباً لِمَنْ حاربه ، فعاد القضاة إلى السلطان وردّوا الخبَرَ عليه ، وحَسَّنوا له العبارة فى القول ، فأجاب : يُمَهِّلُ علينا أياما فى النزول إلى داره ثم يُرْسَمُ له بالنزول ، فأعادوا عليه الجواب بذلك وشَهِدوا عليه ، وتوجهوا إلى حال سبيلهم .

وأقام الخليفة بقلعة الجبل محتفظا به على عادته أوّلاً خليفة إلى ما يأتى ذِكْرُه . فكانت مُدّة سلطَنته من يوم جلس سلطاناً خارج دِمَشْق إلى يَوْمِ خَلْعِه يوم الإثنين أوَّل شَعْبان ، سبعة أشهر وخمسة أيام ، وأقام المستعين بقلعة الجبل إلى أن خُلِـع مِنَ الخلافة أيضاً بأخيه المُعْتَضِد داود بغير رضاه ، كما وَقَعَ فى خلعه من السلطنة ، وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ست عشرة وثمانمائة ، ودام مَخْلوعاً بقلعة الجبل فى دار بالقلعة مدّة ، ثم نُقِل إلى بُرْج بالقلعة إلى يوم عيد النَّحْر من سنة تسع عشرة وثمانمائة ، فأُنْزِل من القلعة نهاراً إلى ساحل النيل على فَرَس ، وصحبتُه أولاد الملك الناصر فرج وهم : فرج ، ومحمد ، وخليل ، وتوجّه معهم الأمير كُزُل الأرغون شاوِيّ ، فَدَام الخليفة المستعين هذا مسجونا بإسكندرية إلى أن نقلَهُ الملك الأشرف بَرْسِباى إلى قاعةٍ بثَغْر الإسكندرية ، فدام بها إلى أن تُوُفِّى بالطّاعون فى يوم الأربعاء لعشرين

بَقَيْن من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، ولم يبلغ الأربعين سنة من العُمر ومات وهو فى زعمه أنه مُسْتَمِرٌ على الخلافة ، وأنه لم يُخْلَع بطريق شرعى ، وعَهِدَ من بَعْدِه بالخلافة لوَلده يحيى ، فلمّا مات المعتضدُ داود فى يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول من سنة خمس وأربعين وثمانمائة ، تكلّم يحيى المذكور فى الخلافة ، وسَعَى سَعْياً عظيما ، فلم يَتِمّ له ذلك ، والله أعلم ، والحمد لله على كلّ حال .

فهـــرس

الجـــزء الثالث عشر

مـــن

كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة

فهرس الملوك والسلاطين الذين تولوا مصر

من سـنة ٨٠١ – ٨١٥ هـ

فهرس الأعلام

(ب)

(ح)

(خ)

(ص)

(ض)

(ط)

(غ)

(ف)

(ق)

(ل)

(م)

* * *

فهرس الأمم والقبائل والبطون والعشائر والأرهاط والطوائف والجماعات

(ن)

(ى)

فهرس البلاد والأماكن والأنهار والجبال وغير ذلك

(ت)

(خ)

(د)

فهرس الألفاظ الاصطلاحية وأسماء الوظائف والرتب والألقاب التى كانت مستعملة فى عصر المؤلف

(ا)

(ز)

(س)

(ن)

فهرس وفاء النيل

من سنه ٨٠١ ـــ ٨١٤ هـ

فهرس أسماء الكتب الواردة بالمتن والهوامش

فهرس الموضوعات

صفحة

إصلاح خطـــأ

وقع أثناء الطبع بعض أخطاء مطبعية نوضحها هنا ليستدركها القارئ .

ص	س	الخطـــأ	الصواب
٩	٣	وَجِدَ	وَجَدَ
١٤	١٦	حُلْبانَ	جُلُبَّان
١٨	١٣	ووفى	وتُوُفِّيَ
٢٤	٣	سعد الدين بن إبراهيم	سعد الدين إبراهيم
٣٤	١٥	نشدنا	أنشدنا
٣٦	٧	الهَيْذُبَانِىّ	الهَيْذَبانِىّ
٥٠	١٣	وبعثه	وبعثه
٥٢	٥	اهيذُبانىّ	الهَيْذَبانىّ
٥٦	٩	تخنف	تخلف
٥٨	٩	آفباى	آقْبَاى
٦٥	١٥	المقار	المنقار
٦٨	٩	الىاصرى	الناصرى
٧٢	٧	شبك	يشبك
٧٦	١٠	كشافىه	كشافته
٨٠	٥	السلطار	السلطان
٨٧	١٥	طلعوا	وطلعوا
٩٠	١٨	المدكورة	المذكورة
٩٣	٩	بقجه	بقجة

ص	س	الخطـأ	الصواب
٩٦	١٠	واسنقر	واستقر
١٠٨	٨	ألظنبغا	ألطنبغا
١١٣	١٥	يقملون	يقتلون
١١٤	٤	بوم	يوم
١١٦	٢٠	نووز	نوروز
١١٧	١٠	بن	بين
١١٨	٣	عذ	عنه
١٢٢	١	الحذمة	الخدمة
١٣١	١٩	المضغور	المضفور
١٤٢	٢٤	جان جوسيه	جان سوفاجيه
١٦٨	١١	المتن	الفتن
١٧٥	١٥	ورفقنه	ورفقته
١٧٧	١٤	ووبخ	ووبخه
١٧٨	٣	سمة	سنة
١٧٨	٧	نالث	ثالث
١٧٩	١	قجاحق	قجاجق
١٩٩	٢	أفماهم	أفناهم
٢٠٤	٧	لندم	لعدم

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٠/٤٢٨٢